أعلام الفقهاء والمحدثين

الإمام سفيان بن سعيد الثوري

سيد الحفاظ

٩٧ - ١٦١هـ / ٧١٦ - ٧٧٨م

الدكتور عصام محمد الحاج علي
أستاذ مساعد في التاريخ الإسلامي
بكلية الآداب في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣

الإهـــداء

إلى وطني الجريح الـذي قاسى الأمـرّين خلال سنوات المحنة... لبنان المحبة والوحدة...

إلى الإمام سفيان الثوري، وسائر العلماء الشرفاء العاملين من أجل وطنهم وأمّتهم...

إلى إخوتي وأخواتي الأعزّاء...

وبخاصة إلى أخي «علي» الذي رحل وهـو في ريعان الشباب.

مع أجمل الذكريات

عصـــام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقـــدمة

تتضمن هذه الدراسة، شخصية سفيان الثوري، الإمـام الحافظ، حجّة الإسلام واحد العلماء العاملين في زمانه. وقد وقع اختياري على هذا الفقيه الجليل، بعد دراستي لشخصية الإمام المجاهد «عبد الله بن المبارك» الذي تأثّر إلى حدٍّ كبير بمبادىء شيخه الثوري. فكان يقول فيه: «لولا أن الله تعالى أعانني بسفيان الثوري كنت كسائر الناس»، وكان إذا سُئِل في مسألة يقول: «رأيي رأي سفيان».

كذلك لفت انتباهي ما كان يتمتع به الرجل من مركز مرموق بين العلماء الأعلام الذين عاصروه، وخلعوا عليه بحق لقب: «أمير المؤمنين في الحديث».

وتتمثل أهمية البحث في الدور الريادي الذي قام به الثوري في مجتمع عصره، وتبنّيه مهمة الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر، على الرغم من الظروف العصيبة التي كانت تحيط به بما فيها تنقله وترحاله من بلد إلى أخرى، وملاحقة رجال السياسة له

وتتبّعهم لأثره بسبب جرأته عليهم، وعدم مخالطته إياهم، ورفضه بإصرار قبول مناصبهم حتى لا يكون عالة عليهم، أو شريكاً لهم في ظلمهم للرعية وجورهم عليهم.

كما تهتم الدراسة في تبيان أهمية الثوري على الصعيدين الشعبي والرسمي، ومدى تأثيره في رجالات عصره من الحكّام والعلماء وعامّة الناس. وخصوصاً بعد أن علمنا أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور كان يقول فيه: «ما بقي على وجه الأرض مَن يُستحيا منه غير هذا»، وقال في عفّته وعزّة نفسه: «ألقيا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً». فهذا غيض من فيض مما قاله الخلفاء في أهمية الرجل موضوع الدراسة.

أما عن موقف العلماء والزهّاد من الثوري؛ فأول ما يُطالعنا رأي بِشْر بن الحارث الحافي الذي أشار إلى أهمية الثوري وفضله عليه، فكان يقول: «الذي أنا عليه بل كلّ الذي أنا عليه جامع سفيان»، وهذه دلالة واضحة على أن الحافي كان ثوريّ المذهب، كذلك اعترف الإمام الزاهد الفضيل بن عياض بأُستاذيّة الثوري في حقل الورع، فعندما قيل له في بعض ما كان يذهب إليه في الورع؛ مَن إمامك في هذا؟ قال: «سفيان الثوري».

وحقيقة الأمر؛ أن دراسة هذه الموضوعات إنما تهدف، قبل

كل شيء، إلى إظهار قدر الرجال الأعلام من العرب والمسلمين الذين كانوا درّة في جبين الأمة، وشعلة يُهتَدى بهم في الدين والتقوى، ومن ثم تسليط الأضواء على موقف الحكّام من رجال هذه الفئة، ومحاولاتهم الجادّة لضمّهم إلى حاشيتهم وبشتى الوسائل الممكنة، وذلك بغية إسكاتهم وكفّ نشاطاتهم المُعادية للحكم.

ومن الطبيعي؛ أن دراسة هذه الشخصيات من شأنها أن توجّه أنظار الدارسين إلى أهمية أصحابها، وتساعد من جهة ثانية، على فتح باب هذه الدراسات على مصراعيه، ممّا يُتيح الفرصة لدراسة الجوانب المختلفة لشخصيات الأئمة الأعلام الذين قاموا بدور لا يُستهان به على جميع الأصعدة؛ الاجتماعية والدينية والسياسية.

وكان طبيعياً والحالة هذه، أن يتركّز الاهتمام في بداية هذا العمل على دراسة شخصية سفيان الثوري، وذلك لتتضح صورته من خلال تتبّع مراحل حياته العلمية، وهذا الأمر يُظهِر مكانته الفكرية، وقدرته على الاستيعاب والحفظ، وتفوقه على أقرانه من الأئمة والفقهاء.

وفيما يتعلق بالمجال الديني، فقد حاولت الدراسة إعطاء صورة واقعية عن عبادة الثوري، وحقيقة زهده وورعه، وتواضعه

وحُسْن أدبه، كما بيّنت موقفه من أهل البِدَع، ومن قضية خلق القرآن، وكلها شواهد جاءت لتؤكد على مصداقية الرجل، ونقاء سريرته، وحُسْن عبادته، ومن خلال هذا العرض تتبيّن لنا حقيقة المذهب الذي وضع أُسسه الثوري، والذي اعتنقه، فيما بعد، رهط من المسلمين؛ فساروا على نهجه؛ وتمسكوا بمبادئه لقرون عديدة؛ مما ساعد على تخليد الثّوري الذي اعتبرته المصادر من ضمن أصحاب المذاهب.

أما فيما يخصّ قضايا: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومخالطة السلاطين، وتولّي مناصب الحكّام، وأخذ عطاياهم»، فقد عملت الدراسة على عرض الموقف المبدئي للإمام سفيان الثوري من تلك القضايا، ثم تناولت موقفه العملي أو التطبيقي، وهذا كله يُظهِر أن الثوري كان يُقرِن القول بالفعل. ليُرضي بذلك الله عزّ شأنه وضميره، ويكون قُدوة للآخرين.

وعن علاقة الثوري بالخلفاء والأمراء العباسيين، فقد عرضت الدراسة بعض المواقف المشرِّفة عن «الشجاعة الأدبية» التي كان يتحلّى بها الإمام أثناء وقوفه بين يدي سادة القوم، بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت له مراسلات شجاعة وشديدة اللهجة مع الخليفة أبي جعفر المنصور ومن بعده مع خليفته محمد المهدي، وهي في معظمها، إذا لم نقل كلها، كانت تهدف إلى تقويم الاعوجاج الذي سلكاه في إدارة الخلافة العباسية. ويمكننا

القول: إن دراسة هذه الناحية قد ساعدت على توضيح السياسة التي اعتمدها بعض خلفاء بني العباس تجاه الأئمة والفقهاء الزاهدين، كما ساهمت في إلقاء الضوء على سِمات هامّة من تاريخ العباسيين الاجتماعي.

وفي الفصل الأخير؛ تناولت الدراسة بعض رسائل الثوري وعِظاته؛ التي كان يبعث بها بين الفينة والأخرى إلى أصحابه من العلماء وسائر معارفه من عامّة الناس، وفي الختام كانت لنا جولة مع رحلة الوفاة، وما أحدثته من ألم عميق، وصدًى بالغ الأثر في نفوس معاصريه. وقد نتج عن ذلك كله، رُؤًى صالحة تليق بشخصية الثوري الذي رحل تاركاً خلفه الأثر الجميل، والذكرى الخالدة.

ومن المفيد أن نذكر؛ أن هذه الدراسة قد اعتمدت على العديد من المصادر التاريخية بما فيها كتب الطبقات والتراجم ولا ضرورة لذكرها هنا لأنني قد أودعتها مفصّلة في نهاية هذا البحث، وكلها ساعدت بشكل أو بآخر في إغناء مختلف جوانب الدراسة. وأمدّتها بالمعلومات القيّمة التي ساهمت في إلقاء الضوء على جوهر شخصية الإمام سفيان الثوري، الذي كانت له نشاطات جمّة على أكثر من صعيد.

وخلاصة القول؛ إنني أضع بين يدي القارىء هذه الدراسة المتواضعة؛ آملاً أن أكون قد تمكّنت بها من معالجة جوانب مهمة

من شخصية سفيان الثوري، كما أرجو أن تكون هذه الدراسة جديرة باحتلال مكانتها في المكتبة العربية، ويبقى الله وحده وليّ التوفيق.

دكتور عصام محمد الحاج علي
النبطية - جنوب لبنان
في ٣ ربيع الثاني ١٤١٠
١ تشرين الثاني ١٩٨٩

توطئـــــة

أولاً ـ أحوال العراق الداخلية حتى وفاة سفيان الثوري:

ولد سفيان بن سعيد الثوري في سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م بالكوفة في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩/ ٧١٥ ـ ٧١٧)، وتوفي سنة ١٦١/٧٧٨ في خلافة المهدي بن المنصور العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥)، وذلك استناداً إلى رواية ابن سعد في طبقاته[1]. وبهذا يكون الثوري قد عاصر ثمانية خلفاء من العهد الأموي هم:

سليمان وعمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١/ ٧١٧ ـ ٧٢٠)، ويزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤)، وهشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣)، والوليد بن يزيد (١٢٥ ـ ١٢٦/ ٧٤٣ ـ ٧٤٤)، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦/ ٧٤٤، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦/ ٧٤٤، ومروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢/ ٧٤٤ ـ ٧٥٠).

وعاصر كذلك ثلاثة خلفاء من العصر العباسي هم:

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٦، ص ٣٧١، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٧/١٩٥٧.

أبو العباس السفّاح (١٣٢ ـ ١٣٦/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤)، وأبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥) والمهدي.

ومن الواضح؛ أن الثوري قد عايش الدولة الأموية منذ نعومة أظفاره، وحتى منتصف العقد الرابع من عمره، ولقد كان خلال ذلك مقيماً بالكوفة ومنهمكاً بالعلم والتعليم، ولكن مشاغله تلك لم تمنعه من القيام ببعض الرحلات القصيرة الأمد، زار من خلالها كلًّا من بُخارى ومرو وغيرهما[1]، بذلك يكون الثوري قد واكب أهم الأحداث السياسية التي شهدتها بلاد العراق بعامّة، ومدينة الكوفة بخاصّة.

انطلاقاً من ذلك، وجدت من المناسب أن أتناول بالبحث، أبرز الأحداث التي عاشتها تلك البقعة الهامّة من بقاع العالم الإسلامي، وهذا الأمر يتطلب منّا العودة، أثناء سَرْد الحوادث، إلى الوراء، بهدف إلقاء نظرة شبه شاملة على تاريخ مدينة الكوفة، التي كان لها دورها الفعّال في تغيير مجرى الأمور المستجدّة على الساحة العربية والإسلامية.

وإن المتتبّع لمراحل التاريخ الإسلامي يتبيّن له، أن هذه المدينة التي مُصِّرت في سنة ١٧/ ٦٣٨ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[2]، قد شهدت أهم الأحداث السياسية والعسكرية.

ومن الملاحظ؛ أن شُهرة الكوفة بدأت تظهر للعيان عندما قَدِمَها

---

(١) أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، جـ ٩، ص ١٥٣، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.

(٢) أحمد بن يحيىٰ البلاذري، فتوح البلدان، علّق عليه رضوان محمد رضوان، ص ٢٧٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.

الإمام علي بن أبي طالب على إثْر معركة الجمل سنة ٣٦/٦٥٧[١]، واصطفاها لأن تكون عاصمة لحكمه، ولكن لم يطل مقامه فيها إذ سرعان ما اغتيل في سنة ٤٠/٦٦١[٢].

وبعد علي عمد أهل العراق إلى ابنه الحسن فبايعوه وأشاروا عليه بالمسير ليأخذ الشام من معاوية، فلما تقارب الجيشان ورأى الحسن أن المصلحة في جمع الكلمة وترك القتال، فراسل معاوية لينزل له عن الأمر وليكون وليّ العهد من بعده، فأجابه معاوية إلى ذلك، فتوافقا ودخلا معاً إلى الكوفة في سنة ٤١/٦٦١[٣]، وسُمّي هذا العام «عام الجماعة» لاجتماع الأمة بعد الفُرقة على إمام واحد[٤]. وبذلك تحقّقت مقولة النبي ﷺ، إذ إنه كان يقول في حق الحسن: «ابني هذا سيّد ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»[٥]. وفي تلك

(١) دارت وقعة الجمل بالقرب من البصرة بين علي بن أبي طالب من جهة وعائشة وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوّام من جهة ثانية، فقتل من الفريقين نحواً من عشرين ألفاً، وقتل طلحة والزبير وعادت عائشة إلى المدينة. محمد بن أحمد الذهبي، دول الإسلام، ص ٢٠، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٥.

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، كتاب الإمامة والسياسة، جـ ١، ص ١٥٠ وما يلي، القاهرة: ط ١، ١٩٠٩.

(٣) عزّ الدين علي بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٤٠٤ وما يلي، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩. جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد عبد الحميد، ص ١٩١، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط ١، ١٩٥٢.

(٤) الذهبي، دول الإسلام، ص ٢٧.

(٥) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، جـ ٢، ص ٢٩٨، الهند: حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط ١، ١٣٢٥. السيوطي، ص ١٩٢.

المناسبة خطب الحسن فقال: «أيّها الناس! إن الله هداكم بأوّلنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وقد سالمت معاوية، وإن أدري لعله فتنة لكم، ومتاع إلى حين»(١)، ثم سار الحسن بأهله إلى المدينة النبوية وأقام بها(٢)، ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصير الكوفة بمصير الدولة الأموية.

ففي عهد معاوية تولّى عمل الكوفة المغيرة بن شعبة فقصدها في سنة ٤١/٦٦١ بعد أن زوّده معاوية بوصية(٣) رسم له فيها سياسة بني أمية تجاه أهل الكوفة. مما تسبّب بقيام نزاعات بين السلطة الحاكمة وشيعة علي أمثال: حجر بن عدي (٤)، الذي كان يقف في وجه المغيرة كلما شتم عليّاً في المسجد، وكان المغيرة بالمقابل يصفح عنه ويتركه دون التعرّض له، فلما عُوتب المغيرة في ذلك قال: «إني قد قتلته، سيأتي من بعدي أمير يحسبه مثلي فيصنع به ما ترونه يصنع بي، فيأخذه ويقتله! إني قَرُبَ أجلي ولا أُحب أن أقتل خِيَارَ أهل هذا المِصْر، فيسعدون وأشقى، ويُعَزّ في الدنيا معاوية، ويشقى في الآخرة المغيرة»(٥).

---

(١) أحمد بن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢١٥، بيروت: دار صادر، د.ت.

(٢) علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر، ص ٨٠، بيروت: دار الأعلمي، ١٩٨٧.

(٣) عن الوصية، راجع محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ١٨٨، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ط ٤، ١٩٨٣. وابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٤٧٢.

(٤) عنه بالتفصيل راجع، ابن سعد، كتاب الطبقات، جـ ٦، ص ٢١٧ - ٢٢٠.

(٥) ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٤٧٣.

وبالفعل فقد تحقّق ما قاله المغيرة، فبعد وفاته سنة ٥٠/ ٦٧٠، جعل معاوية ولاية الكوفة لزياد بن أبيه، فحصلت بين شرطته، وبين حجر وأصحابه مواجهات عنيفة انتهت بالقبض على حجر وأتباعه؛ حيث سيقوا إلى دمشق فأمر معاوية بقتلهم، فقتلوا صبراً بمرج عذراء سنة ٦٧١/٥١(١)، وكانت وصيّة حجر لمَن حضر من أهله: «لا تطلقوا عنّي حديداً، ولا تغسلوا عنّي دماً، فإنّي مُلاقي معاوية غداً على الجادّة»(٢)، وعلى إثر هذه الأحداث كان الناس يقولون: «أول ذلٍّ دخل الكوفة موت الحسن بن علي، وقتل حجْر، ودعوة زياد»(٣).

بعد ذلك؛ شهدت الكوفة أهم حدث في تاريخ الشيعة ألا وهو استشهاد الحسين بن علي (ع) سبط رسول الله ﷺ. وذلك بعدما كاتبه أهل الكوفة يحثّونه على القدوم إليهم، فاستجاب لهم وقَدِمَ عليهم، فسار لقتاله عمرو بن سعد بن أبي وقّاص بأمر من عبيد الله بن زياد بن أبيه، والي المِصْرين البصرة والكوفة، فجرت بينهما وقعة دامية على أرض كربلاء استشهد على إثرها الحسين بن علي وذلك في العاشر من محرّم ٦١/ ١٠ تشرين الأول ٦٨٠(٤).

فيما بعد، عاشت الكوفة في حالة من الغليان، على إثر ظهور

(١) ابن الأثير، جـ٣، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤؛ ٤٧٦.
(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص ١٩٠ ـ ١٩١.
(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٨٧.
(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥. محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ١١٣ وما يلي، بيروت: دار صادر، د.ت. أحمد بن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، المجلد ٣، ص ٢٩ ـ ٣٦، ٩٤ ـ ١٢٦، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.

حركة التوّابين الذين صمّموا على الأخذ بثأر الحسين بن علي، ففي سنة ٦٥/٦٨٤؛ سار الأميران سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيّب بن نجبة الفزاري في أربعة آلاف ثائر، وقصدوا عبيد الله بن زياد، وكان مروان بن الحكم قد وجّهه ليأخذ له العراق في ثلاثين ألف فارس، فالتقوا بموضع يُقال له «عين الوردة» في الجزيرة فدارت بينهم معركة طاحنة، قتل فيها سليمان وأصحابه(١).

ثم ظهر بالعراق المختار بن أبي عبيد الثقفي، فالتفّت عليه الشيعة في سنة ٦٦/٦٨٥، فجهّز إبراهيم بن الأشتر في ثمانية آلاف لقتال عبيد الله بن زياد، فالتقى الجيشان بالقرب من الموصل في سنة ٦٧/٦٨٦، فدارت الدائرة على جيش الأمويين، وكانوا أربعين ألفاً، وتمكّن ابن الأشتر من قتل ابن زياد بنفسه، فضربه ضربة قدّته نصفين. بعد ذلك غلب المختار على الكوفة، وأبادَ قتَلَة الحسين، كعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن، وتتبّع سائر أشراف المدينة الذين شاركوا في وقعة كربلاء(٢).

وعلى إثر هذه الأحداث، قرر مصعب بن الزبير أن يطيح بالمختار قبل استفحال أمره في العراق التي لم تبايع لعبد الملك بن مروان، وإنما كانت هي والحجاز في يد أخيه عبد الله بن الزبير، لهذا بعث بجيش

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٧. الذهبي، دول الإسلام، ص ٤١. ابن أعثم، م ٣، ص ٢٣١ - ٢٤٣.
(٢) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٥٨ - ٢٥٩. ابن أعثم م ٣، ص ٢٦٤ - ٢٧١، ص ٢٩٤ وما يلي، وص ٣٠٨ - ٣١٤. علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ ٣، ص ٩٨، بيروت: دار الأندلس، ط ٢، ١٩٧٣.

كثيف إلى الكوفة، فجابههم المختار في قلّة من أتباعه إلى أن قتل بقصر الإمارة في سنة ٦٨/٦٨٧، فأخذ مصعب رأسه ورؤوس كبار أصحابه وأرسلهم إلى أخيه بمكّة، وقام باضطهاد أهل الكوفة(١).

في تلك الأثناء زحف عبد الملك بن مروان على العراق، فنزل قرب معسكر مصعب، فلما تدانى الجيشان غدر أهل العراق بابن الزبير ولحقوا بعبد الملك، وبعد وقعات متلاحقة وجد مصعب نفسه في نفر قليل من أنصاره، فقاتل حتى قتل في سنة ٧٢/٦٩١؛ فاحتزت رأسه، وطوّف بها بالكوفة، ثم دخل عبد الملك المدينة، وخطب بأهلها، ثم وزّع عطاياه على الأشراف لقاء تخلّيهم عن ابن الزبير، وقبل أن يغادر البلاد ترك أخاه بشر بن مروان عاملاً له على العراق(٢).

في هذا الوقت تفاقم خطر الخوارج الذين كانوا يكنّون العداء للأمويين، وقد تربصوا بهم الدوائر منذ بداية حكمهم(٣) فكانوا يهاجمون عمّالهم في البصرة والكوفة باستمرار، فنجد المغيرة، وزياد ابن أبيه، وابنه عبيد الله قد شُغِلوا بالخوارج، وألحّوا في طلبهم بخاصة في مدينة البصرة(٤)، أما الكوفة فقد كان خوارجها قليلين، لأنها شيعة(٥)، ولكن ذلك لم يجعلها في منأى عن الفتنة التي أقلقت أمن العراق.

---

(١) الطبري، جـ ٤، ص ٥٥٨ وما يلي. اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٦٣ وما يلي. ابن أعثم، م ٣، ص ٣١٦ ـ ٣٢٧.
(٢) المسعودي، جـ ٣، ص ١٠٤ ـ ١٠٨. ابن الأثير، جـ ٤، ص ٣٢٣ وما يلي. ابن أعثم، م ٣، ص ٣٧٣، وما يلي ص ٤١٨.
(٣) الطبري، جـ ٤، ص ١٢٦.
(٤) أبو حنيفة أحمد الدينوري، الأخبار الطِوال، ص ٢٦٥، القاهرة: د.ت.
(٥) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ٢، ص ١٣٨، بيروت: مكتبة الجامعة العربية، ط ٣، ١٩٦٦.

ولما مات بشر بن مروان في سنة ٦٩٣/٧٤ وجّه عبد الملك إلى العراق قائده الحجّاج بن يوسف الثقفي فولّاه البصرة والكوفة وغيرهما، وأمره أن يجيّش الناس لحرب الخوارج(١). فشخص إلى الكوفة، ودخل مسجدها متلثّماً بعمامة، متقلّداً سيفه، متنكّباً قوسه، ثم ألقى خطبته الشهيرة، وقد لخّص من خلالها سياسته التي سوف يعتمدها إزاء أهل العراق، وعلى إثر ذلك، أصدر أوامره بضرب عنق كلّ مَن يتخلّف عن حرب الخوارج(٢). وظل هذا دأبه حتى سجّل انتصاراته على شبيب بن يزيد الخارجي في سنة ٦٩٦/٧٦، وبذلك أخمدت الفتنة التي أقلقت الحكم الأموي في العراق(٣).

ولثقل وطأة الحجّاج على الأهلين، اشترك أهل الكوفة بأحداث فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، فوثبوا بعامل الحجّاج، وأحرقوا الديوان في سنة ٧٠١/٨٢، عندئذ دخل ابن الأشعث الكوفة، وحشد أهلها معه؛ بحيث لم يبقَ من وجوههم وقرّائهم أحد إلّا خرج لنصرته(٤)، فكانت المعركة الفاصلة بدير الجماجم بظاهر الكوفة، حيث انكسر ابن الأشعث، وقتل معه عدد من القرّاء والفقهاء من بينهم الفقيه عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي(٥).

---

(١) الطبري، جـ ٥، ص ٤٠.
(٢) المسعودي، جـ ٣، ص ١٢٦ وما يلي. أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، جـ ١، ص ٢٢٤، بيروت: مكتبة المعارف.
(٣) الطبري، جـ ٥، ص ٥٧ وما يلي.
(٤) المسعودي، جـ ٣، ص ١٣١ وما يلي. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٧٢.
(٥) البلاذري، ص ٢٨٢. الذهبي، دول الإسلام، ص ٤٨.

ولما صفا الجو للحجّاج؛ تمادى في سفك الدماء حتى قتل من أهل العراق مائة وعشرين ألفاً، وتوفي في محابسه خمسون ألف رجل وعشرون ألف امرأة غير الذين قتلهم[1]، لهذا كان أهل العراق يشمتون فيه إذا مرض ويتمنّون موته، ولكن لم يتمّ لهم ذلك إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٥/٧١٤[2].

ومن الملاحظ؛ أنه لم تحصل في عهد الوليد فتن واضطرابات داخلية كتلك التي حصلت في عهد أسلافه، لهذا كرّس جهوده لحرب الروم، وفتح الأندلس، وبلاد ما وراء النهر والسند وبذلك اتّسعت رقعة الديار الإسلامية[3].

كذلك اهتم الوليد بالعمارة، فأقام للمسلمين أفضل عمائرهم وأجملها مثل الجامع الأموي في دمشق، والمسجد الأقصى، ومسجد النبي في المدينة، وقلّده في ذلك سائر عمّاله حتى شاع هذا الأمر. فكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارة[4].

وبعد الوليد جاء سليمان بن عبد الملك في سنة ٩٦/٧١٥،

---

(١) المسعودي، جـ٣، ص ١٦٦، مؤلف مجهول. العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق «de Geoje»، جـ٣، ص ١٠، طبعة «Brill» ١٨٧١.

(٢) المسعودي، جـ٣، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) العيون والحدائق، ص ٢ ـ ٣، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٤) تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٢٨٤. الفخري، ص ١٢٧، العيون والحدائق، ص ٤ وما يلي.

فصمّم على إصلاح ما أفسده الحجّاج الذي أسرف في الظلم والعسف والتعدّي والقتل، لهذا أحسن سليمان السيرة وردّ المظالم وفكّ الأسرى وردّ المنفيّين واستخلف عمر بن عبد العزيز، لهذا قال الناس فيه: «إنه فتح بخير وختم بخير فسُمّي مفتاح الخير»[1]، ولكن ذلك كله لا ينفي عنه تهمة الإساءة إلى بني هاشم، بقتله أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية في سنة ٩٨/٧١٦[2]، كذلك لا يغفر له التاريخ موقفه المتشدّد من قادة الفتوح أمثال: قتيبة بن مسلم القائد المظفر في بلاد ما وراء النهر[3]، ومحمد بن القاسم فاتح السند[4]، وموسى بن نصير فاتح بلاد الأندلس[5].

وعلى الرغم من ذلك؛ يبدو أن الناس قد أحبّوا سليماناً لحبه للحياة، أو لأنه أحسن إليهم، ولم يستعمل معهم الشدّة على عكس ما

---

(١) العيون والحدائق، ص ١٧.
(٢) مقاتل الطالبيين، ص ١٢٤. تاريخ اليعقوبي، جـ ٢. ص ٢٩٦ - ٢٩٨.
(٣) ابن الأثير، جـ ٥، ص ١٢، وما يلي. تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٩٥. عبد الحيّ بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، جـ ١، ص ١١٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٧٩. قضى قتيبة بن مسلم بسعاية من سليمان بن عبد الملك بسبب موقفه من خلافته. فلما بُعِث برأسه إلى سليمان قال رجل من العجم: «يا معشر العرب قتلتم قتيبة، ووالله لو كان منّا ثم مات فينا لجعلناه شهيداً ولحفظنا تابوته إلى الحشر نستفتح به إذا غزونا»، العيون والحدائق، ص ١٩.
(٤) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٨٨ - ٢٨٩، ٢٩٦.
(٥) أحمد بن محمد المقرّي، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد عبد الحميد، جـ ١، ص ٢٦٢ - ٢٦٣، ٢٦٤ وما يلي، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.. ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٢ - ٢٣.

كان عليه الحال في عهد أسلافه. وهذه السياسة لهت الناس وأعمتهم عن مساوىء سليمان وتصرفاته حتى أنهم تطبعوا بطابعه، فكانوا إذا التقوا يسألون بعضهم بعضاً عن النكاح والطعام مثله(١).

ومهما يكن من أمر؛ فإن سليمان ارتأى أن يولّي يزيد بن المهلب على العراق مكان الحجّاج، فاستعفى يزيد وأشار عليه بتعيين صالح بن عبد الرحمن(٢)، واستعمل على واسط الجرّاح بن عبد الله الحكمي، وعلى البصرة عبد الله بن هلال الكلابي، وعلى الكوفة بشير بن حيّان النهدي(٣)، ولم تمدّنا المصادر بتفاصيل عن مجريات الأمور التي حصلت داخل العراق إبّان تلك الحقبة، وربما يعود ذلك لاستتباب الأمن في البلاد، وإما بسبب الاهتمام بالفتوحات التي قُدّر لها أن تبلغ أبواب القسطنطينية(٤).

وبعد سليمان الذي حكم زهاء ثلاث سنين وتوفي في سنة ٧١٧/٩٩ (٥)، تولّى السلطة عمر بن عبد العزيز؛ فملأ الأرض عدلاً (٦) بفضل تسامحه وعدله ورأفته، فنزع إلى المثالية في الحكم، وازداد تقشفاً وزهداً (٧)، فتشبّه بالخلفاء الراشدين، وسار على نهج

---

(١) الفخري، ص ١٢٧، وجاء في العيون والحدائق ص ٣٤: إن سليمان كان «نكّاحاً أكولاً شَرِهاً».
(٢) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٣. العيون والحدائق ص ١٩ ـ ٢٠.
(٣) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٥.
(٤) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢٩٩. ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٧.
(٥) الذهبي، دول الإسلام، ص ٥٨.
(٦) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٥٩. السيوطي، ص ٢٣١.
(٧) العيون والحدائق ص ٤٠. الفخري، ص ١٢٩. المسعودي، جـ ٣، ص ١٨٦.

الصحابة، لذلك أخرجه المؤرّخون من بين الخلفاء الأمويين وعدّوه خامس الخلفاء الراشدين[1].

وقد تميزت سياسة عمر بالتقرّب إلى العلويين، فبعد أن كان الولاة من بني أمية قبله يسبّون عليّاً على المنابر، نجده يأمر بالإمساك عن ذلك[2]، وأظهر حُسْن نيّة نحوهم بردّه أرض فدك إلى ولد فاطمة بنت الرسول ﷺ[3]. وبفضل سياسته الرشيدة؛ أعلن الخوارج عن توقف نشاطهم ووقوفهم على الحياد في الصراعات الدائرة في المنطقة[4] وتهافتت الشعوب المفتوحة إلى الإسلام ولاسيما بعد أن نظر في الضرائب المفروضة عليهم، وردّه للمظالم[5].

أما عن سياسة عمر في العراق، فأول عمل قام به، أنه أمر بعزل يزيد بن المهلّب عن عمله، ووجّه إلى البصرة عديّ بن أرطأة الفزاري، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن وضمّ إليه أبا الزناد كاتباً[6]، وقد أوصى بأهل الكوفة خيراً فكتب إلى عبد الحميد قائلاً: «أما بعد؛ فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدّة وجور في أحكام الله وسُنّة خبيثة سنّها عليهم عمّال سوء، وإن قوام الدين العدل والإحسان...»، ثم رسم له السياسة الواجب اعتمادها في هذا المصر مشدّداً على الرفق والتسامح[7].

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٦٥.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٤٢. الفخري، ص ١٢٩.
(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٠٥. السيوطي، ص ٢٣١ - ٢٣٢.
(٤) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٤٥ وما يلي. العيون والحدائق، ص ٤١ وما يلي.
(٥) ماجد، التاريخ السياسي، ص ٢٦٠ وما يلي.
(٦) ابن الأثر، جـ ٥، ص ٤٥ وما يلي. العيون والحدائق، ص ٤١ وما يلي.
(٧) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٦١.

وبالمقابل فإن الخليفة كان متشدداً في المحافظة على أموال الدولة، فكان يقول: «إنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها»(١). لهذا أمر بالقبض على يزيد بن المهلّب بسبب مماطلته في إرجاع خُمْس الغنائم التي في حوزته، فقبض عليه عديّ بن أرطأة والي البصرة وأرسله إليه موثوقاً، فحبسه عمر في حصن حلب في سنة ٧١٨/١٠٠، وجعل يقول في آل المهلّب: «هؤلاء جبابرة ولا أُحبّ مثلهم»، ولكن ابن المهلّب استطاع الفرار من سجنه لما سمع بموت الخليفة في سنة ٧١٩/١٠١؛ لخوفه من وليّ العهد يزيد بن عبد الملك(٢). هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن سفيان الثوري قد وعى موت الخليفة فسمع يقول: «أدركت النَّوْحَ على عمر بن عبد العزيز»(٣).

مهما يكن من أمر فإن خوف ابن المهلّب كان في محله، فما أن تولّى الخلافة يزيد حتى قرر الانتقام منه، لأنه كان قد عذب آل الحجّاج في زمن سليمان بن عبد الملك، وكان من بينهم زوجة يزيد أو أُختها، فعذّبها، فأتى يزيد إلى ابن المهلّب في داره فشفع فيها، فلم يقبل منه، فهدّده وقال له: «أما والله لئن وُلِّيت من الأمر شيئاً لأقطعنّ منك عضواً»، فقال المهلّب: «والله لئن كان ذلك لأرمينّك بمائة ألف سيف»(٤).

لهذه الأسباب؛ فرّ ابن المهلّب إلى البصرة، فانضمّت إليه

---

(١) المصدر السابق، جـ ٥، ص ٤٩.
(٢) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٠٢ - ٣٠٣، ٣٠٨. ابن الأثير، جـ ٥، ص ٤٨ - ٤٩، ٥٧. العيون والحدائق، ص ٤٩ وما يلي.
(٣) يحيىٰ بن معين، تاريخه، تحقيق عبد الله حسن، جـ ١، ص ٤٠٨، بيروت: دار القلم د.ت.
(٤) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٥٧.

اليمانية، في حين قصدت المضرية عديّ بن أرطأة، فوقع القتال بينهما، فانتصر ابن المهلّب الذي مالت إليه عساكر عديّ لكرمه وحُسْن سياسته، بخاصة عندما كان والياً على العراق من قِبَل الخليفة سليمان(١). ثم أقدم ابن المهلّب على خطوة جريئة وخطيرة، فقرر خلع الخليفة يزيد بن عبد الملك وشتم بني مروان من على المنابر، ودعا إلى الرضا من بني هاشم(٢)، فكانت بيعته على كتاب الله وسُنّة نبيّه(٣). ثم هدّد وتوعّد فقال: «إنّي لأرجو أن أهدم دمشق حجراً حجراً»(٤)، وتهكّم في خطبته على عامل الكوفة عبد الحميد فقال عنه: «هذه الضبعة العرجاء مضطجعة بالكوفة»(٥). وبذلك أشعل جبهة الكوفة في وجهه، وأعلنها حرب تحرير شاملة ضدّ الوجود الأموي في العراق.

وهكذا عادت البلاد إلى الثورة على الخلافة الأموية، كما حدث في فتنة المختار وابن الزبير وابن الأشعث من قبل، وعاد النزاع بين الشام والعراق(٦).

في هذه الظروف الحرجة؛ أرسل الخليفة أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى العراق؛ ومعه جَمْع عظيم من أهل الشام والجزيرة عُدّتهم ثمانون ألفاً؛ فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة من أرض الكوفة، وعسكر ابن المهلّب بالعقر قرب كربلاء؛ فانضم إليه أُناس من الكوفة، ونزل

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٧١ وما يلي.
(٢) العيون والحدائق، ص ٦٥.
(٣) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٧٥.
(٤) العيون والحدائق، ص ٦٨.
(٥) المصدر نفسه، ص ٦٦.
(٦) ماجد، المرجع السابق، ص ٢٧٥.

عبد الحميد النخيلة وبثق الأنهار لئلا يصل أحد إلى المدينة(١). ولما احتدم القتال تمكّنت الجبهة الشامية من صدّ آل المهلّب عن أخذ الكوفة، وبعد قتال شديد تغلّب مسلمة على جيش ابن المهلّب الذي ما أن شعر بالهزيمة حتى امتطى جواده وقاتل بشجاعة حتى قُتِل فاحتزّت رأسه ورؤوس أصحابه، وحُمِلت إلى يزيد بن عبد الملك فأمر أن يُطاف بها في الشام(٢).

وأما الأسرى فسرّحهمَ مسلمة إلى الكوفة حيث قتلوا عن آخرهم، وهرب مَن بقي من آل المهلّب إلى كرمان فأرسل مسلمة في طلبهم حتى قُتِل أغلبهم(٣). وبذلك أُخمِدت فتنة آل المهلّب فقُضِي على سُلالتهم بعد أن قاموا بفتوحات عظيمة وخدموا الدولة الأموية بإخلاص.

ومن الواضح؛ أنه لم تكن فتنة ابن المهلّب هي الحَدَث الوحيد الذي عاشته العراق في عهد يزيد بن عبد الملك، ولكن لسوء سياسته؛ انبعث نشاط الخوارج من جديد بعد أن هدأ طوال عهد عمر بن عبد العزيز، فهاجم شوذب الخارجي المعروف باسم بسطام مدينة الكوفة وهدّد أمنها، ودبّ الرعب في قلوب أهلها، وهزم جيوشها مرّات عديدة(٤)، وظل هذا دأبه حتى جهّز مسلمة بن عبد الملك جيشاً كثيفاً جعل على رأسه سعيد بن عمر الحرشي وسيّرهم لحرب بسطام، فتمكّنوا من قتله بعد معركة طاحنة(٥).

---

(١) العيون والحدائق ص ٦٨ ـ ٧٠، ابن الأثير، جـ ٥. ص ٧٩ وما يلي.
(٢) العيون والحدائق، ص ٧١ ـ ٧٤.
(٣) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٨٤، ٨٥ وما يلي.
(٤) العيون والحدائق، ص ٦٤ ـ ٦٥.
(٥) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٦٩ ـ ٧٠.

وفي سنة ١٠٢/ ٧٢٠ عزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق وقام مكانه عمر بن هبيرة فاستهلّ عهده بمتابعة حرب الخوارج لإعادة الهدوء والطمأنينة إلى البلاد[١]، وقد استمر ابن هبيرة على العراق حتى مجيء هشام بن عبد الملك.

استهلّ هشام عهده بعزل ابن هبيرة، وولّى مكانه خالد بن عبد الله القسري في سنة ١٠٥/ ٧٢٤، فَقَدِمَ البلاد في يوم جمعة، فصلّى بالناس وقرأ عهده، ثم قبض على ابن هبيرة عامل القسية وحبسه[٢]، وذلك لامتصاص نقمة اليمانية التي كانت لا تزال تحقد على الخلافة الأموية. وقد نجح هشام في اختياره لخالد؛ لأنه كان من قبيلة محايدة في النزاع القبلي الأمر الذي ساعد عل أن يقدّم للعراق فترة استقرار طويلة؛ تخلّلتها بعض الفتن والاضطرابات من قِبَل الخوارج بزعامة بهلول بن بشر الشيباني، الذي صمّم على الفتك بخالد القسري، لأنه حسب قول أصحابه: «يهدم المساجد، ويبني البِيَع والكنائس، ويولّي المجوس على المسلمين، ويُنكِح أهل الذمّة المسلمات»[٣]. فلما انتشر خبرهم تخوّف الناس وتركوا ديارهم، فأعدّ خالد جيشاً قوياً وبعث به نحو الخوارج، ولكنه هُزِمَ أمام بهلول الذي صمّم هذه المرة على الفتك بالخليفة نفسه، فقال لأصحابه: «إنّا والله ما نصنع بابن النصرانية شيئاً، يعني خالداً، فلِمَ لا نطلب الرأس الذي سلّط خالداً»[٤].

ولما علم هشام بالأمر وجّه الجيوش نحوهم فالتقوا بكحيل دون

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٩٧ وما يلي، ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ١٢٤، العيون والحدائق، ص ٨٣.
(٣) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢١٠.
(٤) العيون والحدائق، ص ١١٠ ـ ١١١.

الموصل، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فطعن بهلول ومات، وهزم أصحابه بناحية الفرات فتلقّاهم عبيد أهل الكوفة وسفلتها حتى قتلوهم[١] وبعثوا برؤوس القتلى إلى هشام فقال: «ردّوا الرؤوس إلى العراق لا يتخذوا هاهنا دار هجرة»[٢].

في سنة ١٢٠/٧٣٨؛ غضب هشام على خالد القسري فعزله عن العراق وذلك؛ لأنه كان يتناوله بالشتيمة، أو لحقد الخليفة عليه بسبب أمواله الكثيرة، وقيل أيضاً لأنه تساهل مع الشيعة ووصلهم[٣]. ولأن أمه كانت نصرانية مما شجّعه على الاستعانة بأهل الذمّة[٤]، فهذه الأسباب مجتمعة أطاحت بحكم خالد واستبدل بابن عمّ الحجّاج «يوسف بن عمر الثقفي» الأمر الذي تسبّب بعودة الفتن إلى العراق.

والواضح؛ أن نشاط الشيعة عاد ليحتل الصدارة في أحداث الكوفة، فبعد أن خضعوا للحكم الأموي منذ أن أُخمدت ثورة المختار نجدهم يعلنون الثورة بقيادة زيد بن علي في سنة ١٢٢/٧٤٠[٥]، بسبب المعاملة القاسية التي كان يعامله بها الخليفة هشام بن عبد الملك، وعامِله على العراق يوسف الثقفي[٦].

وتشير الروايات؛ إلى أن زيداً لم يكن ينشد الخروج أول الأمر، بدليل أنه غادر الكوفة متوجهاً إلى القادسية استجابة لأوامر الخليفة،

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢١٠ - ٢١١.
(٢) العيون والحدائق، ص ١١٠.
(٣) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢١٩ - ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٩.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٢١٠.
(٥) مقاتل الطالبيين، ص ١٣٢، المسعودي، جـ ٣، ص ٢٠٦.
(٦) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٢٥.

ولكن شيعته لحقت به وقالوا له: «أين تخرج عنّا ومعك مائة ألف سيف من أهل الكوفة والبصرة وخراسان يضربون بني أُمية بها دونك»[(١)]، فأبى عليهم وجعل يقول لهم: «إني أخاف أن تخذلوني وتسلّموني كفِعلَكم بأبي وجدّي»[(٢)]، فما زالوا يناشدونه حتى رجع بعد أن أعطوه العهود والمواثيق والأيمان المغلّظة وبايعوه على «كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين»[(٣)].

ثم أقام زيد بالكوفة بضعة أشهر، وأرسل دُعاته إلى الآفاق يدعون الناس إلى بيعته[(٤)]، فأقبلت الشيعة وغيرهم يختلفون إليه ويبايعونه، حتى أحصى ديوانه خمس عشر ألف رجل من أهل الكوفة وحدها[(٥)]، ولكنه يوم أعلن ثورته وافاه مائتان وثمانية عشر رجلاً، فتعجّب زيد من ذلك وقال: «سبحان الله، فأين الناس؟»، فقيل له: هم محصورون في المسجد الأعظم، فقال: «لا والله ما هذا بعذر لِمَن بايعنا» [(٦)]، ثم أقبل على نصر بن خزيمة ـ وهو من خاصّته ـ فقال: «يا نصر أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية»؟ قال: «جعلني الله فِداك»، أما أنا فوالله لأضربنّ معك بسيفي هذا حتى أموت، وإن الناس في المسجد الأعظم فامضي بنا نحوهم»[(٧)]. فخرجوا حتى انتهوا إلى باب المسجد، فجعل أصحاب زيد يُدخِلون راياتهم من فوق الأبواب ويقولون: «يا أهل

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ١٣١.
(٢) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٣٤.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٢٣٣؛ مقاتل الطالبيين، ص ١٣٢.
(٤) العيون والحدائق، ص ٩٥.
(٥) مقاتل الطالبيين، ص ١٣٢.
(٦) العيون والحدائق، ص ٩٨.
(٧) مقاتل الطالبيين، ص ١٣٥.

المسجد أُخرجوا من الذلّ إلى العزّ، أُخرجوا إلى الدين والدنيا»، فرماهم أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد(١).

ثم دارت وقعات عنيفة فَقَدَ زيد خلالها خِيرة رجاله، فلما كان العشاء، اقتتلوا قتالاً شديداً، فهُزِمت خيّالة أهل الشام، عندئذ بعث يوسف الثقفي الناشبة، فجعلوا يرمون أصحاب زيد الذين ثبتوا حتى جنّ الليل، فرُمِي زيد بسهم فأصاب جبهته فثبت في دماغه، فأحضر أصحابه طبيباً، فانتزع النصل، فجعل زيد يضجّ ولم يلبث أن فارق الحياة(٢). فدفنه أصحابه في ساقيةٍ خشية أن يمثلوا به، ولكنهم استخرجوه من قبره وقطعت رأسه، فأمر يوسف الثقفي أن يُصلَب بدنه بالكناسة عرياناً، وحُمِلت رأسه إلى هشام فجابوا بها الأقطار، وبقي البدن مصلوباً إلى أن وُلِّي الوليد بن يزيد؛ فأمر بإنزاله وإحراقه، ثم ذُرِّي رماده؛ نصفه في الفرات ونصفه في الزرع، وقال: «والله يا أهل الكوفة، لأدعنّكم تأكلونه في طعامكم وتشربونه في مائكم»(٣).

وبعد أن هدأت المدينة الثائرة، أقبل يوسف حتى دخل الكوفة، وجاء المسجد وخطب الناس قائلاً:

«يا أهل الكوفة، المدرة الخبيثة، أبشروا بالصغار والهوان فلا عطاء لكم عندنا ولا رزق». ثم توعدهم وسبّهم(٤)، وقد ترتب على ذلك

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٤٥.
(٢) مقاتل الطالبيين، ص ١٣٧.
(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٢٦. المسعودي، جـ ٣، ص ٢٠٧. ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٤٦.
(٤) العيون والحدائق، ص ١٠٠.

أن تفرّق أتباع زيد وأنصاره، كما هرب ابنه يحيىٰ إلى خراسان(1).

وبعد هشام تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك في سنة ١٢٥/٧٤٣(2). فكان عهده بداية النهاية لدولة بني أُميّة، وذلك لغياب الرجل القادر على إدارة دفّة الحكم.

قال حمّاد: «أنشدت الوليد أشعار العرب فلم يهشّ لها، وأنشدته سخيفاً فطرب واستعادَنيه فقلت: هذا والله الإدبار، ثم دخلت بعد على أبي مسلم الخراساني فأنشدته:

تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
فإن تولّت فبالأشرار تنقاد

فجعل يستعيدني ذلك فقلت: هذا والله الإقبال»(3).

وبالفعل؛ فمنذ عهد الوليد بدأ صرح بني أُميّة يتهاوى، وذلك بسبب تداعي نظام الخلافة، وتهافت أفراد الأسرة الحاكمة على كرسي الحكم(4). بالإضافة إلى الصراعات القبلية، ووصول أشخاص متهتكين إلى سدّة الخلافة أمثال يزيد بن عبد الملك خليع بني أُميّة(5)، وابنه الوليد خليع بني مروان(6).

ولقد نشأ الوليد بقصر أبيه على السرف فمجن، وكان مسرفاً على

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٤٦، مقاتل الطالبيين، ص ١٤٥.
(٢) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٣١.
(٣) العيون والحدائق، ص ١٢٧.
(٤) ماجد، التاريخ السياسي، ص ٣٠٨.
(٥) الفخري، ص ١٣١.
(٦) المسعودي، جـ ٣، ص ٢١٦.

نفسه معلناً بالفسوق والشراب واللذات(1)، وكان الغناء أحبّ إليه من كل لذة، وكان عمّه هشام ينهاه عن ذلك فلا يرتدع، حتى همّ بخلعه من ولاية العهد(2).

وذُكِر، أن هشاماً كان يكرم الوليد ويعظّمه ويقرّبه إليه، فلما اتخذ الندماء وتهتك في جميع أفعاله ولّاه الحج في سنة ١١٦/٧٣٤ ليقطعه عن ذلك(3). فحمل الوليد معه كلاباً في صناديق وعمل قبّة على قدر الكعبة، وحمل معه خمراً، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوّفه أصحابه مغبّة ذلك وقالوا: «لا نأمن أن يثور الناس عليك وعلينا»(4).

ولما وُلّي الخلافة لم يزد مَن الذي فيه من اللهو واللذّة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفسّاق إلا تمادياً، وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف بالمحرّمات، فثقل ذلك على رعيّته وجنوده وكرهوا أمره حتى صاروا يسمّونه الوليد «الخليع الفاسق»(5).

وذكر المدائني أن الوليد كان مشغولاً عن أمور الناس يصطبح الأربعين يوماً وأقل وأكثر ولا يراه إلا ندماؤه وخواص خدمه. ويؤكد ذلك ما روته إحدى جواريه فقالت: «كنّا آثر جواريه عنده فوطىء هذه، وأشارت إلى رفيقتها، وجاء المؤذّن يؤذنه بالصلاة فأخرجها وهي جُنُب ملتثمة فصلّت بالناس!»(6).

---

(1) العيون والحدائق، ص ١١٢.
(2) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٦٤، ٢٩٠.
(3) العيون والحدائق، ص ١١٢.
(4) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٦٤.
(5) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٢٨٠.
(6) العيون والحدائق، ص ١٢٨ - ١٢٩.

مهما يكن من أمر؛ فإن سوء سياسة الوليد، وإهماله لشؤون الخلافة، وقلّة عنايته بأطرافه، أدّت إلى اضطراب البلدان كلها، أضف إلى ذلك، قتله لكلٍّ من خالد بن عبد الله القسري[1]، ويحيىٰ بن زيد العلوي[2]، وتعذيبه ابنيْ عمّه هشام حتى ماتا[3]، واستذمامه إلى الناس وإلى أهل بيته. كل ذلك عجّل بالقضاء عليه. وكان أشدّهم فيه يزيد بن الوليد، وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يُظهِر النسك ويتواضع، فأخذ البيعة لنفسه، واستولى على دمشق، وأرسل جيشاً إلى الوليد وهو مقيم بالبادية، فقاتلهم حتى هزم، فابتدره الناس بأسيافهم وذبحوه سنة ١٢٦/٧٤٤ وأتو برأسه على رمح إلى دمشق، وكانت دولته سنة وشهرين[4].

ولما قتل الوليد بايع الأمراء يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي يُقال له «الناقص»[5]. فكان أول عمل قام به، أنه خطب الناس خطبة أظهر فيها حقيقة أمر الوليد، فقال:

«أيّها الناس؛ إنّي والله ما خرجت بطراً ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في المُلْك... ولكن خرجت غضباً لله ولدينه... لما ظهر الجبّار العنيد المستحلّ لكل حرمة، والراكب لكل بدعة مع أنه والله ما كان يصدق بيوم الحساب ولا يؤمن بالكتاب... فلما رأيت ذلك استخرت

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٧٦.
(٢) مقاتل الطالبيين، ص ١٤٥.
(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٣٣.
(٤) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١. الذهبي، دول الإسلام، ص ٧٥.
(٥) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٣٥.

الله في أمره... ودعوت إلى مجاهدته...»[1].

بعد ذلك؛ أعطاهم العهود والمواثيق ورسم لهم سياسته في الحكم فقال:

«أيّها الناس؛ إن لكم عليّ لّا أضع حجراً على حجر، ولا لَبِنَة على لَبِنَة، ولا أكتري نهراً، ولا أبني قصراً... ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسدّ ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم... ولا أغلق بابي دونكم، ولكم أُعطياتكم في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر، حتى يكون أقصاكم كأدناكم، فإن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحُسْن المؤازرة، وإن لم أفِ فلكم أن تخلعوني...»[2].

وعلى الرغم من هذه المثالية في خطة عمله؛ فإنه لم يُمَتّع في حياته السياسية، ولم يحكم سوى ستّة أشهر تخلّلتها الفتن والاضطرابات بعد أن كثر الذين خرجوا على حكمه. فخرج عليه العباس بن الوليد بحمص، وبشر بن الوليد بقنسرين، وعمر بن الوليد بالأردن، ويزيد بن سليمان بفلسطين[3]، ولم يصف له إلا دمشق[4].

أما في العراق؛ فقد استعمل يزيد عليها منصور بن جمهور، ولم يكن من أهل الدين لهذا قال له يزيد قبل توجهه إلى العراق: «اتقِ الله واعلم أنّي إنما قتلت الوليد لفسقه ولِما أظهر من الجور، فلا تركب مثل ما قتلناه عليه»[5].

---

(١) العيون والحدائق، ص ١٥٠. ابن العماد، شذرات الذهب، جـ ١، ص ١٧٢.
(٢) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٩٢. الفخري، ص ١٣٦.
(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٣٥.
(٤) العيون والحدائق، ص ١٥٣.
(٥) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٩٥.

ولما دخل منصور الكوفة خطب أهلها وذمّ الوليد وعامله يوسف بن عمر الذي فرّ من الكوفة قاصداً الشام، فلما بلغ البلقاء؛ أُلقي القبض عليه، وحمل إلى يزيد فحبسه بدمشق[١]، والظاهر؛ أن أهل العراق لم تعجبهم سياسة منصور، لهذا قالوا في حقه: «منصور بن جمهور، أمر غير مأمور، أتى بالعهد منشور، فيه الكذب والزور». وكان الخدم والصبيان يقولون هذا في الطرق[٢].

ثم عاد يزيد وعزل منصور عن العراق، وعيّن عوضاً عنه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وقال له: «سِرْ إلى العراق فإن أهلها يميلون إلى أبيك» فَقَدِمَ البلاد وفرّق العمّال، وأعطى الناس أرزاقهم وأُعطياتهم[٣]، وبذلك استتبّ الحكم في العراق ليزيد الناقص إلى أن وافته المنية في سنة ١٢٦/٧٤٤، وكان قد بايع بولاية العهد لأخيه إبراهيم الذي اتّهمته بعض المصادر بأنه هو الذي سقاه السُمّ[٤]ثم قام بالخلافة بعد يزيد أخوه إبراهيم الخليع[٥]، ولكن بيعته لم تتم، فكان يسلّم عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلّم عليه بواحدة منهما[٦]. واضطرب أمره فمكث أربعة أشهر، وسار إليه مروان بن محمد، فدارت بينهما حروب ووقائع، انتهت بدخول مروان إلى دمشق

---

(١) العيون والحدائق، ص ١٥١. ابن الأثير، جـ ٥، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧. ابن العماد، جـ ١، ص ١٧٢.
(٢) العيون والحدائق، ص ١٥٢.
(٣) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٣٠٢.
(٤) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٣٦.
(٥) محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، تحقيق. م. الحافظ، ص ٣٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨٦.
(٦) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٣١١. الفخري، ص ١٣٧.

بعد أن بايعه أهلها، عندئذ خلع إبراهيم نفسه، وبايع لمروان في سنة ٧٤٤/١٢٧. ولم يزل مع مروان حتى غرق بالزاب، في وقعة عبدالله بن علي العباسي(١).

إن تلك الاضطرابات والفتن؛ التي هزّت الدولة العربية إبّان خلافة إبراهيم، وما رافقها من أحداث أثناء خروج مروان بن محمد مُطالباً بالخلافة، وبدم الوليد بن يزيد، الخليفة المظلوم، حسب زعمه، سرعان ما أخمدت بعد سيطرة مروان على زمام الأمر، ولكن ذلك الصراع على منصب الخلافة خلق توتراً دائماً بين القيسية واليمانية، الأمر الذي جعل البلاد تعيش في حالة استنزاف دائم أدّى في النهاية إلى سقوط دولة بني أمية.

والملاحظ؛ إن مروان أولى العراق اهتماماته، فأحدث فيها تغيرات جذرية، فعزل ابن عمر بن عبد العزيز، عامل يزيد الناقص وإبراهيم، وولّى مكانه النضر بن سعيد الحرشي، أحد قوّاد ابن عمر، فامتنع هذا الأخير عن تسليم العمل إلى الحرشي الأمر الذي تسبّب بوقوع الحرب بينهما(٢).

في هذه الأثناء، ظهر خطر الخوارج من جديد، وقد تزعمهم هذه المرة الضحّاك بن قيس الشيباني، فزحف على العراق سنة ٧٤٥/١٢٧ مغتنماً في ذلك الفوضى القائمة في البلاد، فلما شعر ابن عمر والحرشي بالخطر المحدق بهما؛ اتفقا على الضحّاك واجتمعا بالكوفة، فكان كلٌ منهما يصلّي بأصحابه، وأقبل الضحّاك فنزل بالنخيلة، فدارت الحرب

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٣٣٧.
(٢) ابن الأثير، جـ٥، ص ٣٣٥.

بينهم واقتتلوا قتالاً شديداً، فهرب الحرشي إلى واسط ولحق به ابن عمر، وسقطت الكوفة بيد الخوارج[1].

ثم عادت الحرب بين ابن عمر والحرشي إلى ما كانت عليه سابقاً، فزحف عليهما الضحّاك من الكوفة إلى واسط بعد أن استخلف على المدينة ابن ملجان الشيباني، فلما نشبت الحرب؛ انسحب الحرشي إلى الشام، فاعترضه ابن ملجان عند القادسية فقتله الحرشي وتابع طريقه، فاستعمل الضحّاك على الكوفة المثنى بن عمران العائذي، وعقد اتفاقاً مع ابن عمر، وهكذا تمكّن الضحّاك من السيطرة على العراق ومد نفوذه إلى الموصل[2].

ولما رأى مروان تردّي الأوضاع في العراق، كتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يأمره بالمسير إلى الكوفة لحرب الخوارج وعليهم المثنى بن عمران، فالتقوا بعين التمر، فهزمهم ابن هبيرة، ثم اجتمع الخوارج بالكوفة بالنخيلة فهزمهم أيضاً، كما هزمهم في البصرة واستباح عسكرهم، ثم زحف على واسط وأخذ منها ابن عمر وحبسه، وبذلك تمّت سيطرة ابن هبيرة على بلاد العراق بعد أن تولى شؤونها رسمياً من قِبَل مروان في سنة ١٢٨/٧٤٦، فأعاد إليها الهدوء وردّها إلى الحظيرة الأموية[3].

خلال هذه الأحداث؛ كان مروان يحارب الخوارج بأرض الجزيرة، فلما تمكن من صدّهم عن الموصل انصرف إلى حرّان فأقام

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤؛ ٣٣٦ ـ ٣٣٧، ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٣٥١، ٣٥٤.

بها حتى سار إلى الزاب لمواجهة العباسيين[1].

والواضح؛ أن مروان لم يُمَتّع بالخلافة لكثرة الذين خرجوا على حكمه، وكان الحدث الأهم وقوفه وجهاً لوجه إزاء خطر بني هاشم الذين أعلنوا الثورة في خراسان بقيادة القائد الشاب أبي مسلم الخراساني في سنة ١٢٩/٧٤٨[2]، وبأمر من إبراهيم الإمام، الزعيم الروحي للثورة العباسية، والذي قضى صبراً على يد مروان بن محمد[3].

وقد اعتقد مروان أنه بقتله لإبراهيم الإمام؛ يئد الفتنة قبل استفحال خطرها، ولم يكن في حسبانه أن الإمام قد جعل ولاية العهد من بعده لأخيه عبد الله بن محمد المعروف بأبي العباس، الذي سار بأهل بيته، بعد القبض على إبراهيم، وقصد الكوفة، حيث استقبلهم أبو سلمة الخلّال، فأنزلهم داراً وتولى خدمتهم بنفسه وكتم أمرهم نحواً من أربعين يوماً[4].

في هذه الأثناء كانت الجيوش العباسية، المعروفة «بالمسوّدة»[5]

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦. أما الضحّاك بن قيس زعيم الخوارج فقد قتله مروان بن محمد في نصيبين سنة ١٢٨/٧٤٦. الذهبي، دول الإسلام، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) الطبري، جـ ٦، ص ١٨ وما يلي. ابن الأثير، جـ ٥، ص ٣٥٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٤٢. ابن الأثير، جـ ٥، ص؛ ٣٦٦، ٤٠٩، ٤٢٢ ـ ٤٢٣. الفخري، ص ١٤٥.

(٤) الطبري، جـ ٦، ص ٨٠. ابن الأثير، جـ ٥، ص ٤٠٩.

(٥) لما اتخذ أبو مسلم السواد شعاراً، عُرِف جيشه بالمسوّدة، نسبة إلى شعار العباسيين الأسود حزناً على الشهداء من يني هاشم. الفخري، ص ١٤٥، ماجد، العصر العباسي الأول، جـ ١، ص ٣٤، مصر: مكتبة الأنجلو ـ المصرية، ط ٢، ١٩٧٩.

قد غطّت معظم بلاد خراسان؛ ثم تقدمت طلائعها بقيادة قحطبة بن شبيب؛ في محاولة منه للقضاء على نصر بن سيّار، والي خراسان من قبل مروان، ولكن لم يدركه الطلب لفراره من بلد إلى أخرى، حتى توفي بجوار الريّ (طهران) سنة ١٣١/٧٤٦[١].

بعد ذلك؛ زحف جيش قحطبة نحو العراق، فخرج إليه يزيد بن عمر بن هبيرة، فتحاشى قحطبة الصدام معه، وسار رأساً إلى الكوفة فعسكر قريباً منها، فزحف نحوه ابن هبيرة؛ حتى التحم الجيشان في معركة شديدة، انتصر فيها قحطبة بن شبيب الذي قضى غرقاً وذلك في سنة ١٣٢/٧٤٩، وكانت وصيته لجنوده: «إن حدث بي حدث فالحسن ابني أمير الناس» لهذا تسلّم الحسن قيادة الجيش العباسي، وانهزم ابن هبيرة إلى واسط تاركاً عسكره وما فيه من الأموال والسلاح[٢].

أما عن أحداث الكوفة التي أقام فيها وليّ العهد؛ فجرت فيها الأمور دون أيّ صدام مسلح، فبعد أن وصلت أنباء الفتوح إلى محمد بن خالد القسري وهو بالكوفة، خرج في ليلة عاشوراء مسوّداً، وسار إلى قصر الإمارة، فارتحل عنه زياد بن صالح الحارثي، عامل ابن هبيرة على الكوفة، ومَن معه من أهل الشام، ودخل محمد القسري القصر وكتب إلى قحطبة، وهو لا يعلم بهلاكه، يعلمه أنه قد ظفر بالكوفة، فدخلها الحسن بن قحطبة هو وأصحابه، وأتوا أبا سلمة الخلّال، فاستخرجوه فعكسر بالنخيلة، وتوجه الحسن إلى واسط لحرب ابن هبيرة، وبايع أهل

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٣٨١، ٣٨٧، ٣٩٥.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

الكوفة أبا سلمة، فاستعمل محمد القسري على المدينة حتى ظهر أبو العباس[1].

ولما علم القوّاد بمكان وجود بني العباس في الكوفة، فدخلوا عليهم وسلّموا على أبي العباس بالخلافة، وعزوه في إبراهيم الإمام[2]، وفي اليوم التالي؛ دخل بنو العباس قصر الإمارة، ثم خرجوا إلى المسجد، فخطب أبو العباس خطبته الشهيرة التي بيّن فيها حق أسرته في الخلافة، وكيف أن بني أمية وبني حرب تواثبوا عليها واستأثروا بها[3]، ثم قال:

«يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا ومنزل مودّتنا... فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدّوا فأنا السفاح المُبيح والثائر المبير»[4].

ثم خرج أبو العباس السفّاح من الكوفة بعد أن استخلف عليها عمّه داود بن علي وعسكر بحمام أعين، قرب الكوفة، فوفدت عليه الناس من الأمصار يبايعونه فلما قويت شوكته؛ ندب عمّه عبد الله بن علي لقتال مروان بن محمد، فالتقى الجيشان على نهر الزاب الأعلى قرب الموصل، فهزم مروان وغرق معظم جيشه في سنة ١٣٢ / ٧٥٠[5].

بعد ذلك؛ انهمك أبو العباس في إخماد الثورات والفتن الداخلية التي قامت ضدّ دولته، أكان ذلك في دمشق وقنسرين أم في

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٤٠٥.
(٢) الطبري، جـ ٦، ص ٨١.
(٣) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٤١١ ـ ٤١٢. الفخري، ص ١٤٦.
(٤) الطبري، جـ ٦، ص ٨٣.
(٥) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٤١٧ ـ ٤٢١.

الموصل[1]. أما في العراق؛ فكلّف الخليفة أخاه أبا جعفر في القضاء على ابن هبيرة الذي اعتصم بواسط، فتمكّن أبو جعفر بفضل دهائه وحنكته من إجباره على التسليم بعد إعطائه الأمان، غير أن أبا جعفر لم يلبث أن غدر به وقتله سنة ١٣٢/٧٥٠ باعتباره آخر معقل لبني أُمية[2].

والظاهر أن السفّاح لم يكن مطمئناً لإقامته في الكوفة؛ بدليل أنه تركها بعد مدة قليلة، وانتقل إلى مكان قريب منها عُرِفَ بها شـمية الكوفة، واتخذها مقرّاً له ولحاشيته سنة ١٣٢/٧٥٠[3]، ثم انتقل في سنة ١٣٤/٧٥٢ إلى مدينة الأنبار شمالي الكوفة على نهر الفرات؛ حيث بنى بجوارها مدينته المعروفة بها شـمية الأنبار، فأقام بها حتى وفاته في سنة ١٣٦/٧٥٤[4].

بعد السفّاح، قام أبو جعفر عبد الله بن محمد بأعباء الدولة، فانهمك أول الأمر بتثبيت دعائم الحكم العباسي، فتخلص من عمّه

---

(١) ابن الأثير، جـ٥، ص٤٣٢ ـ ٤٣٥، ٤٤٣.

(٢) اليعقوبي، جـ٢، ص٣٥٤. ابن الأثير، جـ٥، ص٤٣٧ ـ ٤٤٢.
لقد أدلى ابن هبيرة بشهادة صادقة عن هَوْل تلك الحرب التي دارت بينه وبين أبي جعفر والتي ظهرت من خلالها قوة شخصية الرجل الداهية فقال:
«ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشدّ تيقظاً من المنصور، لقد حاصرني تسعة شهور ومعي فرسان العرب فجهدنا كل الجهد حتى ننال من عسكره شيئاً فما قدرنا لشدّة ضبطه لعسكره وكثرة تيقظه، ولقد حصرني وما في رأسي شعرة بيضاء ثم انقضى ذلك، وما في رأسي شعرة سوداء»، الفخري، ص١٦٠.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨٥.

(٤) ابن الأثير، جـ٥، ص٤٥٤، ٤٥٩. ابن العماد، جـ١، ص١٨٥.

عبد الله بن علي الذي طلب الخلافة لنفسه[1]، كذلك أطاح بأبي مسلم الخراساني «أمين آل محمد» في سنة ١٣٧/٧٥٥[2]. وما كادت تهدأ له الأمور حتى قامت ضدّه ثورة علوية حسنية بقيادة محمد النفس الزكية الذي خرج غضباً لله، فاستولى على المدينة ومكة واليمن، فتخوّف أبو جعفر على حكمه وفكر في أن يشخص إليه بنفسه، إلّا أنه لم يكن يستطيع أن يترك العراق، فأرسل نحوه وليّ عهده عيسى بن موسى ومعه حميد بن قحطبة الذي تمكّن من قتل محمد وحمل رأسه على رمح إلى أبي جعفر فخرّ ساجداً، وذلك في سنة ١٤٥/٧٦٣[3].

ولقد كان لثورة النفس الزكية صدًى في العراق، فخرج إبراهيم أخو محمد في البصرة واستولى عليها وقويت شوكته بعد أخذه واسط والأهواز وفارس وكرمان[4]. أما الكوفة، فكانت تغلي كالمِرجَل، ولكنها بقيت مغلوبة على أمرها بسبب محاصرتها من قِبَل الخليفة الذي حال دون خروج أهلها إلى البصرة للمشاركة في الثورة[5].

وبعد أن اكتملت جموع إبراهيم، خرج إلى باخمرا في ضواحي الكوفة، وهدّد أبا جعفر في عقر دياره؛ حتى جعله لا يقرّ ولا ينام وحارَ في نفسه وحوله بالكوفة مائة ألف سيف كامنة مضمرة للفتك به[6].

---

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ١٦٥.
(٢) الطبري، جـ ٦، ص ١٣٠ وما يلي. الفخري، ص ١٦٨.
(٣) الطبري، جـ ٦، ص ١٨٤ وما يلي. الفخري، ص ١٦٥. مقاتل الطالبيين، ص ٢٢٩ وما يلي.
(٤) الطبري، جـ ٦، ص ٢٥٦. الذهبي، دول الإسلام، ص٨٨.
(٥) الطبري، جـ ٦، ص ٢٤٧.
(٦) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٢٥٧. ابن الأثير، جـ ٥، ص ٥٦٦. الذهبي، ص ٨٨.

إزاء هذه التطورات؛ أرسل أبو جعفر نحوه عيسى بن موسى وحميد بن قحطبة[1]، ومع أن جيش إبراهيم سجل انتصارات باهرة على عيسى بن موسى؛ إلاّ أن شجاعة حميد بن قحطبة حوّلت الهزيمة إلى نصر، فحمل بنفسه على إبراهيم، وأصابه في نحره، ثم شدّ عليه وحزّ رأسه فأرسلت إلى أبي جعفر في ترس؛ لتجوب الكوفة. أما جسده فدفن في باخمرا في سنة ١٤٥/٧٦٣؛ فعُرِفَ بقتيل باخمرا[2].

وهكذا قضى أبو جعفر على ثورات علوية خطيرة هدّدت حياته وكادت تودي بالخلافة العباسية، ونظراً لأهمية تلك الانتصارات اتخذ لقب المنصور بالله. ثم خطب أهل الكوفة قائلاً لهم:

يا أهل الكوفة، يا أهل المدرة الخبيثة... لعنك الله من بلد، ولعن أهلك»[3].

والواضح؛ أن المنصور كان خلال ثورة إبراهيم منهمكاً ببناء عاصمته «بغداد» أو «مدينة السلام» وكان دافعه الأهم للقيام بذلك، هو خوفه من أهل الكوفة، فإنه كان لا يأمن أهلها على نفسه بعد أن أفسدوا جنده، بحسب زعمه[4].

وبعد انتقال المنصور إلى عاصمته الجديدة؛ بدأ في إرساء دعائم دولته، وتنظيم إدارتها بشكل متقن؛ حتى استحق بجدارة لقب «فحل

---

(١) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٥٦٧.
(٢) الطبري، جـ ٦، ص ٢٦٠ - ٢٦٢، مقاتل الطالبيين، ص ٢٩٤.
الذهبي، ص ٩٨.
(٣) العيون والحدائق، ص ٢٥٤.
(٤) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٥٥٧ - ٥٥٨.

بني العباس»[1] واعتبر بحق المؤسّس الحقيقي لدولة بني العباس[2].

وكانت ضربة المنصور الأخيرة؛ والتي حقّق من خلالها جميع أمانيه وطموحاته، هي نقله ولاية العهد من ابن أخيه عيسى بن موسى عامله على الكوفة[3] إلى ابنه محمد المهدي[4] الذي تسلم الحكم في سنة ١٥٨/٧٧٥، واعتبر عهده متمّماً لعهد أبيه في إرساء نظم الدولة العباسية مما زاد في تمكينها، فقد استكمل بناء الرصافة أو بغداد الشريفة، حتى أصبحت العاصمة في عهده[5].

وقد تميّز عهد المهدي بمجاهدة الزنادقة[6]، والتفاني في حرب الثغور[7]، ولكن ذلك لا ينفي عنه تهمة الارتماء في أحضان العجم[8]، وسماحه للنساء في التدخّل بالأمور السياسية بخاصة زوجته الخيزران[9]؛ مما جعل القصر عرضة للمؤامرات إلى جانب شيوع الأُبّهة والترف[10].

وفي السنوات الأخيرة من عهد المهدي، كانت نهاية الإمام القدوة

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٥٩.
(٢) ماجد، العصر العباسي الأول، ص ١٠٨.
(٣) العيون والحدائق، ص ٢٥٩.
(٤) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٥٧٧ - ٥٧٨. الفخري، ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٥) الطبري، جـ ٦، ص ٣٦٨ - ٣٧٢.
(٦) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٤٠٠. الطبري، جـ ٦، ص ٣٦٧، ٣٨٥، ٣٩١.
(٧) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٩٦. الطبري، جـ ٦، ص ٣٧٩ - ٣٨٠.
(٨) الفخري، ص ١٨٢ - ١٨٥.
(٩) العيون والحدائق، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.
(١٠) اليعقوبي، جـ ٢، ص ٤٠١. الطبري، جـ ٦، ص ٣٩٢، ٤٠٢، ٤٠٤.

سفيان بن سعيد الثوري، الأمر الذي يجعلنا نتوقف عند هذا القدر من ذكر الأحداث السياسية التي عاصرها الإمام ، لننتقل بعد ذلك إلى عرض موقف الثوري والفقهاء المعاصرين من أبرز الأحداث الجارية.

ثانياً ـ موقف سفيان الثوري والفقهاء من أبرز الأحداث المعاصرة:

بعد أن عرضنا لأهم الأحداث السياسية والعسكرية التي عاشتها بلاد العراق في العهدين الأموي والعباسي وحتى وفاة سفيان الثوري، يتبادر إلى الذهن سؤال يطرح نفسه بإلحاح ألا وهو: «ما الدور السياسي الذي قام به الثوري والفقهاء المعاصرين خلال تلك الأحداث؟ وهل كان لهم تأثيرهم الواضح في تغيير مُجريات الأمور، وإلى أيّ حدٍّ وُفِّقوا في ذلك؟».

عندما حاولت الإجابة على هذه التساؤلات تعثّرت أول الأمر؛ وذلك لقلة المعلومات المتوفرة لديّ، فقد كنت آمل من خلالها أن أُغطّي معظم أحداث الحقبة التاريخية التي نحن بصددها، ولما وجدت أن الإجابة سوف لا تكون متكاملة؛ تناولت بالبحث النواحي التي أولتها المصادر عنايتها، وحفظت عنها نتفاً متناثرة هنا وهناك تساعد، بشكل أو بآخر، في إعطاء لمحة موجزة عن دور تلك الفئة الصالحة في تأييد بعض الثائرين، في دولتي بني أُميّة وبني العباس.

ففي العهد الأموي، وخلال الأحداث الدائرة في العراق بين يزيد بن المهلّب والخليفة عمر بن عبد العزيز ومن بعده الخليفة يزيد بن عبد الملك برزت شخصية الحسن البصري الفقيه الكبير الذي عمل كوسيط بين الفرقاء المتنازعين وحاول وأد الفتنة ولملمة الشمل ولكن

مساعيه باءت بالفشل(١).

غير أن هذا الفقيه لم ييأس بل تابع عمله مستغلاً تأثيره في الناس، فعندما أتى ابن المهلّب واسطاً، واقترب من الكوفة، وأخذ يستنفر الناس تصدّى له الحسن البصري، وراح يثبط الناس عنه ويحذّرهم الفتنة(٢)، وجعل يقول بحق ابن المهلّب: ألا وإن الأفضل «أن يضع في رجله قيداً ويردّ إلى حبس عمر»، فقال له الناس: كأنك راضٍ عن أهل الشام، فقال: «قبّح الله أهل الشام وبرّحهم أليسوا الذين أحلّوا حرم رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، وأباحوه أنباطهم وأقباطهم لا يتناهون عن سيئة ولا انتهاك حرمة؛ ثم نصبوا المجانيق يرمون بيت الله»(٣).

ويعزي ابن الأثير هزيمة يزيد بن هبيرة أمام جيوش مسلمة بن عبد الملك إلى الدور الذي قام به الحسن البصري؛ حيث كان يحول دون الخيار أهل البصرة إلى آل المهلّب(٤)، وفي عهد هشام بن عبد الملك تابع الحسن نشاطه ضدّ الحكّام الظَلَمة، فكانت له مواقف شجاعة عندما وُلّي العراق خالد القسري، فكان يجلس في المسجد ويكشف للناس عيوب الخليفة فبعثوا إليه «أن اعتزل مسجدنا فإنك تعيب أمير المؤمنين»(٥).

ومن الواضح: أن بعض الثائرين على الحكم الجائر كانوا يسعون

(١) العيون والحدائق، ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٩.
(٤) ابن الأثير، جـ ٥، ص ٨٠.
(٥) العيون والحدائق، ص ٨٧.

للحصول على تأييد العلماء والفقهاء الزاهدين، وذلك لإعطاء ثورتهم صفة الشرعية، أو لكسب تأييد جمهور الناس الذين كانوا يقتدون بعلمائهم العاملين، والمجاهدين من أجل إحقاق الحق.

فعندما أعلن زيد بن علي ثورته سنة ١٢٢/٧٤٠ ضدّ الحكم الأموي المتمثّل بالخليفة هشام بن عبد الملك، وعامله على العراق يوسف بن عمر الثقفي؛ بعث بالفقيه عثمان بن عمير إلى الأعمش[١]، فقال له: أرسلني إليك زيد بن علي أدعوك إلى نصرته والجهاد معه، وهو مَن عرفت. قال: أجل؛ ما أعرفني بفضله. أقرئه منّي السلام، وقل له: يقول لك الأعمش لست أثق لك ـ جعلت فداك ـ بالناس، ولو أنّا وجدنا لك ثلثمائة رجل أثق بهم لغيّرنا لك جوانبها»[٢].

إلى جانب ذلك؛ نجد لفيفاً من العلماء يؤيّدون ثورة زيد ويقدمون له كل عون مادياً كان أم معنوياً؛ فنجد الإمام أبا حنيفة صاحب المذهب المعروف؛ يبعث إلى زيد بالخيل والسلاح ويراسله قائلاً: «إن لك عندي معونة على جهاد عدوّك فاستعن بها أنت وأصحابك في الكُرَاع[٣] والسلاح»[٤].

---

(١) هو سليمان بن مهران الأعمش الأسدي الكاهلي مولاهم أبو محمد الكوفي، أحد الأعلام، رأى أنساً وروى عن مجاهد وخلق، وعنه أبو حنيفة وشُعبة والسفيانان، كان ثقة ثَبْتاً في الحديث، وكان محدّث أهل الكوفة في زمانه، مات سنة ١٤٨/٧٦٥، وهو ابن ثمانٍ وثمانين سنة.
جلال الدين السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ٩٥، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/١٩٨٣.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص ١٤٢.

(٣) الكُرَاع: الخيل.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

كذلك استجاب لثورة زيد وبايعه في هذا شأن كلٌّ من الفقهاء: سليمة بن كهيل، ويزيد بن أبي زياد، وهارون بن سعد، وهاشم بن البريد، وأبو هاشم الرماني، والحجّاج بن دينار، وقاضي المدائن هلال بن الحباب، ومحمد بن أبي ليلى الذي حصر في المسجد الأعظم ولم يقدر على المشاركة في الثورة، أما منصور بن المعتمر فكان يدعو في البلدان إلى الخروج مع زيد ولكنه لم يشارك في ثورته لأنه كان يومها غائباً عن الكوفة، «فصام سنة يرجو أن يكفّر ذلك عن تأخره»(١).

أما بالنسبة للإمام سفيان الثوري، فإننا لم نعثر له على موقف واضح يبيّن سياسته من تلك الثورة، وإنما كلُّ ما لدينا ما حدّث به أبو عوانه فقال: «فارقني سفيان على أنه زيدي»(٢).

هذا في العصر الأموي؛ أما في العصر العباسي فنجد أن ثورة محمد النفس الزكية قد لاقت تجاوباً واضحاً وتأييداً كبيراً، فذكرت المصادر أنه انضمّ إليه معظم الناس(٣)، من بني هاشم وبني أُمية وأولاد الأنصار وسائر الفقهاء، حتى أن الإمام مالك الفقيه الكبير، لما استُفتي في حركته، أفتى في الخروج معه ونقض بيعة أبي جعفر، وقال: «إنما بايعتم مكرهين، وليس على مُكرَه يمين»(٤)، فكان ذلك من أسباب إسراع الناس إلى محمد، وهذا يُظهِر أن مالكاً لم يكن راضياً عن سياسة

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ١٤٠، ١٤١، ١٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٤١.
(٣) المسعودي، جـ٣، ص ٢٩٥.
(٤) الطبري، جـ٦، ص ١٩٠. مقاتل الطالبيين، ص ٢٤٩، ابن الأثير، جـ٥، ص ٥٣٢.

أبي جعفر، في حين كان يرى أن النفس الزكية يتمتع بصفات عالية تؤهله لأن يتولى الخلافة(١).

ومما يؤكد صحة رأي مالك في النفس الزكية ما ذكر عن موقف واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، فرُوِيَ؛ أنهما تذاكرا الجور، فقال عمرو بن عبيد: «فمَن يقوم بهذا الأمر ممّن يستوجبه وهو له أهل؟» فقال واصل: «يقوم به والله مَن أصبح خير هذه الأمة، محمد بن عبد الله بن الحسن»، وعلى أثر ذلك خرج جماعة من معتزلة أهل البصرة وعلى رأسهم ابن عطاء وابن عبيد فبايعوا النفس الزكيّة وانصرفوا إلى البصرة(٢).

ولما أعلنت الثورة، خرج مع النفس الزكية؛ عبد الله بن هرمز الفقيه الورع، فحمل في مِحفّة(٣)، ورافقه محمد بن عجلان فقيه أهل المدينة وعابِدها، فلما حضر القتال تقلّد كل واحد منهما قوساً ليُرِيا الناس أنهما قد صلحا هذا الأمر، بدليل أن ابن هرمز جعل يقول: «ما فيّ قتال، ولكن أُحبّ أن يتأسّى بي الناس، فيراني الجاهل فيقتدي بي»(٤).

وكان لسفيان الثوري اعتقاد حسن في محمد النفس الزكية، فقد

---

(١) ماجد، العصر العباسي الأول، ص ٨٩.
(٢) مقاتل الطالبيين، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩.
(٣) المِحفّة: كالهودج، سرير يُحمَل عليه المريض أو المسافر. وقيل هو مركب من مراكب النساء، محمد بن منظور، لسان العرب، مادة حفف، جـ ٩، ص ٤٩، بيروت: دار صادر، د.ت.
(٤) الطبري، جـ ٦، ص ٢٢٢، مقاتل الطالبيين، ص ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٤.

أدلى برأيه فيه قبل ثورته التي أعلنت سنة ١٤٥/٧٦٣، فكان يقول: «ليت هذا المهدي قد خرج»[١]. وحدّث محمد بن رجاء قال: «بعث إليّ سفيان الثوري سنة ١٤٠/٧٥٧، فأوصاني بحوائجه، ثم سألني عن محمد بن عبد الله بن الحسن كيف هو؟» فقلت: «في عافيـة»، فقال: «إن يرد الله بهذه الأمة خيراً يجمع أمرها على هذا الرجل»[٢].

كذلك كان لسفيان الثوري موقف واضح من ثورة إبراهيم بن عبد الله، قتيل باخمرا، فحدّث محمد بن بشر قال: كنت عند سفيان الثوري أيام إبراهيم فجعل يقول:

«واعجباً لأقوام يريدون الخروج لمـن يخرج، وقد خرج قوم لم يكونوا يرون الخروج»[٣].

وقد شارك في ثورة إبراهيم مـن أصحـاب سفيان، مؤمـل بن إسماعيل وحنبص الذي قال فيه الشاعر:

يا ليت قومي كلهـم حنابصا[٤]

وذكر أن الثوري تأثر لقتيل باخمرا، فسمع يقول: «ما أظن الصلاة تقبل، إلا أن الصلاة خير من تركها»[٥].

مهما يكن من أمر، فإن الذي ساعد إبراهيم في ثورته، أن جماعة كبيرة من العلماء والفقهاء قد أيّدته في خروجه على الظلم والجور، وكان

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ١٨٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٨.
(٤) المصدر نفسه، المكان نفسه، والحنبصة: الروغان في الحرب.
(٥) مقاتل الطالبيين، ص ٣٢٩.

على رأسهم أبو حنيفة[1] الذي راسله سرّاً، فهو الآخر مثل مالك لم يكن يرى في أبي جعفر غير طاغية، لذا كتب إليه يحثّه على القدوم إلى الكوفة فقال له: «ائتها سرّاً فإن مَن هاهنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه، أو يأخذون برقبته فيأتونك به»[2].

إلى جانب ذلك، كان أبو حنيفة يفتي الناس بالخروج مع إبراهيم وجهر في ذلك جهراً شديداً، فقال له أحد أصحابه: «والله ما أنت بمُنْتهٍ عن هذا حتى نؤتى فتوضع في أعناقنا الحبال»[3]، ولكنه لم يرتدع إزاء هذا التخويف حتى أنه سمع وهو قائم على درجته، ورجلان يستفتيانه في الخروج مع إبراهيم وهو يقول: «اخرجا»، وجاءته امرأة فقالت: «إن ابني يريد هذا الرجل - يعني إبراهيم - وأنا أمنعه»، فقال: «لا تمنعيه»[4].

وجاءه أبو إسحاق الفزاري[5] مُعاتباً فقال له: «ما اتّقيت الله حيث أفتيت أخي بالخروج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن حتى قتل».

فقال: «قتل أخيك حيث قتل يعدل قتله لو قتل يوم بدر، وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة». فقال له: «ما منعك أنت من ذلك؟».

---

(١) الخطيب البغدادي، جـ ١٣، ص ٣٢٩.
(٢) مقاتل الطالبيين، ص ٣١٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣١٠، ٣١٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣١٣، ٣٢٥.
(٥) هو إبراهيم بن محمد بن الحرث الكوفي أبو إسحاق الفزاري، روى عنه الأوزاعي وكان يقول عنه حدّثني الصادق الصدوق، كان إماماً قانتاً مجاهداً مرابطاً آمراً بالمعروف، توفي سنة ١٨٥ / ٨٠١. ابن العماد، شذرات الذهب، جـ ١، ص ٣٠٧.

قال: «ودائع للناس كانت عندي»(١).

ولما سأله سديد الحنفي: أيّهما أحبّ إليك بعد حجّة الإسلام: الخروج إلى هذا أو الحج؟.

فقال: «غزوة بعد حجة الإسلام أفضل من خمسين حجة»(٢).

ورُوِيَ أن شعبة بن الحجّاج(٣) كان يقول في نصرة إبراهيم للناس إذا سألوه: «ما يقعدكم؟ هي بدر الصغرى». كذلك كان صالح المروزي يحرّض الناس على نصرة إبراهيم، وسمع الأعمش يقول للناس: «ما يقعدكم؟ أما أني لو كنت بصيراً لخرجت»(٤).

وبعد قتل إبراهيم قال الأعمش: «أمّا والله لو أصبح أهل الكوفة على مثل ما أرى لسرنا حتى ننزل بعَقْوَتِه ـ يعني أبا جعفر ـ فإذا قال لي: ما جاء بك يا أعمش؟ قلت: جئت لأبيد خضراءك، أو تبيد خضرائي؛ كما فعلت بابن رسول الله ﷺ»(٥).

فهذه هي الصورة التي حفظتها المصادر عن المواقف الشجاعة للعلماء والفقهاء، وهي تُظهِر بوضوح مدى حماسهم ومشاركتهم في أحداث بلادهم، وأما عن موقف الثوري من ظهور الدولة العباسية

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٣١٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.
(٣) هو شعبة بن الحجّاج الواسطي، شيخ البصرة وأمير المؤمنين في الحديث، كان موصوفاً بالعلم والزهد، وكان رأساً في العربية والشعر، توفي سنة ١٦٠/٧٧٧، ابن العماد، جـ ١، ص ٢٤٧.
(٤) مقاتل الطالبيين، ص ٣١٣، ٣١٤.
(٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

فتتوضّح الرؤية من خلال أقواله في ذلك.

ذكر أن سفيان كان في المصلّى يوم أقبل عيسى بن موسى والياً على الكوفة من قِبَل بني العباس فلما أقبلت أعلامه قال:

«إن أعمالاً جلبت علينا هؤلاء عمّال سوء»[1].

كذلك كان له موقف واضح من المسودّة وشِعارها، فقال لأصحابه.

«مَن رأى منكم خرقة سوداء فليدسها ولا يمسّها مسّاً»[2]، وكأنّي به يريد أن يقول: الحذر الحذر من التعامل مع بني العباس أو التلوّث بهم وبشعارهم.

وبقيت هذه سياسته ونهجه تجاه بني العباس، فكان إذا شاهد رجلاً يتزيّا بزيّهم؛ أو يفتخر بشِعارهم نهره بشدّة قائلاً:

«... هذه سُنّة سنّها رجل سوء يُقال له أبو مسلم لا تستنّ بسُنّته»[3].

بعد عرض هذه الأحداث والوقائع يُحسن بنا أن نبحث في شخصية الثوري هذا الرجل الذي كان له رأيه الصريح، وشخصيته القوية، وآثاره الخالدة التي لا تزال تتناقلها الأجيال عبر العصور.

---

(١) أحمد بن حنبل، كتاب الورع، ص١١٣، د.ن، د.ت.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠.
(٣) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، جـ٨، ص٢٥٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٠/١٩٨٠.

الفصل الأول

سفيان الثوري؛ حياته، ونشاطاته العلمية

١ ـ مولد سفيان الثوري ونشأته العلمية.

٢ ـ رحلاته وتنقلاته.

٣ ـ مكانته العلمية.

٤ ـ نظرته للعلم.

٥ ـ قدرته على الاستيعاب والحفظ.

٦ ـ مفاضلة بين الثوري ومعاصريه.

٧ ـ إمامته، وأهميته الفقهية.

١ - مولد سفيان الثوري ونشأته العلمية:

هو سُفيان بن سعيد بن مَسروق[١] أبو عبد الله الثوري[٢] الفقيه الكوفي، شيخ الإسلام، إمام الحفّاظ، سيّد العلماء العاملين في

---

(١) ابن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أُبيّ بن عبد الله بن مُنقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن ثَعلبة بن عامر بن مِلكان بن ثَور بن عبد مناة بن أدٍّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر بن نزار بنَ مَعَدٍّ بن عدنان.
ابن سعد، كتاب الطبقات، جـ ٦، ص ٣٧١.
علي بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٠١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٨٣.

(٢) خليفة بن خياط، كتاب الطبقات، تحقيق أكرم العمري، ص ١٦٨، بغداد: مطبعة العاني ط ١، ١٢٨٧/١٩٦٧.
ويقال لثور: ثور أطحل وهو جبل، ومن ثور الربيع بن خيثم يقال: إنه كان في بني ثور ثلاثون رجلاً ليس منهم رجل دون الربيع بن خُثَيم وهم بالكوفة، ليس بالبصرة منهم أحد. عبد الله بن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢٧٩، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧/١٩٨٧. ابن حزم، المصدر السابق، ص ٢٠١، ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٣، ص ٢٤٢.

زمانه(١)، وهو من تابعي التابعين(٢)، ولد في الكوفة سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م(٣)، ونشأ فيها في أسرة عامرة بالإيمان والتقوى والعلوم، فطلب العلم وهو حَدَث باعتناء والده المحدّث الصادق: سعيد بن مسروق الذي أدرك زمن الصحابة(٤). وهو من ثقات الكوفين(٥) ومن أصحاب إبراهيم التيمي، والشعبي، وخيثمة بن عبد الرحمن، وروى له الجماعة الستّة في دواوينهم(٦)، وحدّث عنه أولاده: «سفيان، وعمر، ومبارك»،

---

(١) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط، جـ ٧، ص ٢٣٠، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤٠٦/١٩٨٦.

(٢) محي الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق وستنفلد، ص ٢٨٦، ط ١٨٤٢ - ١٨٤٧.

(٣) ابن سعد، مصدر سابق، جـ ٦، ص ٣٧١.

جاء في تاريخ ابن معين، «أن شريك بن عبد الله القاضي، وسفيان الثّوري، وإسرائيل، وفضيل بن عياض وغيرهم من فقهاء الكوفة ولدوا بخراسان، كان يضرب على آبائهم البعوث، فيتسرّى بعضهم ويتزوج بعضهم، فلما أقفلوا جاء بهم آباؤهم إلى الكوفة، ومسروق جدّ الثّوري شهد الجمل مع علي (ع). يحيى بن معين، تاريخه، جـ ٢، ص ٢٧٩ - ٢٨٠. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٢.

(٤) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٠.

(٥) أحمد بن عبد الله العجلي، تاريخ الثقات، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ص ١٨٨، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٥/١٩٨٤.

عمر بن أحمد بن شاهين، تاريخ أسماء الثقات، تحقيق قلعجي، ص ١٤٦، بيروت: المكتبة العلمية، ط ١، ١٩٨٦.

(٦) دواوين الجماعة الستّة: صحيح البخاري، صحيح مسلم، سُنن أبي داود، جامع الترمذي، سنن النسائي، وسنن ابن ماجة عنهم راجع صبحي الصالح، علوم الحديث، ص ١١٧ وما يلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٨، ١٩٧٥.

والأعمش (سليمان بن مِهران)، وشُعبة بن الحجّاج، وزائدة بن قُدامة، وأبو الأحوص سلام بن سليم، وأبو عوانة الوضاح بن عبد الله، وعمر بن عُبيد، وآخرون، ومات سنة ١٢٦/٧٤٤[١]. بعد أن غرس في خليفته سفيان حبّه للعلوم الدينية التي أهّلته ـ فيما بعد ـ لأن يصبح إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم[٢] وقد ترقّت به الأحوال حتى استحق عن جدارة لقب: «أمير المؤمنين في الحديث»[٣].

إلى جانب ذلك؛ فقد كان لوالدة سفيان الفضل في حثّه وتشجيعه على أخذه العلم، فقالت له: «يا بني اطلب العلم وأنا أعولك بمِغزلي»[٤]، فإذا «كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة، في مشيك وحالك وحلمك ووقارك، فإن لم ترى ذلك؛ فاعلم أنه يضرّك ولا ينفعك»[٥]. وهذا يُظهِر أن الأوضاع المادية لأسرته لم تكن على ما

(١) وقيل سنة ٧٤٦/١٢٨، أبو عبد الله إسماعيل البخاري، كتاب التاريخ الكبير، جـ٣، ص٥١٣، بيروت: دار الكتب العلمية. ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ٤، ص٨٢. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٣٠. وعن زائدة وأبي عوانة وأبي الأحوص راجع السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص٩٨، ١٠٦، ٢٢٥.

(٢) شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، جـ٢، ص٣٨٦، بيروت: دار الثقافة، د.ت.

(٣) ابن شاهين، مصدر سابق، ص١٥٤، الذهبي، تذكرة الحفّاظ، جـ١، ص٢٠٤، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت. السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص٩٥.

(٤) أحمد بن حنبل، كتاب الورع، ص١١٣. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ٧، ص٢٦٩. صلاح الدين بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٥، ص٢٧٩، باعتناء بيرند راتكه، فيسبادن: فرانز شتايز، ١٣٩٩/١٩٧٩.

(٥) عبد الرؤوف المنّاوي، الكواكب الدريّة في تراجم السادة الصوفية،=

يرام[1] وأن والدته كانت من أنصار العلم المفيد الذي يعود بالخير على حامِليه.

مهما يكن من أمر؛ فقد استجاب سفيان لدوافعه الشخصية التي غرسها فيه المحيط العام الذي عاش فيه، فانكبّ على التحصيل متأثراً بشخصية والده الذي كان من أحسب الناس[2]، وملبّياً نداء والدته وهي من أكابر الصالحات[3] وقد ساعده على تحقيق غايته، ما كان يتمتع به من ذكاء وفِطنة وفِراسة، وقدرة كبيرة على الاستيعاب والحفظ والإتقان.

واستناداً إلى المصادر، فإن الثوري طلب العلم وهو مراهق، وصار إماماً أثيراً منظوراً إليه وهو شاب[4]، والمُلفِت للنظر أنه بدت عليه مخايل النبوغ واستمساك الذاكرة وهو غلام، فقد أورد العجلي حادثة تثبت قدرته على الحفظ، قال: «ألقى أبو إسحاق فريضة فلم يصنعوا فيها شيئاً، قال: لو كان الغلام الثَّوري فصلها الساعة، إذ أقبل سفيان، فقال له: ما تقول في كذا وكذا؟ قال سفيان: أنت حدّثتنا عن علي بكذا

= جـ ١، ص ٨٨، باعتناء محمود ربيع، القاهرة: مطبعة الأنوار، ١٣٥٧/١٩٣٨.

(١) لقد عبّر الثّوري عن وضعه المادي عندما قيل له: «ما لك لم ترتحل إلى الزهري؟ قال: لم تكن عندي دراهم ولكن كفانا معمّر الزهري، وكفانا ابن جريج عطاءً».
عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل، ص ٧٦، الهند، حيدر آباد: الدكن، ط ١، نسخة مصوّرة في بيروت: دار الكتب العلمية. د.ت.

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٠١.

(٣) المناوي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٨٨.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ٢٧٩.

وكذا، والأعمش حدّثنا عن ابن مسعود بكذا وكذا، وفلان حدّثنا فيها بكذا وكذا، فقال أبو إسحاق: كيف ترون من ساعة فصلها ألا تكونون مثله»(١).

كذلك كان حمّاد بن أبي سليمان يتوسّم فيه الخير ويتوقع له مستقبلاً زاهراً، فعندما رأى سفيان وعرف نباهته قال: «إن في هذا الفتى لمصطنعاً»(٢)، ولما رآه أبو إسحق السبيعي مقبلاً قال(٣): ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾(٤).

والملاحظ؛ أن الثّوري قد مهّد لهذا لأمر بارتياده حلقات العلم، وسماعه كبار شيوخ زمانه. وقد أفاضت المصادر في تعداد أسماء شيوخه(٥) فروى عن: الأسود بن قيس، وأيوب السختياني، وجابر الجُعفي، وجعفر الصادق، وحبيب بن أبي ثابت ـ وهو من كبار شيوخه ـ، وحُمَيد الطَّويل، وخالد الحذّاء، وربيعة الرأي، وسالم الأفطس، وسَلَمة بن كُهيل، وسليمان الأعمش، وشُعبة بن الحجَّاج، وعاصم بن أبي النجود، وعاصم الأحول، وعبد الله بن دينار، وعبد الله بن طاووس، وعمرو بن دينار، وعمرو بن مرّة، وابن أبي ذئب، وابن أبي ليلى، ومحمد بن عجلان، ومنصور بن المُعتمر، ويحيىٰ بن

---

(١) العجلي، تاريخ الثقات، ص ١٩٣، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) ابن سعد، الطبقات، جـ ٦، ص ٣٧١.
(٣) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٧.
(٤) سورة مريم، آية: ١٢.
(٥) راجع مُعجَم شيوخ الثّوري في أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٤.

سعيد الأنصاري، وأبي إسحاق السبيعي وغيرهم[1].

ويقال: إنه أخذ عن ستّ مائة شيخ، وعرض القرآن أربع مرات على حمزة بن حبيب الزيّات[2]، وكان متميزاً ومتفوقاً على أقرانه بروايته وحديثه عن الأعمش وأبي إسحاق ومنصور[3]. وعلى إثر ذلك ذاع صيته، وبلغت شُهرته الآفاق فروى عنه خلق لا يُحصَون منهم: الأعمش، وابن عجلان، وجعفر الصادق، وأبو حنيفة، وحمّاد بن سلمة، والأوزاعي، ومِسعَر بن كدام، وشعبة، ومعمر ـ وكلهم ماتوا قبله ـ وأبو إسحاق الفزَاري، وابن عُليّة، وسفيان بن عُيَيْنَة، وشعيب بن حرب، وأبو عاصم، وعبد الله الخريبي، وعبد الله بن المبارك، وعبد الرحمن بن مهدي، وعلي بن الجَعد ـ خاتمة أصحابه الأثبات ـ وأبو نُعَيم، وفُضيل بن عِياض، وقبيصة، ومالك، ومبارك بن سعيد أخوه، ووكيع بن الجرّاح، ويحيىٰ بن آدم، ويحيىٰ بن سعيد القطّان، ويحيىٰ بن يمان، ويوسف بن أسباط، وغيرهم[4]، وقيل إنه أخذ عنه

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٢، ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٢) الصفدي، جـ ١٥، ص ٢٧٩. شمس الدين أبو الخير الجزري، غاية النهاية في طبقات القرّاء، جـ ١، ص ٣٠٨، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٠٢/١٩٨٢. وحمزة الزيّات: هو أبو عمارة الكوفي، أحد القرّاء السبعة، وقد وثّقه العجلي وابن حبّان وابن معين وكان من خيّار عباد الله عبادةً وفضلاً وورعاً، وتوفي سنة ١٥٨/٧٧٥. ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٣، ص ٢٧.

(٣) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٦٤.

(٤) النووي، تهذيب الأسماء، ص ٢٨٦. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦. تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٢ ـ ١١٣.

أكثر من عشرين ألفاً وهذا مُبالَغ فيه، والثابت أنه روى عنه نحوٌ من ألف شيخ[1].

ويلاحظ يحيىٰ بن معين أن هذا الجمع الغفير من الشيوخ الذين أخذوا عن الثوري لم يكن عندهم اختصاص بحديث سفيان والرواية عنه، ولذا انتخب من بينهم جميعاً خمسة رجال، فسُمِعَ يقول: «ليس أحد في سُفيان الثّوري يشبه هؤلاء: عبْد الله بن المبارك، ويحيىٰ بن سعيد، ووكيع بن الجرّاح، وعبد الرحمن بن مهدي، وأبو نُعَيْم»[2]. وفي موضع آخر يضيف إليهم الأشجعي[3]. ثم يتابع يحيىٰ بن مُعين غربلة هؤلاء الرجال فيقول: وكيع أثبت منْ عبد الرحمن بن مهدي في سفيان، ويحيىٰ بن سعيد أثبت من عبد الرحمن في سفيان[4].

٢ ـ رحلاته وتنقلاته:

من المؤكد، أن اجتماع الثّوري بذلك العدد الكبير من الشيوخ الأعلام كان يتطلب منه أن يترك الكوفة، ويقصد بلاد الله الواسعة. لهذا فإن المتتبّع لسيرة حياته يجده كثير التنقّل والترحال، وكان ذلك لأسباب

---

(١) الصفدي، جـ ١٥، ص ٢٧٩.
(٢) تاريخ ابن معين، جـ ١، ص ٣٢٩، وأبو نُعَيم: هو الفضل بن دكين.
(٣) يعقوب بن سفيان الفسوي، كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم العمري، جـ ١، ص ٧١٦، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٤/١٣٩٤.
الأشجعي: هو عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، روى عن الثّوري وشُعبة، وعنه أحمد وابن المبارك، مات سنة ١٨٢/٧٩٨، طبقات الحفّاظ، ص ١٣٥.
(٤) تاريخ ابن معين، جـ ١، ص ٤٠٨، بلغ علم الجرح والتعديل الذروة عند يحيىٰ بن معين، صبحي الصالح، ص ١٠٩.

عديدة منها: طلبه للعلم، ومنها ممارسته للتجارة بغية التكسّب أُسوة برسول الله ﷺ. وفي معظمها فراره من ملاحقة الخلفاء العباسيين له بعد إصرارهم على أن يتولى منصب القضاء في مدينـة الكوفة.

ومهما كانت الدوافع؛ فإن أولى رحلات الثّوري كانت إلى بلاد خراسان وهو ابن ثماني عشرة سنة أي في عام ١١٥/٧٣٣، وكان أول مجلس له ببخارى(١)، كذلك شُوهد بمرو ـ عاصمة خراسان ـ وكانت شُهرته قد سبقته إلى هناك، فذكر أبو نعيم بسنده عن أبي المثنّى قوله(٢): «سمعت الناس بمرو يقولون: قد جاء الثوري، فخرجتُ أنظر إليه، فإذا هو غلام قد بَقَلَ وجهه»(٣).

والثابت؛ أنه كانت له رحلة أخرى إلى خراسان، وكان يومها مُلاحقاً من قِبَل بني العباس، فلما ورد بغداد(٤)، أخفى نفسه إلى أن وافى بخارى فأقام فيها حتى قُضِيت حاجته، فتشفّع إليه أقرباؤه بأن يقيم بين أظهرهم مدة أكثر، فرفض ذلك، وقال لهم: «قد كنت نويت ذلك إلا أنه لا بدّ من الرجوع»(٥).

وروى شاهد عَيان أنه رآه في الريّ يُجالس أحد القضاة ويتشاوران

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٣.
(٢) حليـة الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٠، الـذهبي، أعلام النبـلاء، جـ ٧، ص ٢٣٦.
(٣) بقل وجه الغلام، وأبقل: خرج شعره.
(٤) كان المنصور قد شرع في بناء بغداد في ربيع الأول عام ١٤١/٧٥٨، ثم توقف في أيام ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم في بداية عام ١٤٥/٧٦٢، وانتهى منه عام ١٤٩/٧٦٦.
(٥) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٢ ١٥٣.

في أُمور فقهية، كذلك مرّ بجرجان وكتب الحديث عن بعض علمائها[1]. وتذكر المصادر أن الثوري رحل إلى اليمن هرباً من الخليفة أبي جعفر المنصور[2]، فاستغلّ وجوده هناك وعمل بالتجارة بغية كسب الرزق الحلال[3]، إلى جانب ذلك شغل وقته بالعلم والتعليم، فالتقى معمر بن راشد[4] الذي أحسن استقباله وقال لطلابه: «إنه قَدِمَ عليكم مُحدّث العرب»[5].

غير أن شُهرته الواسعة في بلاد اليمن، واجتماعه بكبار مشايخها؛ لم يَحُولا دون متابعة رسالته، وممارسة مَهامه التي كرّس حياته لخدمتها، ألا وهي رسالة التعليم. وبشهادة أحد أصحابه فإنه لم يتأفّف من الاجتماع بصبية اليمن، عن ذلك حدّث عبد الرزّاق فقال: «رأيت سفيان الثوري بصنعاء اليمن[6] يُملي على صبي ويستملي له»[7].

كذلك رحل الثوري إلى فلسطين، فكانت له حلقات علم في الرملة، وأقام ببيت المقدس ثلاثة أيام، وصلّى عند باب الرحمة، وعند

---

(١) الجرح والتعديل، جـ ١، ص ٨٠ ـ ٨١، ٨٣.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٦.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٨٠.
(٤) أحمد بن حنبل، الورع، ص ١٣.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٧.
(٦) صنعاء: قصبة اليمن وأحسن بلادها، تشتهر بكثرة فاكهتها وتدفّق مياهها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٣، ص ٤٢٦، بيروت: دار صادر، ١٩٥٥.
(٧) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٧٠. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٨. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٦.

مِحراب داود (ع)، ورابطَ بعسقلان أربعين يوماً، وكان خلالها يجتمع بطلاب العلم من المجاهدين فيحدّثهم ويعظهم[1].

وذكر صاحب حلية الأولياء أن الثّوري زار الطائف مصطحباً معه الأمير الزاهد إبراهيم بن أدهم، وإبراهيم بن طهمان، بعد ذلك قصد مدينة الرسول ﷺ، حيث كانت له حلقة مشهورة ضمّت طلاب العلم وكبار الشيوخ وأشراف القوم. وقد شُوهِدَ في مكة وهو يقضي وقته في مجالس العلم والتعبّد، وممارسة الزهد الحقيقي[2]، وفي مواسم الحجّ؛ كثيراً ما شُوهد في الكعبة الشريفة يؤدّي فيها الشعائر الدينية ويمضي الساعات الطِوال في التأمّل والمناجاة[3].

ولما تشدّد الخليفة المهدي في ملاحقته للثّوري؛ لجأ هذا الأخير إلى البصرة ونزل قرب منزل يحيىٰ بن سعيد القطّان[4]، حيث قضى بقية حياته وهو ينشر علمه بين أصحابه الذين لازموا مجلسه حتى فاضت نفسه[5].

وتذكر المصادر[6]، أن الثوري ترك الكوفة سنة ١٥٥/٧٧٢، ولم يرجع إليها بعد هذا التاريخ. وكان له رأيه الصريح في أهل بلده، فقال

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٧، ٣٦٩ ـ ٣٧٠، جـ ٧، ص ٢٥. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٠.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٨ ـ ٣٩٠، جـ ٧، ص ١٤، ٢٥، ٤٨.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٤) ابن سعد، الطبقات، جـ ٦، ص ٣٧٣.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٣.
(٦) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧٢٨. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧١. النووي، تهذيب الأسماء، ص ٢٨٨.

صديقه معدان: زاملتُ سفيان الثّوري من الكوفة إلى مكة فلما جعل الكوفة بظهره قال: «ما خَلَّفْتُ خلف ظهري مَن أثق به، ولا أُقدّم على مَن أثق به في الدين»[1].

وهكذا كانت رحلة الثّوري مع الحياة، فعاش شريداً طريداً، وارتحل من بلد إلى أخرى؛ حتى دُهِش أصحابه من ذلك بعد أن تعبوا معه، وهم يتتبّعون خُطاه؛ حرصاً منهم على أن لا تفوتهم مُجالسه العامرة بالعلم والزهد والورع، ولهذا عاتبه أحدهم قائلاً: «يا أبا عبد الله، إن فيك لعجباً، قال: يا ابن أخي ما الذي بانَ لك منّي حتى عجِبت؟ قال: تنقلك من بلد إلى بلد، إن للناس مأوى، وما لك مأوى تأوي إليه». فأجابه الثّوري بأحاديث شريفة ثم أنشأ يقول:

ما ضرّ مَن كانت الفردوس مسكنه
فإذا تجرّع من بؤس وإفتار
تُراه يمشي كئيباً خائفاً وجِلاً
إلى المساجد يمشي بين أطمار

ثم أقبل على نفسه يناجيها ويعاتبها بقوله:

يا نفس ما لكِ من صبرٍ على النار
قد حان أن تُقبِلي من بعد إدبار[2]

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٧٥. قال محمد بن مسلم: «إذا رأيت عراقياً، فتعوّذ من شرّه، وإذا رأيت سفيان، فسَلْ الله الجنة»، أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٦١.

(٢) حلية الأولياء، جـ٦، ص ٣٧٤.

٣ ـ مكانته العلمية:

الثابت؛ أن الثّوري كان جامِعاً لأنواع المحـاسن، لهذا اتفق العلماء على وصفه بالبراعة في علم الحديث والفقه، والورع والزهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الصفات الحميدة، ونظراً لمقدرته العلمية وعلوّ همّته في ذلك، فقد ذكره أقرانه بأقوال تليق بمكانته. فقال عبد الله بن المبارك، وهو أقرب الناس إليه: «لا أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان الثوري»[1]. ويتابع حديثه مُقرّاً بفضله عليه فيقول: «لولا أن الله تعالى أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس». ثم يضيف معترفاً ببراعته وتفوّقه على غيره من الشيوخ فيقول: «كتبت عن ألف ومائة شيخ ما فيهم أفضل من سفيان»[2]. ثم يتحمس ابن المبارك لشيخه وصديقه سفيان فيراه صاحب حق مطلق فيقول: «تبّاً لمَن خالف سفيان الثّوري في الحديث وإن كان مُحِقّاً»[3]. ومما يدعم مواقف ابن المبارك ما أدلى به المثنى بن الصبّاح عندما ذكر في مجلسه سفيان الثّوري فقال: إنه «عالم الأمة وعابِدها»[4].

ولقد أشار أصحاب الثوري إلى غزارة علمه وكثرة عطائه، فقال وكيع بن الجرّاح: «كان سفيان بحراً»[5]. وأيّده في ذلك ابن المبارك

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٦، أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، ص ٨٥، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠. الصفدي، جـ ١٥، ص ٢٧٩.

(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ١٥٦. النووي، جـ ١، ص ٢٨٧. الذهبي، تذكرة الحفّاظ، جـ ١ ص ٢٠٤.

(٣) تقدمة الجرح والتعديل، جـ ٨، ص ٦٨.

(٤) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٧.

(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٦. تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٠٤.

فحدّث عنه قائلاً: «كنت إذا أعياني الشيء أتيت سفيان أسأله فكأنما اغتمس من بحر»(1). ثم قال عن مجالسه: «كنت أقعد إلى سفيان الثّوري فيحدّث، فأقول: ما بقي من علمه شيء إلّا وقد سمعته، ثم أقعد عنده مجلساً آخر فيحدّث فأقول: ما سمعت من علمه شيئاً»(2). وبشهادة مالك فإن الثّوري رفع اسم العراق عالياً، فقال فيه: «إنما كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب، ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان الثوري»(3). فهو أفضل أهل الكوفة(4) والأكثر من ذلك. ليس له قرين في العراق قاطبة، فقال الفقيه ابن أبي ذئب لجلسائه: «ما رأيت بالعراق أحداً يشبه ثوريّكم»(5).

والثابت أنه كان للثّوري حلقة للتدريس، بشهادة كبار معاصريه(6)، فكان إذا حدّث استقبل القبلة(7)، ثم يبدأ فيحدّث بثلاثمائة حديث في اليوم من حفظه(8)، وكان لا يُملي الحديث(9)، إنما

---

(1) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٧.
(2) المصدر نفسه، جـ ١، ص ١١٥. حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٣.
(3) تاريخ ابن معين، جـ ٢، ص ٣٤٨. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٤.
(4) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٧.
(5) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٨٤. الذهبي، تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٠٤.
(6) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٨١.
(7) تاريخ ابن معين، جـ ١، ص ٣٣٥.
(8) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧٢١.
(9) كان سفيان قد أقام بمكة هارباً شبّه التواري، فأنزله المخزومي داراً كثير الغلّة، أنزله بلا كِراء، فكلّم سفيان أن يحدّثه وأنه لا يقوى على الحفظ والضبط إلا أن يكتب إملاء، فقال له: التمس رجلاً خفيف اليد أملي عليه ثم أقرأه عليك. قال: وكان العدني معلّماً يعلّم بمكة جيد الخط خفيف=

أملى على طلابه حديثين، حديث الدجّال وحديث خطبة ابن مسعود، وقيل إنه أملى على أهل اليمن لأنهم «كانوا عنده ضِعافاً» (١) . وذكر صاحب المعرفة والتاريخ أنه لم يكن للثّوري كتاب، فكان الحفّاظ يحفظون ثم يقومون فيكتبون. وكان يحيىٰ بن يمان يأخذ حفظاً، فإذا حدّث بحديث عقد في الخيط عقدة، فإذا قام من عند سفيان حلّ عقده وكتب حديثاً، وكان أبو نُعَيم يكتب في الألواح، فكان يحمل عنه ما وقع في ألواحه، وكان الأشجعي لا يحمل عنه إلا أن يكتب كتاباً(٢)، وأما بالنسبة لوكيع بن الجرّاح فحدّث عن نفسه قائلاً: «ما كتبت عن الثوري حديثاً قطّ، كنت أحفظه فإذا رجعت إلى المنزل كتبته»(٣).

مهما يكن من أمر؛ فقد كانت مجالس الثّوري من الأهمية بحيث يتعزّى بها عن مباهج الدنيا فقال حفص بن غياث: «كنّا نتعزّى بسفيان ومجالس سفيان عن الدنيا(٤). وذلك لما اشتملت عليه من العبادة وجيّد الأحاديث، والتذكير والموعظة الحسنة؛ إضافة إلى تعرّضه لـلأمور الفقهية، مما يُظهِر براعة الرجل وتنوّع ثقافته وتمكّنه من مادته، لهذا قال فيه ابن المبارك: تعجبني مجالس سفيان الثّوري، كنت إذا شئت رأيته في الورع، وإذا شئت رأيته مصلياً، وإذا شئت رأيته محدّثاً، وإذا شئت

= اليد، فاستعان به المخزومي وذهب به إلى سفيان، فأملى عليه هذه الأحاديث التي يسمّونها الجامع، ثم قرأه سفيان على المخزومي وجماعة حضروا قراءته وسمعوه منهم عثمان بن اليمان. المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧١٨.

(١) المصدر نفسه، المكان نفسه.
(٢) يعقوب الفسوي، جـ ١، ص ٧٢١.
(٣) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٧١٧.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٨٢.

رأيته غائصاً في الفقه»(1).

ولما كانت أُولى اهتمامات الثّوري منصبّة على علم الحديث، الذي تبحّر فيه حتى فاق أقرانه، كان لا بدّ له من أن يتبوّأ مركزاً يليق به، فاتفق معاصروه على تتويجه أميراً للمؤمنين في الحديث وذلك بشهادة شُعبة بن الحجّاج، وسفيان بن عُيينة، وأبي عاصم، ويحيـىٰ بن مُعين، ويحيـىٰ بن يمان وغيرهم(2). وهو برأي ابن عُيينة فريد عصره، فقال: «أصحاب الحديث ثلاثة: عبد الله بن عبّاس في زمانه، والشعبيُّ في زمانه، والثّوريُّ في زمانه»(3). وهو أفضل المحدّثين برأي عبد الله الخريبي(4)، وسُمِعَ يحيـىٰ بن أكثم يقول: «كان في الناس رؤساء، كان سفيان الثوري رأساً في الحديث، وأبـو حنيفة رأساً في القياس، والكِسَائي رأساً في القُرَّاء، فلم يبقى اليوم رأس في فنٍّ من الفنون»(5)

(1) البخاري، التاريخ الكبير، جـ ٤، ص٩٢. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٨. النووي، تهذيب الأسماء، جـ ١، ص ٢٨٧.
(2) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٩. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٤. الذهبي، العِبَر في خبر مَن غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، جـ ١، ص ٢٣٦، الكويت: ١٩٦٠. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٦. عماد الدين أبو الفداء بن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، جـ ١٠، ص ١٣٤، بيروت: مكتبة المعارف، ط ٤، ١٤٠١/١٩٨١. السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ٩٥. وأبو عاصم: هو الضحّاك بن مَخْلد البصري، توفي سنة ٢١٢/٨٢٧، طبقات الحفّاظ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
(3) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٤، الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٠.
(4) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٩.
(5) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٩.

وعلى العموم؛ فقد كان الثّوري ثقة مأموناً، ثبتاً، كثير الحديث، حجّة[1].

والمُلاحظ، أن الثّوري بلغ هذه المرتبة الرفيعة بعد جهدٍ جهيد بذله في تحصيل مُضنٍ استمر قرابة الأربعين سنة[2]. إلاّ أنه عندما بلغ مركز الشُّهرة تمنى أن ينجو منها لأنها في نظره بليّة ابتُلِي بها، فكان يقول: «كنت إذا رأيت الرجال يجتمعون إلى أحد غبطه، فلما ابتليت بها ودِدت أنّي نجوت منها كفّافاً لا عَليَّ ولا لي»[3]، وقال: «وددت أن يدي قطعت ولم أطلب حديثاً[4]، وتمنى كذلك أن يخرج من العلم الذي بلغ فيه الغاية، كما دخل فيه، لأنه بذلك تخفّ أحزانه وتزول آلامه، لهذا كان يقول: «لو لم أعلم لكان أقلّ لحزني»[5]. فالعلم برأيه، يثقل على صاحبه ويزيد في أوجاعه فقال: «مَن يزداد علماً يزداد وجعاً»[6].

وعلى الرغم من فرار الثّوري من الشُّهرة، نجد طلاب العلم يلاحقونه من مكان إلى آخر، وربما وقفوا ببابه منتظرين بدء دروسه، وكان إذا رحل إلى بلد ما خرج الناس في طلبه، مما يضطره أحياناً كثيرة

---

(١) ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧١، ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ٢٤٤.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٥.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٤) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٤.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٦٢. أبو الفرج بن الجوزي، صفة الصفوة، ضبطها إبراهيم رمضان وسعيد اللحّام، جـ ٣، ص ٩٧، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩/١٩٨٩.
(٦) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٥.

لأن يستعين بأحد أصحابه لردّ أصحاب الحديث عنه[1].

ولقد اختصّ سفيان الفقراء بمجلسه دون الأغنياء، حتى أن طلابه كانوا يأتونه بخلقان ثيابهم لينالوا منه الرضى والتشريف، وقد لاحظ ذلك أحد روّاد تلك المجالس فقال: «ما رأيت الأغنياء أذلّ منهم في مجلس سفيان الثّوري، ولا الفقراء أعزّ منهم في مجلسه»[2]. وكان الثّوري يفتخر بطلابه وينشط لمرآهم فيقول لهم عندما يبدأ بالحديث: «تقدموا يا معشر الضعفاء»[3]، وكان يحثّهم على أخذ العلم والتعجّل في ذلك لأنهم في سباق مع الزمن، فخرج إليهم يوماً وقال لهم: «يا معشر الشباب تعجّلوا بركة هذا العلم، فإنكم لا تدرون لعلكم لا تبلغون ما تؤملون منه، لِيُفِدْ بعضكم بعضاً»[4].

وكان يذكّر طلابه، من وقت لآخر، بأهمية الحديث والحرص على أخذه وحفظه ونشره لأنه خير من كل شيء، فكان يقول: «. . إن الحديث خيرُ علوم الدنيا»[5]، وكان يحدّث الرجل الحديث ويقول له: «هذا خير لك من ولايتك عسقلان وصور». وأملى على رجل شيئاً فقال: «هذا خير لك من ولايتك الريّ»[6].

من جهة ثانية، كان يرى أن طلب الحديث يجب أن تسبقه أمور تساعد على فهمه ومعرفة قدره، فقال: «كان الرجل إذا أراد أن يكتب

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٧٠، جـ ٧، ص ٧٤.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٦٥.
(٣) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٧٠.
(٥) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٣.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

الحديث تأدّب، وتعبّد قبل ذلك بعشرين سنة»(١)، كذلك يرى أن صاحب الحديث يجب أن يكون مكفياً، لأن الآفات إليه أسرع، وألسنة الناس إليه أسرع إذا احتاج وذلّ(٢).

والمُلفِت للنظر في شخصية الثّوري، أنه كان إذا بدأ بالحديث نسي كل شيء ما عداه، وغاص فيه وتبحّر حتى كأنه شخص غير سفيان الذي يعرفه أصحابه، فقال له خَلَف بن إسْماعيل: «ما لك إذا أخذت في الحديث نشطت وأنكرت، وإذا كنت في غير الحديث كأنك ميت»! فردّ عليه سفيان قائلاً: «أما علمت أن الكلام فتنة»(٣).

وحقيقة الأمر؛ فقد أُولِع الثّوري بالحديث حتى أنه خاف على نفسه من فتنته، وكان يتمنى الموت خشية عاقبة ذلك، وكثيراً ما كان يقول: «ليتني قد مُتُّ، ليتني استرحت، ليتني في قبري». فقال له حمّاد بن سَلَمة: «يا أبا عبد الله ما أكثر تمنّيك للموت، والله لقد أتاك الله القرآن والعلم»، فقال سفيان: «يا أبا سلمة، وما يُدريني لعلّي أدخل في بِدعة، لعلّي أدخل فيما لا يحلّ لي، لعلّي أدخل في فتنة، أكون قدّمت فسبقت هذا»(٤). ثم قال: «ما أخاف على نفسي أن يُدخلني النار إلاّ

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٥، المنّاوي، الكواكب، جـ ١، ص ١١٥.

(٢) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٩. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٤. عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٥٣، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩.

(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٣. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٧.

(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧١.

الحديث لأن فتنة الحديث أشدّ من فتنة الذهب والفضة»[1].

ولقد لاحظ أصحاب الثّوري شدّة انشغاله بالحديث فقال أبو عاصم: «ما خفت على سفيان شيئاً سوى الحديث»[2]، وقال يحيىٰ القطّان: «كان الثّوري قد غلبت عليه شهوة الحديث، وما أخاف عليه إلاّ من حبّه للحديث»[3]. ثم قال: «ما رأيت رجلاً أفضل من سفيان لولا الحديث، كان يصلّي ما بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، فإذا سمع مُذاكرة الحديث، ترك الصلاة، وجاء»[4]. كـذلك كـان الحديث يُخرِجه من خشوعه ويُعيده إلى مجلسه. قال عبد الرحمن بن مهدي: «كنّا نكون عند سُفيان الثوري، فكأنه قد أُوقف للحساب، فلا نجترىء أن نكلّمه، فنُعرِّض بذكر الحديث، فيذهب ذلك الخشوع فإنما هو حدّثنا حدّثنا»[5].

والواضح؛ أن الثّوري لم يترك الحديث حتى آخر رمق في حياته، بدليل؛ أنه عندما دخل عليه أصحابه وهو في مرضه الذي مات فيه، كان يحدّثه رجل بحديث فأعجبه وضرب بيده إلى تحت فراشه فأخرج ألواحاً فكتب ذلك الحديث فقالوا له: «على هذا الحال منك؟» فقال: «إنه حسن، إن بقيت فقد سمعت حسناً، وإن مُتُّ فقد كتبت حسناً»[6]. لقد كان هذا منهج الثّوري في الحياة، وكثيراً ما كان يردّد: «الملائكة حرّاس

---

(١) المعرفة والتاريخ، جـ١ ص ٧٢٧. حلية الأولياء، جـ٦، ص ٣٦٣. الصفدي، جـ١٥، ص ٢٨٠.
(٢) حلية الأولياء، جـ٦، ص ٣٦٩.
(٣) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٤) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٦٣.
(٥) أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٥٦.
(٦) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٦٤.

السماء، وأصحاب الحديث حرّاس الأرض»[1]. لهذا كان يحرص على أخذه الحديث لينشره بين الناس فيؤدّي بذلك قسطه للعُلى، وقد ظلّ أميناً لرسالته حتى آخر رمق في حياته. فذكر أحد أصحابه أنه لما مات حمله إلى المُغتَسل ليغسله فحلّ إزاره فإذا فيها أطراف الحديث[2].

غير أن هذه الحياة المليئة بالعطاء كان لا بدّ أن ينتج عنها ثروة علمية كبيرة ومميّزة، وبالعودة إلى المصادر اتّضح لنا من خلال الروايات المتواترة، أنه كانت للثوري مؤلفات كثيرة تسببت في قلقه وخوفه من وقت لآخر، فكان يدفنها حيناً ويُخرِجها حيناً آخر، ويؤكد ذلك ما رواه عبد الله بن الأسود الحارثي فقال: «خاف سفيان شيئاً، فطرح كتبه، فلما آمن أرسل إليّ وإلى يزيد بن توبة المرهبي، فقال: «أخرجوا الكتب» فدخلنا البئر فجعلنا نُخرجها، فأقول: يا أبا عبد الله، وفي الركاز[3] الخمس، وهو يضحك، فأخرجنا تسع قمطرات[4]. كل واحدة إلى هاهنا. وأشار إلى أسفل من ثدييه. قال: فقلت له: اعرض لي كتاباً تحدّثني به، فعزل لي كتاباً، فحدّثني به»[5].

---

(١) الصفدي، جـ ١٥، ص ٢٧٩.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٢.
(٣) الركاز: الدفائن من الذهب والفضة وسائر المجموعات المكتشفة، والحكم في الركاز: أن يؤخذ منه الخُمْس، ويكون سائره لواجِده. أبو عبيدة القاسم بن سلام، كتاب الأموال، شرحه علي مهنّا، ص ٣٣٧ - ٣٤٢، بيروت: دار الحداثة، ط ١، ١٩٨٨.
(٤) القِمَطرُ والقِمطرَةُ: ما تُصان فيه الكتب، قال الشاعر:

لَيس بعلمٍ ما يَعي القِمَطرُ
ما العِلْمُ إلاّ ما وَعاه الصدرُ

محمد بن منظور، لسان العرب، جـ ٥، ص ١١٦ - ١١٧.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٤. تاريخ بغداد، جـ ٧، ص ١٦١.

وأما بشأن وصيّته، بما يتعلق بهذا الأثر النفيس، فقد اختلفت الروايات في ذلك، فذكر ابن النديم في الفهرست[1]؛ «أنه أوصى إلى عمّار بن سيف في كتبه فمحاها وأحرقها». في حين يذكر أبو نعيم في حليته[2]، أنه أوصى أن تُدفن كُتُبُهُ، وكان ندم على أشياء كتبها عن قوم، وقال: «حملني عليه شُهرة الحديث».

مهما يكن من أمر، فالثابت، أن الثّوري هو أول مَن صنّف بالكوفة[3] فكانت له من الكتب: كتاب الجامع الكبير[4] في الفقه، والاختلاف يجري مجرى الحديث، وقد رواه عنه جماعة منهم: يزيد بن أبي حكيم، وعبد الله العوني، وإبراهيم الصنعاني. وكتاب الجامع الصغير ورواه جماعة منهم: الأشجعي، والمعافا الموصلي، وزيد بن أبي الزرقاء. وله كتاب الفرائض[5]، وكتاب التفسير[6]، ورسالة إلى عبّاد بن عبّاد الأرسوفي[7] وقد أوردها ابن أبي حاتم في كتابه تقدمة

---

(١) ص ٣١٥، بيروت: دار المعرفة، د.ت. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦١.
(٢) جـ ٧، ص ٣٨، ٦٤.
(٣) محمد بن جعفر الكناني، الرسالة المستطرفة، ص ٨، دمشق: دار الفكر، ط ٣، ١٣٨٣/١٩٦٤.
(٤) قال يحيىٰ بن معين في تاريخه، جـ ٢، ص ٤٣: «ليس يكره جامع سفيان إلا أحمق».
(٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٣١٥. خير الدين الزركلي، الأعلام، جـ ٣، ص ١٠٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠.
(٦) سفيان الثّوري، كتاب تفسير الثّوري، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/١٩٨٣.
(٧) ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣١٥.

لمعرفة الجرح والتعديل[1].

وعلى الرغم من هذه المكانة التي بلغها الثوري، وهذه المؤلفات الضخمة التي تركها، فقد عُرِفَ، وبشهادة أصحابه، بالتدليس[2].

قال ابن المبارك: «حدّث سفيان بحديث فجئته وهو يدلسه، فلما رآني استحيى وقال: نرويه عنك»[3]، ويرى صبحي الصالح أن تدليس الثّوري هو من النوع الذي لا يجرحه، كأن يكون تدليسه عن الثقات فقط[4]، ولكن الذهبي يدحض هذا الرأي فيذكر حديثاً لمحمد بن نُمير مفاده أن الثوري «كان يحدّث عن الضعفاء»[5].

٤ ـ نظرته إلى العلم:

لقد كان لسفيان الثوري نظرته الخاصّة إلى العلم، لهذا بذل جُلّ جهده لكي يضعه في مكانه الصحيح، فهو يأتي، حسب فلسفته، بعد الفرائض، فقال: «ليس عمل بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»[6]. وقال: «إنما يُطلب العلم ليُتّقى الله به، فمن ثم فُضّل على غيره، فلولا

---

(١) ص ٨٦ ـ ٨٩.

(٢) التدليس في الإسناد وهو أن يحدِّث المحدّثُ عن الشيخ الأكبر وقد كان رآه إلا أنه سمع ما أسنده إليه من غيره من دونه، وقد فعل ذلك جماعة من الثقات، وقيل إنه لم يسلَم منه إلا شُعبة والقطّان. لسان العرب، دلس، جـ ٦، ص ٨٦. ابن العماد، شذرات الذهب، جـ ١، ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٥.

(٤) علوم الحديث، ص ٣٩١.

(٥) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٤.

(٦) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٣.

ذلك لكان كسائر الأشياء»(١). كما بيّن أن العلم يمرّ بمراحل حتى يؤدّي غايته المرجوّة، فأول العلم طلبه، والصمت والاستماع إليه، ثم حفظه، ثم العمل به، ثم نشره وتعليمه، لهذا قال: «تعلموا هذا العلم، فإذا تعلّمتموه فاحفظوه، فإذا حفظتموه فاعملوا به، فإذا عملتم به فانشروه»(٢).

والعلم، في نظر الثوري، له آدابه الخاصة التي تعزّز كيانه، وتحافظ على بهجته وقدره، وتحيد به عن اللهو واللعب، فقال: «تعلّموا العلم، فإذا علمتموه فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بضحك ولا لعب فتمجّه القلوب»(٣). وقال أيضاً: «زيّنوا العلمَ والحديث بأنفسكم، ولا تتزينوا به»(٤).

إضافة إلى ذلك؛ فقد كان الثوري رائداً في قضية التربية والتعليم، حتى أنه سجّل مبادرة جيدة في هذا المجال، ولا سيما عندما حثّ على إلزاميّة التعليم، فكان يقول: «ينبغي للرجل أن يُكره ولدهُ على طلب الحديث فإنه مسؤول عنه»(٥)، وبالمقابل على العالِم أن يسهّل لطلابه أخذ العلم حتى ولو اضطرته الظروف إلى أن يقصدهم في منازلهم.

والواقع؛ فقد تطوّع الثّوري لتأدية مهمته كاملة فكان يقول: «لو لم

---

(١) المصدر السابق، جـ ٦، ص ٣٦٢. الشعراني، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٥٣.
(٢) ابن سعد، الطبقات، جـ ٦، ص ٣٧١.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٢، ٣٦٨.
(٤) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٤.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٥. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٣.

يأتِني أصحاب الحديث لأتيتهم في بيوتهم»[1]. وشاءت الظروف أن يطبّق القول بالفعل، فعندما كان في بيت المقدس أرسل إليه الزاهد إبراهيم بن أدهم «تعالَ حدّثنا»، فقيل لابن أدهم: «يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا؟!» قال: «إنما أردت كيف تواضعه»، فاستجاب سفيان لطلبه وجاء فحدّثه[2]. وكان دائماً يبحث عن الرجل المناسب، ويترقّب دخوله عليه ليلقّنه بعضاً من علومه ويتكفّل بحمل الأمانة عنه. حدّث ابن عيينة عن الثّوري أنه قال: «وقع عندي من هذا الأمر شيء - يعني العلم - وددنا أنّا وجدنا مَن يدخل فنرمي به إليه»[3].

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان الثّوري أحرص الناس على العلم. وكثيراً ما كان يتخوّف على مستقبل العلوم الموروثة عن السلف الصالح. لذا أخذ، وبكل حماس يحثّ العرب على طلب العلم مخافة أن يضيع منهم. فكان يقول لهم: «اطلبوا العلم ويحكم فإني أخاف أن يخرج منكم فيصير في غيركم، اطلبوه، ويحكم، فإنه عزٌّ وشرف في الدنيا والآخرة»[4]. وكان يرى أن للعلم أهله وأصحابه ومنهم العرب، لهذا كان لا يحدّث النبط[5]، ولا سفل الناس، فقيل له في ذلك فقال: «إنما العلم؛ إنما أخذ عن العرب، فإذا صار إلى النبط وسفل الناس قلبوا العلم»[6].

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٧.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٧.
(٣) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧٢٥.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٨.
(٥) النبط: قوم ينزلون بالبطائح بين العراقين (الكوفة والبصرة) والجمع أنباط. لسان العرب، جـ ٧، ص ١١٠ ـ ١١٢، وجـ ٩، ص ١٦٥.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٩.

وقد حرص في وصيّته لأصحابه، أن يذكّرهم دائماً بطلب العلم محدّداً لهم وسيلته وغايته، فقال: «ما نعلم شيئاً أفضل من طلب العلم بنيّة»[1]. وقال لعليّ بن الحسن: «يا أخي اطلب العلم لتعمل به، ولا تطلبه لتُباهي به العلماء، وتُماري به السفهاء، وتأكل بـه الأغنياء، وتستخدم به الفقراء، فإن لك من عملك ما عملت به، وعليك ما ضيّعت منه»[2].

والعلم برأي الثّوري، هو الأساس والمِدماك الصحيح للعمل الشريف، والعلم والعمل متلازمان متكـاملان ولا مجـال للمفاضلة بينهما، فعندما سُـئِل: أطَلب العلم أحبّ إليك أو العمل؟ فقال: «إنما يُراد العلم للعمل، ولا ندع طلب العلم للعمل، ولا ندع العمل لطلب العلم»، وبالفعل فقد طبّق الثّوري هذا المبدأ على نفسه، فذكر أبو نعيم بسنده عن مؤمل أنه قال: «ما رأيت عالماً يعمل بعلمه إلاّ سفيان»[3].

فهذه هي الصورة الحقيقية للثّوري العالِم العامل الذي ضرب المثل بنفسه ليكون قُدوة لغيره، وأُنموذجاً لطلاب علمه وأبناء مجتمعه.

٥ ـ قدرته على الاستيعاب والحفظ:

تشهد المصادر بمقدرة سفيان الثوري على الاستيعاب والحفظ، والإتقان واستمساك الذاكرة، فذكر الذهبي في تذكرة الحفّاظ[4]، أن الثوري هو «شيخ الإسلام، سيّد الحفّاظ». وهذه حقيقة لا شك فيها

(١) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٤.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ١٢.
(٤) جـ ١، ص ٢٠٣.

باعتراف أقرانه، فعندما سُئِلَ يحيىٰ بن سعيد القطّان مَن أحفظ مَن رأيت؟ قال: «ما رأيت أحداً أحفظ من سفيان الثّوري[1]، وأيّد ذلك عبد الرحمن بن مهدي فقال: «ما رأيت صاحب حديث أحفظ من سفيان الثوري»[2].

ولقد أورد الخطيب البغدادي[3] حادثة عن الأشجعي تبيّن سِعة حفظه فقال: «دخلت مع سفيان الثّوري على هشام بن عروة، فجعل سفيان يسأل وهشام يحدّثه فلما فرغ قال: أعيدها عليك؟ قال: نعم، فأعادها عليه، ثم خرج سفيان وأذِنَ هشام لأصحاب الحديث، وتخلّفت معهم، فجعلوا إذا سألوه أرادوا الإملاء فيقول: احفظوا كما حفظ صاحبكم، فيقولون لا نقدر نحفظ كما حفظ صاحبنا».

وعن حفظه حدّث يحيىٰ قال؛ قال لي سفيان بعد ثماني عشرة سنة أو تسع عشرة سنة في حديث عمرو بن مرّة: «هذا أليس قد حدّثتك به مرة؟»[4]. ونوّه ابن مِهران الرازي بأهمية الثّوري فقال: «كتبتُ عن سفيان الثّوري أصنافه، فضاع مني كتاب الدِّيَّات، فذكرت ذلك له، فقال: إذا وجدتني خالياً فاذكر لي حتى أُمليه عليك. فحجّ، فلما دخل مكة، طاف بالبيت، وسعى، ثم اضطجع، فذكرتُه، فجعل يُملي عليّ الكتاب، باباً في إثر باب، حتى أملاه جميعه من حفظه»[5].

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٦٣، جـ ٤، ٢٢٣. الذهبي، العِبَر، جـ ١، ص ٢٣٦.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٨. السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ٩٥.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٣.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٦٦.
(٥) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٧.

كذلك حدّث شريك القاضي عن حفظ الثّوري فقال: «قَدِمَ علينا سالم الأفطس فأتيته، ومعي قرطاس فيه مائة حديث، فسألته عنها، فحدّثني بها، وسفيان يسمع، فلما فَرَغَ، قال لي سفيان: أرِني قرطاسك، قال: فأعطيته إياه فحرقهُ، قال فرجعت إلى منزلي، فاستلقيتُ على قفاي، فحفظت منها سبعة وتسعين، وذهبت عليّ ثلاثة. قال وحفظها سفيان كلها»(١).

وبشهادة أحمد بن حنبل كان الثّوري أحفظ من سفيان بن عُيينة، وأقلّ الناس غلطاً(٢)، وهو أحفظ من شعبة بن الحجّاج(٣)، ومن مالك ابن أنس(٤)، وهو برأي ابن عُيينة حافظ العراق الأوحد، قال عبد الرحمن ابن مهدي: «قَدِمت على سفيان بن عُيينة فجعل يسألني عن المحدّثين فقال: «ما بالعراق أحد يحفظ الحديث إلاّ سفيان الثّوري»(٥). ونظراً لقوة ذاكرة الثّوري وثقته بنفسه كان إذا حفظ الشيء لا يقبل الجدال فيه. قال عبد الرحمن بن مهدي: كنت أدخل على الثّوري ـ وهو مضطجع ـ فأُذاكره ويحدّثني، فكنت أقول له: «يا أبا عبد الله تخالفنا في هذا الحديث». فيجلس فزعاً فيقول: «مَن يخالفني؟» فأقول: فلان حتى قلت له مراراً فقال لي يوماً: «انظر ما خالفني فيه مِسعر أو شُعبة فأخبرني، وأما سواهما فلا تخبرني»(٦). وظل هذا دأبه حتى فارق

(١) العجلي، الثقات، ص ١٩٠.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٠.
(٣) الذهبي، تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٠٤. ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٥.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٦٣.
(٥) المصدر نفسه، تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٠.
(٦) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧١٩.

الدنيا، فقال فيه ابن مهدي: «رحمك الله يا أبا عبد الله، كنت إذا حفظت الشيء لا تبالي مَن خالفك»(١).

وفي زحمة العطاء والتبحّر حدّث الثّوري عن نفسه وعن قدرته على الحفظ والإتقان فقال: «ما استودعت قلبي شيئاً قطُّ فخانني؛ حتى إني لا أمرّ بالحائك يتغنى فأسدّد أُذني مخافة أن أحفظ ما يقول»(٢). وروى بشر بن الحارث الحافي عن ابن عُيينة أنه قال: «كان سفيان الثّوري كأن العلم ممثّل بين عينيه، يأخذ منه ما يريد، ويدع ما يريد»(٣).

وفي أكثر الأحيان كان الثّوري يعجب بنفسه، فعندما يعقد مجلسه ليحدّث طلّابه كان يبادرهم بقوله: «انفجرت العين، انفجرت العين»(٤). وذلك لغزارة علمه، وبالمقابل كان يتأذّى ويشتد عليه إذا حدّثه أحد أصحابه بما ليس عنده، وقد شهد بذلك مرافقه يحيىٰ القطّان(٥).

مهما يكن من أمر؛ فقد كان الثّوري بحراً زاخراً يعطي دون هوادة، قال يحيىٰ بن يمان: سمعت الثّوري يقول؛ «ما أحدّث من كل عشرة بواحد» وقد كتبنا عنه عشرين ألفاً، وقال الأشجعي: «سمعت من

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٨.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص ١٥٤ قابل، ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٧، النووي، ص ٢٨٧، الذهبي، العِبَر، جـ ١، ص ٢٣٦.
(٣) ابن خلكان، جـ ٢، ص ٣٨٦.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٦.
(٥) تاريخ يحيىٰ بن معين، جـ ١، ص ٨٧.

الثّوري ثلاثين ألف حديث»[1].

وعلى الرغم من هذا الباع الطويل؛ في الحفظ والإتقان والعطاء، فقد كان هناك مأخذ واحد على الثّوري وقد جاء على لسان علي بن المديني فقال: «لا أعلم سفيان صحف في شيء قطُّ إلا في اسم امرأة أبي عبيد كان يقول حفينة[2]، والصواب جفينة.

٦ ـ مفاضلة بين الثّوري ومعاصرين:

إلى جانب الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها الثّوري، إضافة إلى قدرته على الحفظ والإتقان، تبيّن لنا، أنه كان مميزاً عن غيره من الأئمة والعلماء الأكابر الذين عاصروه. نستشف ذلك: من خلال شهادات التأييد والتزكية التي كانت تنهال عليه من كل حدب وصوب، وكلها تُظهِر علو قدره وتفوّقه على الكثيرين من أقرانه في العلم والحفظ والفقه والزهد والورع.

فهذا الفضيل بن عياض يدلي برأيه الصريح عندما جرت مفاضلة علمية بين الثّوري والإمام أبي حنيفة فقال: «إن هؤلاء أُشرِبَت قلوبهم حبُّ أبي حنيفة، وأفرطوا فيه، حتى لا يرون أن أحداً كان أعلم منه، وكان والله سفيان أعلم منه»[3].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٨. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٥. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٧.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٤.

(٣) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٨، قابل الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٩.

وأثناء المفاضلة بين الثّوري والإمام مالك، سُئِل صالح بن محمد عن ذلك فقال: «سفيان ليس يتقدمه عندي في الدنيا أحد، وهو أحفظ وأكثر حديثاً من مالك، ولكن مالكاً كان ينتقي الرجال، وسفيان يروي عن كل أحد»[1]. وكان ليحيىٰ القطّان رأي مشابه، فعندما سُئِلَ أيّهما أحبّ إليك: رأي مالك، أو رأي سفيان؟ قال: «سفيان لا نشك في هذا، ثم أضاف سفيان فوق مالك في كل شيء»[2] يعني في الحديث، وفي الفقه، وفي الزهد[3]. وكان وهيب يقدّم سفيان في الحفظ على مالك[4].

وعندما جرت مقارنة ومفاضلة بين علم سفيان وعلم شُعبة بن الحجّاج، قيل لإسماعيل بن إبراهيم: كان شعبة أكثر علماً أو سفيان: فقال: «ما علم شعبة عند علم سفيان إلا كتفلة في بحر»[5]. وهو برأي يحيىٰ القطّان، أثبت من شعبة وأعلم بالرجال[6]، وسُمِعَ يقول: «ليس أحد أحبّ إليّ من شُعبة، ولا يعدله عندي أحد ـ لأنه كان معلّمه ـ وإذا خالفه سُفيان، أخذت بقول سفيان»[7]. وعندما سُئِلَ يحيىٰ بن معين

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٠ ـ ١٧١. ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٥.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٧. الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٨٥. الذهبي، العِبَر، جـ ١، ص ٢٣٦.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٤، ١٦٩.
(٤) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٧.
(٥) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٥.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٠. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٩.
(٧) البخاري، التاريخ الكبير، جـ ٤، ص ٩٣. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٦. ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٣.

عن سفيان وشُعبة إذا اختلفا في حديث الكوفيين قال: «كان سفيان أحفظهما للرجال»(١). وقال أبو زرعة: «كان الثّوري أحفظ من شُعبة في إسناد الحديث وفي متنه»(٢).

وقال أبو معاوية الضرير: «كان سفيان يأتيني ههنا يُذاكرني حديث الأعمش، فما رأيت أحداً أعلم بها منه، وكان شُعبة إذا رآني اضطرب في حديث الأعمش»(٣)، وعندما سُئِل صالح بن محمد عن سفيان وشُعبة قال: «سفيان أحفظ من شُعبة، وأكثر حديثاً، يبلُغُ حديثه ثلاثين ألفاً، وشُعبة نحو عشرة آلاف»(٤).

وهكذا تفوّق الثّوري على شُعبة في العلم وفي حديث الكوفيين وفي الحفظ والتخصّص بحديث الأعمش وفي كثرة الحديث، وأخيراً تُحسَم القضية لصالح الثّوري، ويعترف شُعبة بالحقيقة الدامغة فيقول: «سفيان أحفظ منّي»، وعندما قيل له: خالفك سفيان، قال: «دمغني»(٥).

فيما بعد جرت مفاضلة بين سفيان والأعمش، فأدلى يحيىٰ بن سعيد برأيه قائلًا: «ما كتبت عن سفيان، عن الأعمش، أحبّ إليّ مما كتبته عن الأعمش»(٦). كذلك كان يحيىٰ بن معين، يحبّ الثّوري،

(١) تاريخ يحيىٰ بن معين، جـ ٢، ص ٦٠.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٦٦.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٧.
(٤) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧١.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٧.
(٦) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٤٧، ٢٥٥. قابل الجرح والتعديل، ص ٨٤.

ويفضّله على الأعمش[١]. وعاد يحيىٰ بن سعيد ليصرّح بأمر خطير فقال: «كان سفيان أعلم بحديث الأعمش من الأعمش»[٢]. وقد أكد ذلك ما أورده الخطيب البغدادي في تاريخه عن زائدة الذي قال: «كنّا نأتي الأعمش فنكتب عنه، ثم نأتي سفيان فنعرض عليه، فيقول لبعضنا: ليس هذا من حديث الأعمش، فنقول إنما حدّثناه الآن، فيقول: اذهبوا إليه فقولوا له، فنذهب إليه فنقول له، فيقول: صدق سفيان، فمحاه»[٣]. وهذا يثبت أن الثّوري كان أعلم بالحديث من بعض رُواته، وأظهر على أنه هو المرجع الصالح الذي لا بدّ من العودة إليه والأخذ برأيه، لأنه أُمة في هذا الشأن.

كذلك يفضله يحيىٰ بن معين على شريك القاضي فعندما قيل له: «زعم إسحاق بن أبي إسرائيل، أن شريكاً أروى عن الكوفيين ومن سفيان، وأعرف بحديثهم؟ فقال: ليس يُقاس بسفيان أحد»[٤].

وكان يونس بن عبيد يفضّل الثّوري على كبار الأئمة، فعندما قال: «ما رأيت أفضل من الثّوري»، فقيل له: «قد رأيت عطاءً، وسعيد بن جُبير، ومجاهداً، وتقول هذا؟!»، فقال: هو والله ما أقول: «ما رأيت أفضل من الثّوري»[٥]. وكان يحيىٰ بن سعيد يفضّله على أربعة آلاف

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٦.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٩، ص ١٦٧. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٩.
(٣) جـ ٩، ص ١٦٧.
(٤) تاريخ يحيى بن معين، جـ ٢، ص ٤٠٢، عن شريك. راجع ثقات العجلي، ص ٢١٧ ـ ٢٢٠.
(٥) النووي، تهذيب الأسماء، ص ٢٨٧. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٧. وعن عطاء وسعيد بن جبير ومجاهد راجع طبقات الحفّاظ للسيوطي على التوالي، ص ٤٥، ٣٨، ٤٢.

محدّث، فضلاً عن زائدة وشريك وأبي الأحوص، وإسرائيل. فعندما روى حديثاً للثّوري قال له سُفيان بن زياد: يا أبا سعيد! قد خالفت أربعة. قال: مَن؟ قال: زائدة، وشريك، وأبو الأحوص، وإسرائيل. فقال يحيىٰ: «لو كان أربعة آلاف، مثل هؤلاء، كان سفيان أثبت منهم»(١)، كذلك يفضّله وكيع بن الجرّاح في الفقه على الحَكَم وحمّاد(٢)، ويفضله ابن المبارك على ابن عون، فقال: «ما كنت أُفضّل على سفيان أحداً، ما أدري ما ابن عون؟»(٣) وهو بشهادة العجلي أفقه من سفيان بن عيينة(٤).

وفوق ذلك كله كان الثّوري، برأي مالك، أكثر علماً من الإمام الأوزاعي(٥)، ونظر إليه البعض على أنه أكبر قدراً من إبراهيم بن أدهم. فعندما سأل القاسم الدمشقي يمان ابن معاوية العابد: «رأيت إبراهيم بن أدهم؟ فضحك، وقال: وأكبر من إبراهيم، قال: مَن؟ قال: سفيان الثوري»(٦).

وفي نهاية هذه المفاضلة يأتي رأي عبد الرحمن بن مهدي ليقطع الجدل حول هذا الموضوع؛ فعندما ذكر في مجلسه الثّوري وشُعبة وابن

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٩.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٦.
(٣) العجلي، الثقات، ص ١٩١، عن ابن عون راجع ثقات العجلي، ص ٢٧٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٣، عن ابن عُيينة. راجع تهذيب ابن حجر، جـ ٤، ص ١١٧ ـ ١٢٢.
(٥) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٨٥.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦.

أنس وابن المبارك فقال: «أعلمهم بالعلم سفيان»[1]، وقال يحيىٰ بن مُعين: «كلُّ مَن خالف سفيان فالقول قول سفيان»[2].

وبذلك توّج الرجل أميراً، وبشهادة الذهبي[3]؛ كان رأساً في كل شيء، رأساً في الفقه، رأساً في الحفظ، رأساً في معرفة الآثار، رأساً في الزهد، والتألّه، والخوف. وهو من أئمة الدين، لا يخاف في الله لومة لائم.

٧ ـ إمامته، وأهميته الفقهية:

مما لا شك فيه أن الثّوري كان إماماً من أئمة المسلمين، وعَلَماً من أعلام الدين، مجمعاً على إمامته بحيث يُستغنى عن تزكيته، مع الإتقان، والحفظ، والمعرفة والضبط. ولقد شهد بذلك غير واحد من الأئمة المُعاصرين له، فهو برأي عبد الرحمن بن مهدي «إمام في السُنّة وإمام في الحديث»[4]. ويأتي، وفق ترتيب الإمام أحمد بن حنبل، في طليعة الأئمة. فذكر المروزي عن الإمام أحمد أنه قال: «أتدري مَن الإمام؟ الإمام سفيان الثّوري لا يتقدمه أحد في قلبي»[5]. ويرى ابن مهدي أن أئمة الناس في زمانهم أربعة: «سفيان الثّوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحمّاد بن زيد بالبصرة»[6]. وقال بشر

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٠. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٩.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٨. النووي، تهذيب الأسماء، ص ٢٨٧.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤١.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١٨.
(٥) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٠. تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٠٤. ابن كثير، جـ ١٠، ص ١٣٤.
(٦) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١٨.

الحافي: «كان الثّوري عندنا هو إمام الناس»[1].

إلى جانب ذلك، كان الثّوري فقيهاً عارفاً، وحبراً مجتهداً، وحُجّة لا يُستغنى عنه، قال عبد الله بن المبارك: «ما أحد عندي من الفقهاء أفضل من سفيان بن سعيد»[2]. ولما ذكر سفيان في مجلس زائدة قال: «ذاك أفقه أهل الدنيا»[3]. وحدّث محمد بن المعتمر بن سفيان قال: «قلت لأبي: مَن فقيه العرب؟ قال: سفيان الثّوري»[4]. وقال سفيان بن عُيينة: «ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام ـ وهو الفقه ـ من سفيان الثّوري»[5]، الذي لم يَرَ الخريبي أفقه منه على الإطلاق، فقال: «ما رأيت أفقه من سفيان»[6]. وقال ابن حبّان: «كان من سادات الناس فقهاً وورعاً وإتقاناً»[7].

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية أو التطبيقية؛ فقد ظهرت مقدرة الثّوري واضحة للعيان من خلال الفتاوى التي كان يجود بها على أبناء مجتمعه، وكثيراً ما رآه الإمام عبد الله بن المبارك غائصاً في غوامض الفقه[8] يعالج القضايا ويجتهد في حلولها. مما يثبت مقدرة الرجل وتفوقه في صنعته.

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٧. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٩.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٧.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٧، ٢٧٠.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٧.
(٥) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٨٤، النووي، تهذيب الأسماء، ص ٢٨٧.
(٦) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٠.
(٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٥.
(٨) النووي، المصدرالسابق، ص ٢٨٧.

والثابت، من خلال ما أوردته المصادر، أن الثّوري كان راوياً مُفتِياً من الطراز الأول[1]، وليس هذا بغريب عنه وقد بدأ يمارس مَهامه وهو في مقتبل العمر، قال الوليد بن مسلم: «رأيت الثّوري بمكة يُستفتى ولمّا يَخُطّ وجهه بعد»[2]. لذا بلغ مركز الصدارة، وأصبح المرجع الفصل في الأمور الفقهية الغامضة، التي كانت تحيّر عقول الأئمة والعلماء الذين كانوا يعظّمون الرجل، وينزلون عند قوله، ويتمسكون بفتواه.

ذكر شاهد عيان أنه رأى عاصم بن أبي النجود ـ شيخ الثّوري ـ يجيء إليه يستفتيه في أمور ترد عليه ويقول له: «يا سفيان! أتيتنا صغيراً، وأتيناك كبيراً»[3]. وكان الإمام الأوزاعي يستشيره في أمور فقهية ويأخذ برأيه، فقال: «كنت أقول فيمن ضحك في الصلاة قولاً لا أدري كيف هو، فلما لقيت سفيان الثّوري، فسألته فقال لي: يعيد الوضوء، ويعيد الصلاة، فأخذت به»[4]. وشُوهِدَ الزبير بن عديّ ـ قاضي الريّ ـ يستفتي الثّوري في قضايا ترِد عليه، ويفتيه الثّوري فيقضي به الزبير[5]. وهذا ما جعل الثّوري معجباً بعلمه الجمّ، فكان كثيراً ما يردّد: «سَلوني عن المناسك والقرآن فإنّي بهما عالم»[6].

بعد هذه الشُّهرة التي بلغها الثّوري تواكب العلماء وعامّة الناس

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٩.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٢٢٤. النووي، ص ٢٨٧. تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٥.
(٣) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٤. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٧. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٧.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٢. ابن خلّكان، المكان نفسه.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٤. كتاب الجرح والتعديل، جـ ٤، ص ٢٢٢.
(٦) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١٧، ١١٩.

على حلقاته ليأخذوا الفتوى من مصدرها الصحيح. ذكر أبو نعيم بسنده أن إياس بن عمرو دخل مسجد سفيان الثّوري فقال: يا أبا عبد الله إن قول لا إلـه إلاّ الله عشر حسنات، والحمد لله والله أكبر عشر؟ فقال: كذا أُبلغنا، قال: فما تقول فيمن كسب ثلاثين ألف درهم من غير حقها، وقال: أقعد أُسبّح، وأحمد وأُكبّر حتى أعمل من الحسنات بعدد هذه؟ فقال سفيان: «فليردّها قبل، فإنه لا يقبل له ذِكر إلاّ بردّها»[1].

وسأل ابن المبارك الثّوري عن الرجل يصلّي أيّ شيء ينوي بصلاته؟ قال: «ينوي أن يناجي ربه». وفي الصلاة قال أيضاً: «يُكتَب للرجل في الصلاة ما عقل منها»[2].

وسُئِل عن المسح على الخُفّين فقال: «امسح عليهما ما تعلقتا بالقدم، وإن تخرّقا. قال: وكذلك كانت خِفاف المهاجرين والأنصار، مُخرّقة مُشقّقة»[3]. وفي الزكاة قال: لا يُعطى أحد من الزكاة أكثر من خمسين درهماً، ولا يُعطى منها أحدٌ له خمسون درهماً، وكان يذهبُ إلى حديث النبي ﷺ: «مَن كانت له خمسون فهو غني»[4]. ولما سُئِلَ عن الرجل عليه دين، «أيأكل اللحم؟ قال: لا!»[5].

وأما عن فتاوى الثّوري لكبار القوم، فقد أمدّنا ابن خلكان[6] برواية عن جدال وقع بين الخليفة المهدي وزوجته الخيزران، وكان

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ١٠.
(٢) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٦٠، ٦١.
(٣) تاريخ ابن معين، جـ ٢، ص ١٩٨. أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٥٤.
(٤) العجلي، تاريخ الثقات، ص ١٩١.
(٥) حلية الأولياء، جـ٧، ص ١٩.
(٦) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٨٩.

الحكم الفصل في ذلك للإمام الثّوري، الذي أظهر على أنه لا يُداري ولا يُجامل في الأمور الشرعية؛ ما دام يعتمد في حلّ إشكالاتها على ما جاء في كتاب الله وسُنّة نبيّه (ﷺ).

قيل إن المهدي قال للخيزران: أُريد أن أتزوج، وكانت بكتاب (بنكاح) فقالت له: لا يحلّ لك أن تتزوّج عليّ، قال: بلى، قالت له: بيني وبينك مَن شئت، قال: أترضين سفيان الثّوري؟ قالت: نعم. فوجه إلى سفيان، فقال: إن أُم الرشيد تزعم أنه لا يحلّ لي أن أتزوج عليها، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع** ﴾[1]، ثم سكت، فقال له سفيان: أتـمّ الآية، يريد قوله تعالى: ﴿ **فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة** ﴾، وأنت لا تعدل، فأمر له بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها.

وعلى الرغم من تلك المنزلة الرفيعة التي بلغها الثّوري، يبدو أن مالكاً قد فوجىء لما علم بأنه يفتي، وكأنه لم يرضَ بذلك. فعندما قيل له: إن سفيان يفتي، قال: أو يفعل! فبلغ قـول مالك ابن أبي ذئب فقال: «ما له وله والله ما قدّم علينا مشرقيّ قطّ خيراً منه»[2].

فهذه نبذة عن حياة الثّوري، ونشاطه العلمي، وهي في مجموعها تعطي صورة شبه متكاملة عن حقيقة الرجل، والمعاناة التي عاشها، وكفاحه في الحياة، وقد استطاع من خلال ذلك؛ أن يكوّن شخصيته العلمية المميزة التي أهّلته لأن يصبح سيداً من سادات أهل زمانه، بعد تفوّقه على معظم رجالات عصره؛ بعلمه وحفظه وإمامته وفقهه، لهذا

---

(١) سورة النساء، آية: ٣.
(٢) المعرفة والتاريخ، جـ١، ص ٧٢٢.

فضّلوه على غيره من العلماء المعاصرين، وخلعوا عليه لقب سيّد الحفّاظ، وأمير المؤمنين في علم الحديث. وقد وثّقه ابن سعد والعجلي[1]. وقال النسائي[2] «هو أجلّ من أن يُقال فيه ثقة، وهو أحد الأئمة الذين أرجو أن يكون الله ممّن جعله للمتّقين إماماً»[3].

---

(١) تاريخ الثقات، ص ١٩٠.

(٢) هو الحافظ أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي النسائي، نسبة إلى نساء، بلدة مشهورة بخراسان، وقد جرّد الصحاح من سننه الكبرى فصنع منها كتاباً سمّاه «المجتبى» وهو المعدود من الأمهات الكبرى، وأحد الكتب الستّة على الإطلاق. وقد توفي سنة ٩١٦/٣٠٣. ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ١، ص ٣٦ ـ ٣٩.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ١١٤.

الفصل الثاني

سفيان الثّوري؛ وحياته الدينية

١ - عبادة الثّوري، وتقواه.
٢ - زهد الثّوري وورعه.
٣ - تواضعه وحُسْن أدبه.
٤ - موقفه من أهل البِدَع.
٥ - عنايته بالقرآن الكريم.

١ ـ عبادة الثّوري وتقواه:

كان الثّوري، إماماً فقيهاً، وعابداً تقيّاً، وقد شاع ذلك عنه حتى ضُرِبت الأمثال بعبادته وتقواه، فهو «عابد الأمة»[١]، والعبادة في مفهومه ترتكز على نقاء السريرة، وتقوى الله عزّ وجل، والخشوع، والتمسّك باليقين[٢]، وليست، كما يعتقد البعض. بكثرة الصلاة والصوم، والتلاوة والذِكْر بقلب غير سليم.

والعبادة الحقّة، بنظر الثّوري، تتطلب الاكتفاء الذاتي، ولا تصلح مع الحاجة، وذلّ المسألة، ولا تطيب في التزام المساجد والاعتزال في الصوامع منتظرين هِبات المُحسنين، وعطاء المتصدقين، وإنما تصحّ بالعمل الشريف الذي يعتبر الخطوة الأولى في طريق العبادة النقيّة

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٧. «وهو أحد أئمة الإسلام وعبادهم المقتدى بهم»، ابن كثير، جـ ١٠، ص ١٣٤.

(٢) عرف الثّوري اليقين بقوله: «أن لا تتّهم مولاك في كل ما أصابك»، حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٩. وعن اليقين قال كذلك: «لو أن اليقين ثبت في القلب، لطار فرحاً، أو حزناً، أو شوقاً إلى الجنة، أو خوفاً من النار». أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٠.

الخالصة لله. لهذا قال: «إذا أردت أن تتعبد فأحرز الحنطة». ولما سأله يحيـىٰ بن يمان: يا أبا عبد الله، أين تطيب العبادة؟ قال: «حيث جوالق من خبز بدرهم، حتى لا يمدّ أحد عينه إلى أحد»(١).

والواضح؛ أن الثّوري أخذ يُجهِد نفسه بالعبادة وهو في مقتبل العمر، لذا اجتمعت بنو ثور عليه وهو شاب؛ يناشدونه مما كان فيه من العبادة ـ أي أقصر عن هذا ـ(٢) ولكنه لم يستجب لهم، واستمر في سيرته لأنه وجد في ذلك ضالّته المنشودة.

ولقد كان الثّوري رقيقاً في عبادته، وخاشعاً ذليلاً بين يدي الله عزّ وجل، ذكر عبد الرحمن بن مهدي؛ أنه ما عاشر في الناس رجلاً هو أرقّ من سفيان الثّوري، وكان يرمقه الليلة بعد الليلة، فما كان ينام إلاّ في أول الليل، ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ينادي: «النار النار شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات». كأنه يخاطب رجلاً في البيت(٣). ثم يتوضأ ويقول: «اللّهمّ إنك عالم بحاجتي غيرُ معلم بما أطلب، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار، اللّهمّ: إن الجزع قد أرّقني من الخوف فلم يؤمنّي، وكل هذا من نِعمتك السابغة عليّ، وكذلك فعلت بأوليائك وأهل طاعتك، إلّهي: قد علمت أن لو كان لي عذر في التخلّي ما أقمت مع الناس طَرفة عين». ثم يقبل على صلاته، وكان البكاء يمنعه من القراءة، حتى أنه كان من الصعب سماع قراءته من كثرة بكائه(٤).

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٦٠.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٧. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٦.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٠. صفة الصفوة، جـ ٣، ص ٩٨.

روى مُزاحم بن زُفَر قال: صلّى بنا سفيان الثّوري المغرب فقرأ حتى بلغ ﴿ **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** ﴾[1]، فبكى حتى انقطعت قراءته، ثم عاد فقرأ الحمد لله[2].

وعن عبادة الثّوري تحدّث أصحابه بأمور يعجز عنها سائر البشر، فذكر عبد الرزّاق حادثة تبيّن مدى تمسكه بالعبادة، وتحمّل نفسه أكثر من طاقتها، قال: «قَدِمَ علينا الثّوري صنعاء، فطبخت له قدر سكباج[3]، فأكل، ثم أتيته بزيت الطائف، فأكل ثم قال: يا عبد الرزّاق! اعلف الحمار وكُدّه، ثم قام يصلّي حتى الصباح»[4]. وأكل مرة تمراً بزُبْد، ثم قام يصلى حتى زالت الشمس[5].

إلى جانب ذلك، كان يثقل على أصحابه في العبادة، فكانوا يقابلون دعوته برحابة صدر، أو يعلّقون على قوله بنُكَت هادئة في شيء من الدعابة. حدّث سفيان بن عُيينة قال[6]: «دعانا سفيان فقَدّم إلينا غداء ولبناً خاثراً[7]، فلما توسطنا قال: قوموا بنا نصلّي ركعتين شكراً لله تعالى؛ قال ابن وكيع ـ وكان حاضَراً ـ: لو قدّم إلينا شيئاً من هذا

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٧.
(٣) السكباج: مرق يُعمَل من اللحم والخلّ.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٨. قابل ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٦.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٧.
(٦) ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٦.
(٧) خثر اللبن: ثخن واشتد فهو خاثر، أي نقيض الرقّة، لسان العرب، مادة خثر، جـ ٤، ص ٢٣٠.

اللوزينج(١) المحدّث لقال: قوموا بنا نصلّي التراويح»(٢).

كذلك كان يحثّ سائر الناس على العبادة ويلاحق الشباب منهم بصورة خاصة، وطالما دعاهم إلى الصلاة لأنها عماد الدين، فكان يقيمهم بالليل ويقول لهم: «قوموا يا شباب صلّوا ما دمتم شباباً»(٣). وقال أيضاً: «إذا لم تصلّوا اليوم فمتى؟»(٤). وكان يضرب المثل بنفسه ليكون قدوة لغيره، فذُكِرَ أنه طاف ذات ليلة فأكثر الطواف، ثم صلّى فأطال الصلاة، ثم اضطجع فقال أصحابه: هذه ضجعته حتى يصبح، فما كان إلّا قليلاً حتى هبّ من نومه، ومرة أخرى طاف بالبيت وصلّى خلف المقام ركعتين، ثم رفع رأسه إلى السماء، فانقلب مغشياً عليه، فعلّق أحدهم على ذلك بقوله: «ليس النظر قلّبه، إنما قلبته الفكرة»(٥). وقال شاهد عيان: «رأيت الثّوري في المسجد الحرام بعد المغرب، صلّى، ثم سجد سجدة، فلم يرفع رأسه حتى نودي بصلاة العشاء»(٦). وقال علي بن الفضيل: «رأيت سفيان ساجداً حول البيت فقطعت سبعة أسابيع(٧) قبل أن يرفع رأسه»(٨). وقال أبو عيسى الحواري: «رأيت

---

(١) اللوزينج: نوع من الحلواء شبه القطائق يُؤْدم بدهن اللوز، لسان العرب، مادة لوز، جـ ٥، ص ٤٠٨.

(٢) التراويح: سُمّيت صلاة التراويح لأنهم كانوا يستريحون بين كل تسليمتين، المصدر نفسه، رَوَحَ، جـ ٢، ص ٤٦٢.

(٣) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٦.

(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥٩.

(٥) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٧٥، جـ ٧، ص ١٧.

(٦) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٥٧. قابل أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٦.

(٧) الأسبوع هنا: الطواف الكامل حول الكعبة مرة واحدة، فالمراد أنه طاف سبعاً.

(٨) أحمد بن عبد الله الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ص ١٢٣، القاهرة: المطبعة الخيرية، ط ١، ١٣٢٢ هـ.

سفيان الثّوري يصلّي قائماً حتى تغلبه عيناه، ثم يصلّي قاعداً حتى يعيى فيضطجع فيصلّي مضطجعاً»[1]. وقال أبو يزيد المعني: «كان سفيان الثّوري إذا أصبح مدّ رجليه إلى الحائط، ورأسه إلى الأرض كي يرجع الدم إلى مكانه من قيام الليل»[2].

فهذه المقتطفات التي رواها أصحاب الثّوري تعطي صورة عن عبادة الرجل الذي بقي مخلصاً لربّه في السرّ وفي العلانية وبقي هذا دأبه حتى في أحلك الظروف الصحية التي كانت تلمّ به، قال عبد الله بن صالح العجلي: «رأيت سفيان الثّوري يوم الجمعة؛ وعليه كساء كذا وممطر[3] وهو راكب حمار فقلت لرجل يمشي جنبه: ما لسفيان اليوم راكب حماراً؟ قال: حُمّ اليوم فكره أن يترك الجمعة،فبعث إلى جار له فاستعار حماراً فركب»[4].

والواضح، أن الناس قد تأثروا بشخصية الثّوري، وبعبادته وتقواه، لهذا، راحوا يحيكون حوله الأمور التي يعجز عنها أبناء البشر، وقد لاحظ أحد أصحابه ذلك فقال له: «أرى الناس يقولون سفيان الثّوري، سفيان الثّوري، وأنت تنام الليل؟» فقال له: «اسكت، مِلاك هذا الأمر التقوى»[5].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥٩.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٥.
(٣) الممطرُ: ثوب من صوف يُلبَس في المطر يُتوقى به من المطر، لسان العرب، مادة مطر، جـ ٥، ص ١٧٩.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٣.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٨ ـ ٩. ابن الجوزي، صفة الصفوة؛ جـ ٣، ص ٩٧.

مهما يكن من أمر؛ فالحقيقة تُقال، وقد جاءت على لسان الثّوري نفسه، وذلك عندما تحدّث عن عبادته بوقائع لا تقبل الشك. قال إسحاق بن إبراهيم الحنيني: «كنّا في مجلس الثّوري وهو يسأل رجلاً رجلاً عمّا يصنع في ليله فيخبره، حتى دار على القوم، فقالوا: يا أبا عبد الله قد سألتنا فأخبرناك، فأخبرنا أنت كيف تصنع في ليلتك؟ فقال: لها عندي أول نومة تنام ما شاءت، لا أمنعها، فإذا استيقظت، فلا أُقيلها والله»[1].

٢ ـ زهد الثّوري وورعه:

أ ـ زهده، أقوال ومواقف:

لقد كان الإمام الثّوري إلى جانب علمه الغزير، وأهميته الفقهية، وعبادته وتقواه، كان مع ذلك، زاهداً ورعاً، بل هو أُستاذ خبير في هذا المجال، كما كان أستاذاً متبحّراً في علم الحديث وغيره، وقد طارت شُهرته بعد أن وضحت أمامه الطريق الذي كان عليه السلف الصالح.

والثابت؛ أنه لما قرّر الثّوري ممارسة الزهد الكامل والحقيقي، هجر الديار بمَن فيها، وقصد الحرمين الشريفين، ولما سأله أصحابه عن ذلك قال: «وجدتُ قلبي يصلحُ بين مكة والمدينة، مع قوم غُرباء، أصحاب صوف وعباء»[2]. وبعد أن بلغ الذروة في عالم الزهد، أصبح مرجعاً صالحاً يرجع إليه الزاهدون في الدنيا ليرشدهم إلى أفضل

---

(١) صفة الصفوة، جـ٣، ص ٩٨. أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٦٧.

(٢) الذهبي، أعلام النبلاء؛ جـ٧، ص ٢٦٩. قابل ابن سعد، جـ٦، ص ٣٧١. حلية الأولياء، جـ٧، ص ٦.

الأعمال فكان يقول لهم: «أفضل الأعمال الزهد في الدنيا»[1]، وعندما سُئِل ما الزهد في الدنيا؟ قال: «سقوط المنزلة»[2]، ثم أضاف: «الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وأول ذلك زهدك في نفسك»[3]. ثم عرف الزهد بقوله: «الزهد في الدنيا قصر الأمل، وليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء»[4]. لهذا عندما التقى رجلاً قد لبس الصوف قال له: «ليس عملك هذا من السُنّة»[5]، ولما سُئِلَ: أيكون الرجل زاهداً وله مال؟ قال: «نعم، إن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر»[6].

بعد ذلك يتحدث الثّوري عن الزهد فيقول: الزهد زهدان: زهدُ فريضة، وزهد نافلة. فالفرض: أن تدع الفخر والكِبَر والعلوّ، والرياء والسُّمعة، والتزيّن للناس. وأما زهد النافلة: فأن تدع ما أعطاك الله من الحلال، فإذا تركت شيئاً من ذلك، صار فريضة عليك ألاّ تتركه إلاّ لله[7].

وكان الثّوري يحثّ الناس على التحلّي بفضيلتي الزهد والورع؛ لأنهما الأساس الصحيح لمعرفة الحقيقة: لهذا سُمِعَ يقول لأحد أصحابه: «عليك بالزهد يُبصِرُكَ الله عورات الدنيا، وعليك بالورع يخفض الله عنك حسابك، ودع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك، وادفع الشك

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٦.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٦.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٦٩. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٣٦٨.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠١. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٦.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٣.
(٦) أحمد بن حنبل، الورع، ص ١١٢. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٧ - ٣٨٨.
(٧) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٤.

باليقين يسلم لك دينك»[1].

ويرى الثّوري؛ إن الزهد ليس في أن يُقصّر المرء على نفسه في المأكل والمشرب والملبَس، وإنما للزهد أهداف أبعد من ذلك أبرزها: البحث عن الحلال، ومخالطة الأبرار، والتلفّظ بكل جميل. ذكر وكيع بن الجرّاح، أنه رؤي الثّوري يأكل الطباهج[2] فعوتب في ذلك فقال[3]: «إني لم أنْهَكم عن الأكل، ولكن انظر من أين تأكل، وارتحل وانظر على مَن تدخل، وتكلم وانظر كيف تتكلم، كيف أنهاكم عن الأكل والله تعالى يقول: ﴿ **خُذوا زِينَتكم عند كُلِ مسجدٍ وكُلوا واشربوا** ﴾[4]؟. وأكد هذا الموقف أحد أصحاب الثّوري فقال: «كنّا عند سفيان الثّوري في بيته، فجاء بقدر فيه لحم ومرق فأكفاه[5] وصبّ عليه سمناً، فقلت: يا أبا عبد الله! أليس يُكرَه الخليطان؟ فقال: «كان يُكرَه لشدّة العيش»[6].

غير أن الثّوري لم يعمل دائماً وفق هذا المبدأ، ولكنه في مرّات عديدة كان يحرّم على نفسه لذيذ الطعام وبارد الشراب؛ حتى أنه استفّ الرمل ثلاثة أيام متتالية حينما كان مجاوراً بمكة، لأنه لم يستطع الحصول على الطعام الحلال الذي كان ينشده أينما حلّ، وقد آل على نفسه أن لا يملأ جوفه من طعام الشُبُهات.

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٠، ٨٣.
(٢) الطباهج: ضرب من قلي اللحم، لسان العرب، جـ ٢، ص ٣١٧.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٠.
(٤) سورة الأعراف، آية: ٣١.
(٥) كفا الإناء: ملأه ملأً مفرطاً.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٢.

قال زيد بن الحُباب: «نفذت نفقة سفيان الثّوري بمكة، فَقَدِمَ عليه رجل من قومه فقال له: لك معي عشرة دراهم، قال: من أين؟ قال: من غَزْل فلانة، قال: ائتني بها فإني منذ ثلاث استفّ الرمل»[1].

أما بالنسبة للطعام الذي كان يتناول هذا الإمام الزاهد؛ فالثابت أنه كان يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل حتى يضربه الجوع شغلاً عنه بما هو فيه من العبادة»[2]. ونقل السهروردي عنه أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن بلا زاد ويعتمد على السؤال في الطريق[3]. والواضح استناداً إلى روايات أصحابه الذين كانوا يدخلون عليه أنه شُوهِدَ وهو يأكل: الثريد[4]، والتمر بالزبد[5]، واللحم والمرق[6]، والرؤوس[7]، وسكباج وزيت الطائف[8]، والكعك[9]، والجبن[10]، واللبن الخاثر[11]، وطباهج ببيض[12]، وكان إذا أكل شيئاً أدخل يده في الرمل

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٣. راجع روايات أخرى في الحلية، جـ ٧، ص ٦٧. ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧٢.
(٢) الشعراني، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٥٢.
(٣) المنّاوي، الكواكب الدريّة، جـ ١، ص ١١٥.
(٤) أثر الخبز: فتّه ثم بلّه بالمرق، لسان العرب، جـ ٣، ص ١٠٢. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٩.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٣.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٢.
(٧) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، جـ ٣، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠. حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٩.
(٨) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٨. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٦.
(٩) ابن سعد، ص ٣٣٢.
(١٠) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٨ ـ ٤٩.
(١١) ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٦.
(١٢) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٧.

فدلكها، ولم يغسلها [1].

ومن أنواع الفاكهة والحلويات، تناول العنب والرمّان[2]، والرّطب[3]، والزبيب[4]، وخشكنانج[5]. ومن المشروبات أخذ: العسل بالماء[6]، والسُّوَيق بالسكّر[7].

وأما بالنسبة لموقفه من النبيذ؛ فلنا وقفة سريعة نعرض من خلالها بعض الآراء التي عالجت ذلك:

ذكر بعض أصحاب الثّوري أنهم سمعوه يقول: «مَن لم يأكل الجِرِّيّ[8]، ويمسح على الخُفّين، ويشرب النبيذ، فاتّهموه»[9]، ويوضّح يحيىٰ بن مُعين في تاريخه نوعية النبيذ الذي رخّص فيه أهل الكوفة، فيقول: «شريك وسفيان ووكيع، وكلُّ مَن رخّص فيه، كلهم يكرهون المُعَتّق من الكوفيين»[10]. ويعلّق عبد الرحمن بن مهدي على

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٦، ٦٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٨٩.
(٣) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٥.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٢.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٧. والخشكنان: دقيق الحنطة إذا عُجِنَ بشيرج، وبُسِطَ ومُلىء بالسكر واللوز والفستق وماء الورد، وجُمِع وخُبِز.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٧. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٧) الحلية، جـ ٦، ص ٣٨٩. والسُّويق: هو الناعم من دقيق الحنطة والشعير. لسان العرب، مادة سوق، جـ ١٠، ص ١٧٠.
(٨) الجِرِّي: ضرب من السمك النهري الطويل المعروف بالحنكليس، لسان العرب، مادة جرا، جـ ١٤، ص ١٤٣.
(٩) تاريخ ابن معين، جـ ٦، ص ٣٥١.
(١٠) جـ ٢، ص ٣٩٥.

ذلك ويشهد بأن سفيان إذا كان قد رخّص في شرب النبيذ ولكنه لم يأخذه هو فقال: «كان سفيان يرخّص في شرب النبيذ، وأشهد له لقد رأيته لا يأخذه، ووصف له دواء فقيل له نعمل لك نبيذ قال: لا ائتوني بعسل» [(١)].

إلى جانب ذلك تظهر آراء تذكر أن الثّوري كان يشرب النبيذ في أول الأمر ثم رجع عن ذلك، فقال الذهبي في أعلام النبلاء: «وهو ـ أي الثّوري ـ على مذهبُ بلده في النبيذ، ويقال: رجع عن ذلك» [(٢)]. وفي موضع آخر يصرّح الذهبي بأنه «مع جلالة سفيان، كان يُبيحُ النبيذ الذي كثيره مُسكِر» [(٣)]. ثم يورد قولاً ليعلى بن عبيد الذي سمع الثّوري يقول: «إنّي لآتي الدعوة، وما أشتهي النبيذ، فأشربه لكي يراني الناس» [(٤)]. وهذا يُظهِر أن الثّوري كان يرخّص أحياناً بشرب النبيذ، وأحياناً أخرى كان يشربه وذلك استناداً لقول ابن عبيد، ولكنه عاد وأقلع عن ذلك بشهادة بعض المؤرّخين. وأخيراً أقفل باب الجدل في هذا الموضوع وبرزت شهادة مالك الذي تحدّث عن وداعه للثّوري، ثم قال: «أما أنه قد فارقني على أن لا يشرب النبيذ» [(٥)]. وهذا يعني أنه قبل مناظرته لمالك كان يشربه. ولعلّ مالكاً يتحدّث عن وداعه الأخير للثّوري يوم غادر هذا الأخير مكة، متوجهاً إلى البصرة هرباً من عيون الخليفة المهدي، حينئذٍ يتوافق رأي مالك، وما أدلى به ابن مهدي، من رفض

(١) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧٢٣. حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٧.
(٢) جـ ٧، ص ٢٤١.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٩.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٦٠.
(٥) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧٢٢.

الثّوري للنبيذ في مرضه الذي ربما ألمّ به وهو في البصرة، وكان يلازمه آنذاك ابن مهدي الذي واكب نهايته يوماً بعد يوم.

وأما عن أقوال الثّوري في الشراب، فكان إذا سُئِلَ عن النبيذ قال: «كُلْ تيناً كُلْ عنباً»[1]. وقال: «كُلْ ما شئت ولا تشرب فإنك إذا لم تشرب لم يجِئْك النوم». وقال: «كان يكره شرب الماء على الرؤوس»[2].

وفي الطعام قال: «إن أردت أن يصحّ جسمك، ويقلّ نومك، فأقلل من الأكل». وقال في الصبر على الطعام: «صابروا الأغنياء في الطعام ما بين الشفة واللّهاة، فإنه إذا جاز ذلك لم يُعرَف ليّنه من خشنه»[3]. وكثيراً ما كان ينصح بأكل الخبيص[4]، فسمع يقول لرجل: «عليك بالخبيص الأبيض والأصفر فكُلْه، مُحرِماً كنت أو غير مُحرِم»[5].

وكان يقول لعياله: «لا تُلقوا نوى التمر والرُطَب وتعوّدوا ابتلاعه، فإن النوى يعقد الشحم في البطن، ويدفىء الكليتين بذلك الشحم». وقال أيضاً: «كلوا الباقلّاء بقشوره، فإن الباقلّاء يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومَن لم يأكلني بقشوري فأنا آكله؛ فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم، وأكلاً لما جُعِلَ أكلاً لكم»[6].

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٧٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ٧، ص ١٨، ٧٩.
(٣) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٧.
(٤) الخبيص: الحلواء المخبوصة، لسان العرب، جـ٧، ص ٢٠ ـ ٢١.
(٥) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٨٠.
(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ٣، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

وقال لأحد أصحابه ناصحاً إياه: «... ولا تمنعنّ نفسك من الحلاوة فإنه يزيد في الحلم، وعليك باللحم ولا تدُم عليه ولا تدعه أربعين يوماً فإنه يسيء خلقك، ولا تردّ الطيب فإنه يزيد في الدماغ، وعليك بالعدس فإنه يغزر الدموع، ويرقّ القلب.. وعليك بقلّة الأكل تملك سهر الليل، وعليك بالصوم فإنه يسدّ عنك باب الفجور، ويفتح عليك باب العبادة»(١). وكان يطّلع على أصحابه ويقول لهم: «إياكم والبطنة فإنها تقسّي القلب»(٢). وفي باب الطعام كانت للثّوري نصيحة لابنه تعتبر نموذجاً في أدب المائدة(٣).

وأما عن موقف الثّوري من اللباس، فيتّضح ذلك من خلال أقواله وأقوال أصحابه، وهي بمجملها تثبت أنه كان زاهداً في الملبَس كزهده في كل مباهج الحياة. فسُمِعَ يقول لأحد أصحابه: «عليك باللباس الخشن تجد حلاوة الإيمان»(٤). وكان يقول: «أنا مهوّن عليّ، لا أُبالي ما أكلت، ولا أُبالي ما لبست»(٥). وذُكِرَ أنه كان يكره الطيلسان الطرازي والثوب المروي وقال: «إنهما من ثياب المترفين»(٦). ونقل غير واحد،

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٧٨.
(٣) كان يقول لابنه: «إياك ونَهَم الصبيان وأخلاق النوائح، ودع عنك خبط الملاّحين والفَعَلَة، ونهش الأعراب والمَهَنَة، وكُلْ من بين يديك، فإن حظك الذي وقع صار إليك. واعلم أنه إذا كان في الطعام شيء طريف أو لقمة كريمة أو بضعة (القطعة من اللحم) شهية، فإنما ذلك للشيخ المعظّم والصبي المدلّل، ولست واحداً منها...» ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ ٣، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٨٥.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٥.
(٦) المصدر نفسه، ص ٩٥.

أن الثّوري كان مستكيناً في لباسه، عليه ثياب رثّة[1]، قال علي بن ثابت: «لو لقيت سفيان في طريق مكة، ومعك فلسان تريد أن تتصدّق بهما، وأنت لا تعرف سفيان ظننت أنك ستضعهما في يده[2]».

حدّث الحارث بن مسلم الرازي قال: «رأيت سفيان وعليه رداء من بين يديه إلى ثدييه، ومن خلفه لا يبلغ أليته»، وأكد ذلك عبد الرحمن بن مصعب فقال: «رأيت سفيان جالساً ملتحِفاً بردائه فلم يمسّ الأرض منه شيء»[3]. وذكر شاهد عيان؛ أنه رآه بمكة، وعليه إزار ورداء قد لوّنهما بمدر[4]، وخُفّان قد خيّطهما بخيوط شعر، وقلنسوة قد بلغ نصفها الوسخ، فقوّم جميع ما عليه درهماً ونصف[5].

ويُروى؛ أنه رآه مجمع التيمي وعليه إزار خلق، فدعا به ودفع إليه أربعة دراهم وقال له: «خذ هذا فاشترِ به إزاراً». وربما يكون قد قبل بهذا العرض، وإن كان يكره أخذ الهدية، لأنه شُوهِدَ ـ فيما بعد ـ في مكة يرتدي ثياباً جديدة!؟[6]. ورآه وكيع بن الجرّاح وهو يلبس الفرو، ويرتدي العباء[7]. وقيل إنه كان يكره لبس القلنسوة[8]، وكان إذا خلع

(١) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ ٣، ص ٩٧.
(٣) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٠، ١٠٥.
(٤) المدر: الطين، لسان العرب، جـ ٥، ص ١٦٢.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٥. قابل تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٢. صفة الصفوة، جـ ٣، ص ٩٧. الصفدي، جـ ١٥، ص ٢٨٠. الشعراني، جـ ١، ص ٥٣.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٧، ٤٢.
(٧) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٥.
(٨) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٧.

ثيابه طواها وهو يقول: «إذا طُويت، رجعتْ إليها نفسُها»[1].

كذلك زهد الثّوري في العمارة، وكان قد جعل على نفسه ثلاثة أشياء؛ فقال: «لا يطوى لي ثوب أبداً، ولا يُبنَى لي بيت أبداً، ولا أتخذ مملوكاً أبداً»[2]. وكان دائماً يردّد لا أُريد أن أضع لَبِنَة على لَبِنَة[3]؛ وقال: «ما أنفقت درهماً في بناء»[4].

وأما بالنسبة لموقف الثّوري من قضية الزواج فقد تضاربت الآراء حول ذلك؛ فأشارت بعض المصادر إلى أنه رفض الزواج وزهد فيه حتى أنه عوتب من قِبَل أصحابه لاتخاذه هذا الموقف المتزمّت، فقيل له: «أيّ شيء تكرهه في التزويج»؟ قال: «أخاف أن يكون لي ولد، لأنه لا يكاد يفلح صاحب عيال»[5]. وعن النساء قال: «مَن أحبّ، أفخاذ النساء لم يفلح»[6]. وقال: «ليس في الطعام ولا في النساء سرف»[7]. وعن الزواج والأولاد قال: «إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر، فإذا وُلِدَ له انكسر المركب»[8]. ولكنه سرعان ما يستدرك ويقول: «كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليّاً كرّم الله وجهه كان من أزهد الصحابة وكان له

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٦٧.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٢.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٩٠. المنّاوي، الكواكب الدريّة، جـ ١، ص ١١٦.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٤. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٧.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩١، ٩٥.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٢. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٨.
(٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ ٣، ص ٢٣٤.
(٨) المنّاوي، الكواكب الدريّة، جـ ١، ص ١١٦.

أربع نسوة وتسع عشرة سَرِيّة»[1].

مهمايكن من أمر؛ فقد ألحّ على سفيان رجل من إخوانه من أهل البصرة في التزويج فقال له: فزوّجني، وخرج سفيان إلى مكة، وأتى الرجل البصرة فخطب عليه امرأة من كبار أهل البصرة ممّن لها المال والشرف فأجابوه وهيّأت الحشم والمال حتى قَدِمَت مكة على سفيان، فأتى الرجل سفيان فقال له: أخطب عليك؟ فقال: مَن؟ قال: ابنة فلان. فقال: ما لي فيها حاجة، إنما سألتك أن تزوّجني امرأة مثلي، فرجع الرجل فأخبر أهلها، فقالت المرأة: فبأيّ شيء يكرهني؟ قال: المال، قالت: فإني أخرج من كل مال لي وأصبر معه، فعاد الرجل وأخبره، فقال: «لا حاجة لي فيها، امرأة نشأت في الخير ملكة لا تصبر على هذا» فأبى أن يقبلها، فرجعت إلى ذويها[2].

من جهة ثانية؛ فإن بعض المصادر تذكر أنه كان للثّوري زوجة، وقد أفصح عن ذلك وهو على فراش الموت، فروى أبو نعيم بسنده عن عبد الرحمن بن إسحاق الكناني أنه قال: كنت بعبادان وسفيان مُختَفٍ بالبصرة، فأرسل إليّ فجئت، فإذا هو في الموت، فأدخل يده تحت رأسه فأخرج كيساً، فرمى به إلى امرأة تتكلم خلف الستر فقال: «إن هذه المرأة تزوجتها، وبقي لها عندي من صداقها ثلاثون درهماً، فإن هي تركتها فكفّنّي بها، وإن لم تتركها فكفّنّي في ثيابي»[3].

---

(١) الشعراني، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٥٤. المنّاوي، المصدر السابق، جـ ١، ص ١١٧.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٠ ـ ٩١.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٢.

وذكر أبو نعيم أيضاً[1]؛ أنه كان له ولد اسمه محمد وقد بلغ عشر سنين، فأرسل إلى أبيه، وهو مجاور مكّة، رسالة شفاهية مع عصام خِير[2] فقال له: «اقرأ منّي السلام على أبي وقل له: أقدم فإني مشتاق إليه»، فلما وافى عصام مكة، قضى الطواف وصار إلى سفيان، وهو يحدّث الناس مجتمعين عليه، فلما نظر إلى عصام أنس إليه وكان يسأله حتى أدّى إليه ما قال فخالفوه، وما قال ابنه، فقام سفيان من المجلس، وطاف بالبيت وصلّى خلف المقام، وودّع البيت وخرج نحو الأبطح[3] والناس في طلبه فقال لخير: «يا عصام ردّ عنّي هؤلاء القوم فإنّي لا أُحدّثهم اليوم»، فما زال حتى صرف أصحاب الحديث عنه حتى خلا بوجهه، فقال له عصام: أين تمضي؟ قال: نحو المنزل إن شاء الله، فقال له: «بعد غدٍ التروية[4]، وبعده يوم الحج الأكبر، ويوم النحر وتمضي وتدعه، وهؤلاء الناس يأخذون عنك العلم، فيبقى لك أجر من عمل بشيء منه»، فقال: «أنا أعلم بهذا منك ولكن أتيتني بفرض واجب أن أقضيه وتأمرني أن أُقيم على نافلة وأضيع الفرض، وإني مشتاق إلى

(١) جـ ٧، ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٢) هو عصام بن يزيد بن عجلان أبو سعيد الملقّب بخير، صحب سفيان الثّوري ثلاث عشرة سنة، وكان رسوله إلى أمير المؤمنين المهدي، فعرض عليه المهدي برّاً وملاً فلم يقبل، ثم رجع من عنده إلى سفيان فقال له: لو أتيتهم؛ فقال سفيان: أتراني أخاف هوانهم؟ إنما أخاف كرامتهم. فلما مات سفيان رجع عصام إلى أصبهان وسكنها. الحلية، جـ ١٠، ص ٣٩٠.
(٣) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى. لسان العرب، جـ ٢، ص ٤١٣.
(٤) التروية: يوم قبل يوم عَرَفَة، وهو الثامن من ذي الحجة، وسُمّي به لأن الحجّاج يتروون فيه من الماء وينهضون إلى منى ولا ماء بها. لسان العرب، جـ ١٤، ص ٣٤٧.

ابني».

وقيل: إنه صلّى العيد بالكوفة ولقي ابنه بالمصلّى وقد بعثت به أمه إليه، فجاء، فجلس بين يديه فقال سفيان: ليت إني دُعيت لجنازتك، فما لبث حتى دفنه[1]. وكان له ولد اسمه سعيد فلما مات قال سفيان: «إن قرّة عيني مات فاسترحت»[2].

وذكر ابن سعد في طبقاته[3] أنه كان له ابن ـ لم يسمّيه ـ فكان سفيان يقول: «ما في الدنيا شيء أحبّ إليّ منه وإنّي لأحبّ أن أُقدّمه».

وهكذا كان الثّوري زاهداً صابراً يرضخ لمشية الله عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ **والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدّقوا وأولئك هم المتّقون** ﴾[4]. وكذلك سار على نهج رسول الله ﷺ حين قال: «إذا كان للمؤمن عشٌ كعشّ الطير وماء وخبز وملح فذلك من النعيم»[5]. لهذا كان سفيان يقول: «ازهد في الدنيا ونَمْ»[6].

انطلاقاً من هذا المبدأ زهد الثّوري في كل شيء، وحتى في الرياسة التي تُعدّ المعيار الأهم لمعرفة حقيقة الزهد، ومدى عمقه وتأصّله في قلوب الرجال، لهذا قال: «ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المال والثياب والمطعم، فإذا نُوزِعَ في

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٥. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٨.
(٢) الحلية، جـ ٦، ص ٣٨١. (٣) ص ٣٧٢.
(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٧.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥٢.
(٦) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

الرياسة، حامى عليها وعادى[1].

وبعد أن تكشفت لسفيان هذه الأمور وتجلّت فلسفته في الحياة، رفض مناصب السلطان، وارتضى الحياة الحرّة الكريمة، فذكر إبراهيم بن سعيد، أنه كان مع سفيان في المسجد الحرام فكوّم كومة من الحصا فاتكأ عليها، ثم قال: «يا إبراهيم هذا خير من أسّرتهم»[2].

لقد رفض الثّوري الدنيا والجاه والشُّهرة، وأخذ بالقليل من وسائل العيش ليكمل به مسيرته في حياته العلمية، وليؤدّي دوره كاملاً بين أبناء مجتمعه الذين كانوا بأمسّ الحاجة إليه، وهم يشكّلون رأس ماله الأوحد، لهذا لم يخف من الفقر، ولكنه خاف من الغنى والشُّهرة وفرّ منهما، فعندما خوّفه أصحابه من لفقر قال لهم: «بالفقر تخوفونني؛ إنما يخاف سفيان أن تصبّ عليه الدنيا صبّاً»[3].

ب ـ بين الزهد والعمل:

من الواضح، استناداً إلى ما ورد في المصادر؛ أنه كان للثّوري في زهده فلسفة خاصة، فهو لم يفهم الزهد ويمارسه ويرشد الناس إليه على أنه تواكل واستسلام، وتقاعس عن العمل، والاعتماد على هبات الناس وصدقاتهم. ولكنه فلسف الزهد على أنه جدٌّ وعمل، ومكابدة الحياة بالعمل الجادّ المثمر الذي يُكسِبه المال الحلال، فيُغنيه عن الطلب وذلّ السؤال، ويستعين به على طاعة ربه، وينفقه في سبيل الله

---

(١) ابن حنبل، الورع، ص ٥٩. أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٦٢.
(٢) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢١ ـ ٢٢.
(٣) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٤.

وعلى المساكين والمحتاجين وأبناء السبيل.

ويظهر أن الثّوري تنبّه لأهمية العمل؛ بعدما لاحظ أن بعض المتزهدين يعيشون عالة على فضلات المجتمع، وهذا الأمر يؤذي سُمعة الزهّاد العاملين، الذين يعتبرون قدوة لغيرهم في العبادة والعمل والصلاح. لهذا راح يحثّ الناس وبخاصة الزهّاد والعباد منهم على ممارسة العمل؛ لأنه ضروري للإنسان مهما كان وضعه الاجتماعي، وهذه هي البطولة الحقّة؛ لأنها تُكسِب المرء المال الحلال الذي ينفقه على عياله.

يقول الثّوري في هذا العدد: «عليك بعمل الأبطال، الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال»(١).

ولقد كان سفيان مهتمّاً بشؤون الناس؛ فكان يرشدهم ويعظهم ويأخذ بيدهم ليكونوا دائماً أعزّة بالله، فكان يحثّهم على العمل باليد واكتساب الرزق، وينهاهم عن أن يكونوا عالة على الناس.

رُوِيَ أنه دخل مرة وهو في البصرة على يوسف بن عبيد، فإذا فتيان كأن على رؤوسهم الطير فقال: «يا معشر القرّاء: ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق، واعملوا، ولا تكونوا عالة على الناس». فرفع يوسف رأسه إليهم فقال: «قوموا، فلا أعلم أحداً منكم جالسني حتى يتكسّب معاشه من وجهه». فتفرقوا، قال سفيان: «فوالله ما رأيتهم عنده بعدها»(٢). وكانت له أينما حلّ صرخته المدويّة فيقول: «أيّها الناس

---

(١) ابن حنبل الورع، ص ٨٤. تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٥. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨١.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٢.

عليكم بما عليه الحمّالون والنساء في البيوت، والصبيان في الكتاب، من الإقرار والعمل»[1].

والملاحظ أن سفيان لم يكن يوزع الحِكَم والمواعظ على الناس دون أن يكون هو قدوة لغيره ومثلاً يُحتَذى به، فقد سمع عبد الرحمن بن مهدي يقول: ربما كنّا مع سفيان فيقول: «النهار يذهب ونحن في غير عمل، ثم يقوم فزعاً فما نراه يومنا»[2].

وفي نظره أن العمل الشريف لا يقلّ أهمية عن العبادة ولا سيما إذا كان العامل صاحب عيال، وأقلّ تقصير منه في عمله ينعكس سلباً على الأوضاع المعيشية لأسرته. وكان كثيراً ما يُستفتَى في هذا الشأن فجيب على ذلك بكل صراحة. فعندما سُئل يوماً: ما تقول في رجل قصار[3] إذ كسب درهماً كان فيه ما يقوته ويقوت عياله، ولم يدرك الصلاة في جماعة، وإذ كسب أربع دوانق[4] أدرك الصلاة في جماعة ولم يكن فيه ما يقوته ويقوت عياله، أيّهما أفضل؟ قال: «يكسب الدرهم ويصلّي وحده»[5].

كذلك كان يوصي أصحابه، وأقرب الناس إليه بالعمل؛ حتى وإن نزلت بهم نوائب الدهر، فعندما كتب إليه أخوه مبارك بن سعيد يشكو إليه ذهاب بصره، فكتب إليه: «أما بعد، فأحسن القيام على عيالك، وليكن

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٠.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٤. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٤.
(٣) القصار: المحور للثياب لأنه يدقّها بالقصرة التي هي القطعة من الخشب.
لسان العرب، قصر، جـ ٥، ص ١٠٤.
(٤) الدانق: سدس الدرهم، والكلمة فارسية.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٦ ـ ١٧. الشعراني، جـ ١، ص ٥٤.

ذكر الموت في بالك والسلام»[1].

وكان في وصاياه يحثّ الناس على العمل الشريف والكسب الطيب، فقال لعلي بن الحسن فيما يوصيه:

«يا أخي: عليك بالكسب الطيب، وما تكسب بيدك، وإيّاك وأوساخ (صدقات) الناس أن تأكله، أو تلبسه... فالذي يأكل أوساخ الناس، هو يتكلم بهوى، ويتواضع للناس مخافة أن يمسكوا عنه، ويا أخي؟ إن تناولت من الناس شيئاً قطعت لسانك، وأكرمت بعض الناس، وأهنت بعضهم... فإن الذي يعطيك شيئاً من ماله، فإنما هو وسخه وتفسير وسخه، تطهير عمله من الذنوب، وإن أنت تناولت من الناس شيئاً، إن دعوك إلى منكر أجبتهم...

يا أخي: جوع، وقليل من العبادة، خير من أن تشبع من أوساخ الناس، وكثير من العبادة. وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال:

«لو أن أحدكم أخذ حبلاً ثم احتطب حتى يدبر (يبلى) ظهره كان خيراً له من أن يقوم على رأس أخيه يسأله أو يرجوه»[2].

من هذا المنطلق؛ كان لا بدّ للثّوري من أن يعمل، ولا بدّ له كذلك من الحصول على المال الحلال لينفقه في وجهه الصحيح، وأحياناً يحتفظ ببعضه لوقت حاجته حتى لا يحتاج إلى أحد أو يذلّ نفسه لمخلوق. لهذا عندما كان يمسك بيده بعض الدنانير فقال له أحدهم مُعاتباً: «يا أبا عبد الله! تمسك هذه الدنانير!؟» فقال: «اسكُت، لولا

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٧١.

هذه الدنانير لتمندل بنا هؤلاء الملوك»[1]. ثم التفت إلى جلسائه وأعطاهم حكمة شيخ مجرّب فقال: «لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عزّ وجل عليها أحبّ إليّ من أن أحتاج إلى الناس»[2]. ثم بيّن لهم أن المال والعمل ينجيان المرء من التذلّل لأصحاب الشأن، ويحفظان له عزّته وكرامته التي ينبغي أن يتحلى بهما كل إنسان شريف ويأتي في الطليعة جمهرة العلماء والفقهاء والزهّاد العاملين، لهذا قال: «إن عامّة مَن دخل على هؤلاء ـ يعني السلاطين ـ إنما دفعهم إلى ذلك العيال والحاجة»[3].

وأخيراً ختم الثّوري درسه عن المال والعمل بأن حرّك ما في يده من دنانير وقال لأصحابه: «مَن كان في يده من هذا شيء فليصلحه، فإنه زمان مَن احتاج كان أول ما يبذله دينه»[4]. وأضاف قائلاً: «كان المال فيما مضى يُكره، فأما اليوم، فهو تُرس المؤمن»[5].

ولقد وجد الثّوري أن أنجع السبل لتأمين المال الحلال هو ممارسة التجارة التي دعا إليها الإسلام وامتهنها الرسول الكريم ﷺ. فذكر أنه كانت لسفيان بضاعة مع بعض إخوانه، وعندما عوتب في ذلك قال: «ما كانت العدّة ـ أي المال المُعدّ ـ في زمان أصلح منها في هذا الزمان[6].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨١. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤١.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٠. الشعراني، جـ ١، ص ٥٣.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨١.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٨١. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٩.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤١.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

إلى جانب ذلك سافر الثّوري بنفسه مُتاجراً[1] ولم يعبأ بالبعض عندما عابوا عليه ذلك.

فرُوِيَ أنه لما سافر إلى اليمن مُتاجراً، وقضى مأربه، وعاد منها. فقصده بعض أصحابه ومن بينهم سفيان بن عُيينة، فسلّم عليه، فردّ وهو متكىء على عصاه، فقال ابن عُيينة: يا أبا عبد الله عاب الناس عليك خروجك إلى اليمن، فقال: «عابوا غير معيب، طلب الحلال شديد، خرجت أُريده»[2]. ثم أردف قائلاً: «لولا بضاعتنا لتلاعب بنا هؤلاء»[3] يعني الحكّام والملوك.

مهما يكن من أمر؛ فالثابت وفق ما جاء في المصادر؛ أن الثّوري كان تاجراً على النسق الإسلامي الأصيل، فكان يفرّق ما عنده من مال على قوم من إخوانه يبضعون له به، ويوافي الموسم في كل عام فيلقاهم ويحاسبهم ويأخذ ما ربحوا، وكان بيده نحواً من مائتي دينار وفق رواية ابن سعد في طبقاته[4]. ولكن صاحب كتاب الورع ينفي ذلك عنه، فعندما قيل لأحمد بن حنبل: كانت له مائة دينار قال: «أما سبعون فصحيحة»[5].

---

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ ٦، ص ٣٥٨. ابن حنبل الورع، ص ١٣، قيل إنه سار إلى اليمن بأربعة آلاف مضاربة فأنفق الربح. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٧. والمضاربة: أن تعطي إنساناً من مالك ما يتجر فيه، على أن يكون الربح بينكما.

(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٨٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٥٨.

(٤) جـ ٦، ص ٣٧٢.

(٥) الورع، ص ١٣.

وإلى جانب التجارة التي كان يمارسها الثّوري بنفسه، أو تكليفه لبعض أصحابه بالمتاجرة له لقاء ربح معلوم، فالواضح؛ أنه كان يتعاطى أعمالاً شريفة أخرى؛ فذُكِرَ أنه كان يؤجّر نفسه لحفظ ثمار بعض البساتين[1]، ولما قصد خُراسان في حق له، فأجر نفسه من جمّالين[2]. وكان خلال قيامه بعمله يلاقي أحياناً الذلّ والهوان، قال أحمد بن عبد الله العجلي: أجر سفيان نفسه من جمّال إلى مكة، فأمروه أن يعمل لهم خُبز، فلم يُحسِن خبزهُ، فضربه الجمّال، فلما قَدِموا مكة، دخل الجمّال المسجد الحرام، فإذا سفيان قد اجتمع حوله الناس. فسأل؟ فقالوا: هذا سفيان الثّوري، فلما انفضّ عنه الناس، تقدّم الجمّال إليه، وقال: لم نعرفك يا أبا عبد الله. قال: مَن يفسد طعامَ الناس يصيبه أكثر من ذلك[3].

ولقد تحمّل الثّوري كل ذلك من أجل الحصول على المال الحلال، وكان إذا أبطأت عليه بضاعته أو تعطّل عن العمل ينقض جذوع بيته فيبيعها، فإذا رجعت بضاعته أعادها[4]. وظل هذا شأنه طوال حياته حتى أصبح عَلَماً في الزهد والورع.

جـ - ورعه:

وكما كان الثّوري رائداً في علمه وفقهه وعبادته وزهده، فقد كان

(١) ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٨.
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٩.
(٣) تاريخ الثقات، ص ١٩١. وأعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٩.

بشهادة ابن حبّان، مواظباً على الورع[1]، بل كان إماماً في الورع يقتدي به الأئمة والفقهاء والزهّاد المُعاصرين؛ فعندما قيل للفضيل بن عياض: في بعض ما كان يذهب إليه في الورع: مَن إمامك في هذا؟ قال: «سفيان الثّوري»[2]. ولما سُئِلَ شُعبة بن الحجّاج عن ورع سفيان قال: «إن الثّوري سادَ الناس بالورع والعلم»[3].

ولقد عَرفَ الثّوري الورع، الذي هو أول طريق الزهد[4]، بقوله: «الورع ملاك الدين، واستكمال الآخرة»[5]، وهو من فيض النفوس الكبيرة العامرة بالصبر والإيمان والتقوى؛ لذا لا يملكه المرء إلا بعد جهد كبير قائم على مصارعة الحياة وترك الشهوات والبُعد عن الشُبهات، وللوصول إليه لا بدّ من الانصهار في التأمّل والصمت الطويل، لهذا كان الثّوري يوصي أحد أصحابه بقوله: «عليك بطول الصمت تملك الورع»[6].

ولكن الثّوري سرعان ما يستدرك الأمر، فيصرّح بأن أهل العلم والورع أصبحوا قلّة في هذا الزمان، لذلك كان يتأسف على

---

(١) محمد بن حبّان، كتاب مشاهير الأمصار، ص ١٧٠، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩/١٩٥٩.
(٢) حلية الأولياء؛ جـ ٧، ص ٣.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٢. ابن كثير، جـ ١٠، ص ١٣٤ ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٤. السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ٩٦.
(٤) أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوّف، ص ٥٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٥٧.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٤.
(٦) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٨٥.

فقدانهم، ويقول: «ما خالفت رجلاً في هواه؛ إلا وجدته يغلي عليّ. ذهب أهل العلم والورع»[1].

ويتجلى ورع سفيان؛ من خلال موقفه من هدايا الأصحاب ورفضه إياها، وهو على علم بأنها من المال الحلال، ولقد عبّر عن مبدئه عندما قال: «كان أقوام يدعون إلى الحلال فلا يقبلونه ويقولون: نخاف منه على أنفسنا»[2].

ولقد طبّق الثّوري هذا المبدأ من خلال تعامله مع الناس، فأوردت المصادر[3] قصة عن أخيه مبارك تشهد أن الثّوري كان آية في الورع والترفّع عن الشُبُهات. قال: جاء رجل إلى سفيان ببدرة[4]؛ وكان أبو ذلك الرجل صديقاً لسفيان، وكان سفيان يأتيه، فيقيل عنده، فقال: «يا أبا عبد الله، في نفسك من أبي شيء؟» فأثنى عليه وقال: «رحم الله أباك» وذكر من فضله، فقال له: «يا أبا عبد الله، قد عرفت كيف صار إليّ هذا المال، وأنا أحبّ أن تقبل هذا الذي جئتك به تستعين به على عيالك»، قال: فقبله منه وقام الرجل، فلما كاد أن يخرج قال لي: «يا مبارك الحقه فردّه عليّ»، قال: فلحقته فرددته، فقال له: «يا ابن أخي أحبّ أن تقبل هذا المال»، فقال: «يا أبا عبد، في نفسك منه شيء؟» قال: «لا! ولكن أُحبّ أن تأخذه»، فلم يزل به حتى أخذه. قال مبارك: فلما خرج، جئت وقد داخلني ما لا أملك، فقعدت بين يديه، فقلت:

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٩.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ١٠.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦١. قابل الحلية، جـ ٧، ص ٣ ـ ٤.
(٤) هي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم. لسان العرب، بدر، جـ ٤، ص ٤٩.

«ويحك يا أخي! أي شيء قلبك هذا؟ حجارة؟ عد أن ليس لك عيال، أما ترحمني؟ أما ترحم إخوانك، أما ترحم عيالنا وعيالك؟ قال: فأكثرت عليه، فقال: «الله يا مبارك، تأكلها أنت هنيئاً مريئاً، وأسأل أنا عنها؟ لا يكون هذا أبداً».

ورُوِيَ أنه أتى سفيان رجل فقال له: «إني مررت بفلان فأعطاني صُرّة فيها ألف دينار أعطيك إياها. قال: يقول لك سفيان فمررت بأُختي فأعطتك شيئاً من دقيق؟ قال: نعم، قال: فأتني بصُرّة الدقيق وردّ صرّة الدنانير، قال: فكان يختبز منها أقراصاً ويأكل»[1].

وحدّث مبارك بن سعيد قال: أُهدي إلى سفيان خوان خبيص فحبسه إلى العشي، قال: فجئت فقلت له: إن العيال قد تشوقوا له، فقال: «إني لأتذكّر كم حقّ فيه»[2].

وجاء سفيان إلى صيرفي بمكة يشتري منه دراهم بدينار، فأعطاه الدينار، وكان معه آخر فسقط من سفيان، فطلبه فإذا إلى جانبه دينار آخر، فقال له الصيرفي: خذ دينارك، قال: ما أعرفه، قال: خذ الناقص، قال: فلعله الزائد، وتركه ومضى[3].

هكذا عاش الثّوري زاهداً ورعاً قانعاً بالحلال من الدنيا ليُكمِل مسيرته في الحياة؛ نظيف اليد، خفيف الوطأة، كثير العبادة والتلاوة والذِكْر، وهو يرى أن العبادة الحقّة، هي الورع وطلب الحلال، لهذا كان يقول للذين يتزاحمون للصلاة في الصف الأول: «انظر درهمك من

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠١.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٦.
(٣) ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٢٨٧.

أين هو وصلٌ في الصف الآخر»[1]. لهذه الصفات النبيلة التي كان يتحلّى بها سفيان ولهذه السيرة الحسنة استحق ما شرّفه فيه قُتيبة بن سعيد إذ قال: «لولا الثّوري، لمات الورع»[2].

٣ ـ تواضعه وحُسْن أدبه:

على الرغم من المكانة الرفيعة التي تبوأها الثّوري بين معاصريه؛ فقد عُرِفَ بتواضعه وحُسْن أدبه، وكان دائماً يدعو إلى ذلك فيقول: «حُسْن الأدب يطفىء غضب الربّ»[3]، فكلّ شيء في شُرعة الثّوري يُكسِب المرء الأجْر والثواب، وكلّ الصفات الكريمة، والأعمال الإنسانية؛ تشكّل صلة الوصل بين الله وعباده.

والواضح؛ من خلال مواقف الثّوري وأقوال أصحابه فيه، أنه كان ينشد خفض الجناح والتواضع والفرار من الناس. قال خلف بن تميم: رأيت سفيان الثّوري بمكة، وقد كثر عليه أصحاب الحديث فقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أخاف أن يكون الله قد ضيّع هذه الأمة، حيث احتاج الناس إلى مثلي»[4]. ومن تواضعه، أنه لم يكن يحبّ الشُّهرة، وإنما يفرّ منها هنا وهناك، فكان يقول: «أُحبّ أن أكون في موضع لا أُعرَف ولا أُستَذل»[5].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٨. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٢٨٧.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٦. حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٠. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٢. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٠.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٩.
(٤) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٨. الشعراني، جـ ١، ص ٥٤.

ويذكر علي بن ثابت عن الثّوري، أنه لم يكن ينشد الظهور، ولم يتصدّر المجالس يوماً من الأيام، فقال فيه: «ما رأيت سفيان يقعد في صدر مجلس قطُّ، إنما كان يقعد إلى جانب حائط، ويجمع ما بين ركبتيه»[1].

وكان الثّوري يحبّ التواضع في كل شيء حتى في العبادة؛ لأنها لله وحده، وليس للمباهاة والمفاخرة، ولفت أنظار الناس، وإنما يجب أن تكون في الخلوة بعيدة عن أنظار الناس. من ذلك ما ذكره أحد أصحابه، قال أبو شهاب: كنت مع سفيان الثّوري في المسجد، فقمت، فصلّيت ركعة، فالتفت إلى سفيان فقال: «يا أبا شهاب ما أجرأك! تصلّي والناس ينظرون إليك»[2].

إلى جانب ذلك؛ كان يتميز الثّوري بمكارم أخلاقه، وحُسْن تعامله مع الناس، واعترافه بجميلهم عليه. نستشفّ ذلك من خلال قوله: «إني لأُريد شرب الماء فيسبقني الرجل إلى الشربة فيسقينيها، فكأنما دقّ ضلعاً من أضلاعي، لا أقدر له على مكافأة بفعله»[3]، وكان لا يحبّ أن يجرح شعور الآخرين بأفعاله، ولطالما نصح أصحابه بذلك فقال لأحدهم: «إذا اشتريت شيئاً لا تريد أن تُنِيل جارك منه فوارِه»[4].

فهذا جانب من أقوال الثّوري وحكمه، وأما عن تصرفاته التي تعطي صورة عن سلوكيته وإجلاله وتقديره لإخوانه العلماء، فقد أمدّنا الشيرازي؛ بقصة تُظهِر أنه كان آية في التواضع واحترام الآخرين،

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١٧.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٩٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٩٣.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٦٦.

فعندما بلغه مَقدَم الإمام الأوزاعي إلى مكة، خرج حتى لقيَه بذي طُوى[1]؛ فحلّ رأس البعير عن القطار[2]، ووضعه على رقبته، فكان إذا مرّ بجماعة قال: «الطريق للشيخ»[3]. وقال سلمة بن كلثوم: «جاء سفيان الثّوري، فدخل على الأوزاعي، فجلسا من الأولى إلى العصر، قد أطرق كل واحد منهما توقيراً لصاحبه»[4].

وعن مشاركته في المناسبات الاجتماعية، وشعوره المرهف تجاه الآخرين، ما ذكره يحيىٰ بن يمان قال: «كثيراً ما كنت أرى سفيان مقنّع الرأس يشتد في جنازة العبد والأمة»[5]. وكان دائماً يتحسّس آلام الناس، ويتحمّس للدفاع عن مظلومهم؛ لأن الناس جميعاً إخوة في الدين والإنسانية، فذكر أنه تناول مبارك بن سعيد مملوكاً لهم، كان لسفيان فيه نصيب، فقال: «أتضرب المملوك؟! نصيبي منه لك، لا تعودنّ فيه»[6].

٤ ـ موقفه من أهل البِدَع:

لقد كان الثّوري معنيّاً بالمحافظة على أمور الشرع، وتنقية الدين من كل دخيل من شأنه أن يثلم عُرى الإسلام، لهذا كانت له مواقف

---

(١) ذي طوى: موضع عند باب مكة يستحبّ لمَن دخل مكة أن يغتسل به، لسان العرب، جـ ١٥، ص ٢١.
(٢) القطار: أن تُقطَر الإبل بعضها إلى بعض على نسق واحد، المصدر نفسه، جـ ٥، ص ١٠٧.
(٣) طبقات الفقهاء، ص ٧٦.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٤.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥٦.
(٦) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٣.

متصلبة إزاء أهل البِدَع، الذين حادوا عن جوهر الدين، وعن المبادىء النبوية الشريفة، وفلسفوا الأمور الدينية وفق هواهم ومصالحهم الخاصة، الأمر الذي حدا به للوقوف في وجههم بعناد، وأعلنها حرباً لا هوادة فيها لأن ذلك من أولى واجباته؛ بصفته أحد رجال الدين، ومن الفقهاء الزاهدين الذين كرّسوا أنفسهم للمحافظة على رونق الإسلام ونقائه.

انطلاقاً من مبادئه هذه، أعلنها صرخة مدويّة سمعها روّاد مجالسه العامرة بالأحاديث النبوية، والمواعظ الحسنة، والحِكَم البليغة. فقال: «البِدْعة أحبّ إلى إبليس من المعصية، المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها»(١). وأوصى الناس بالابتعاد عن أهل البِدَع فقال لهم: «مَن أصغى بسمعه إلى صاحب بِدْعة، وهو يعلم، خرج من عِصمة الله، ووكّل إلى نفسه»(٢)، ثم نبّه أصحابه إلى عدم رواية البدعة حتى لا يأثموا فيها، ويتحمّلوا وِزرها، فقال: «مَن سمع بِدعة فلا يحكِها لجلسائه، لا يُلقِها في قلوبهم»(٣).

والملاحظ؛ أن الثّوري لم يقف عند هذا الحد؛ من ذكره للمواعظ والحِكَم التي تنال من أهل البِدَع، ولكنه انتقال إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ، فعندما رأى رجلاً يرتدي ثياباً صوفية قال له: «لباسك هذا بِدعة». ولما جاء إلى مجلسه رجل عليه قلنسوة شاشيّة؛ رفض أن يحدّثه(٤). ويؤكد ذلك ما رواه وهب بن إسماعيل الأسدي فقال:

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٢٦.
(٢) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٦١.
(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣٤.
(٤) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٣٣، ٣٧.

كنّا عند سفيان الثّوري فجاء رجل فسأله عن مسألة، وعلى رأسه قلنسوة سوداء، فنظر إليه فأعرض عنه، ثم سأله ثانية، فنظر إليه فأعرض عنه، فقال له: يا أبا عبد الله! يسألك الناس فتجيبهم، وأسألك فتنظر إليّ ثم تعرض عنّي؟ فقال: هذا الذي تسألني أيّ شيء تريد به؟ قال: السُنّة. قال: «فهذا الذي على رأسك أيّ شيء هو من السُنّة؟ هذه سُنّة سنّها رجل سوء يُقال له أبو مسلم لا تستنّ بسنّته». قال: فنزع الرجل قلنسوته فوضعها ثم لبث قليلاً ثم قام فذهب[1].

كذلك كان موقفه حازماً من أهل البِدَع، فعندما كان يُستفتى في أمرهم، كان رأيه فيهم واضحاً، ولا يقبل التأويل أو الجدل. قال له رجل مُسِنٌّ: «على بابي مسجد إمامه صاحب بِدعة»، قال: «لا تصلِّ خلفه»، قال: «تكون الليلة المطيرة وأنا شيخ كبير»، قال: «لا تصلِّ خلفه»[2].

أ ـ موقفه من المرجئة:

لقد حدّد الثّوري المرجئة بقوله: «مَن كره أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، فهو عندنا مُرجىء ـ يمدّ بها صوته»[3]. ثم حدّد نقاط الاختلاف مع هذه الفرقة فقال: «خالفتنا المُرجئة في ثلاث: نحن نقول الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: الإيمان قول بلا عمل، ونحن نقول: يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ونحن مؤمنون بالإقرار، وهم مؤمنون عند الله»[4].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٨.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٣٣.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٩. قابل الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٢، ٢٧٣. والصفدي، جـ ١٥، ص ٢٧٩.

وكان يحثّ أصحابه على الابتعاد عن الإرجاء والقدرية، لأنهم هتكوا حُرمة الدين، واستحلّوا المحرّمات، فسُمِع يقول: «أرجِ كل شيء مما لا تعلم إلى الله، ولا تكن مرجئياً، واعلم أن ما أصابك من الله، لا تكن قدرياً». وقال أيضاً: «لقد تركت المرجئة هذا الدين أرقّ من السابري»[١].

ومن خلال تجاربه في الحياة وجد في الإرجاء بُعداً عن الدين ومخالفة لما جاء في القرآن الكريم، فقال: «ليس أحد أبعد من كتاب الله من المرجئة»، لهذا كان ينصح الناس بعدم الصلاة خلف الإمام إذا كان مرجئياً، فعندما سأله أحدهم: أأصلّي خلف مَن يقول: الإيمان قول بلا عمل؟ قال: «لا ولا كرامة»[٢].

وكان الثّوري يطبّق القول بالفعل، فكان لا يصلّي على جنازة إذا كان صاحبها مرجئياً، قال شاهد عيان: مات عبد العزيز بن أبي روّاد، وكنت في جنازته حتى وُضِع عند باب الصفا، فصفّ الناس وجاء الثّوري، فقال الناس: «جاء الثّوري، جاء الثّوري». حتى خرق الصفوف والناس ينظرون إليه، فجاوز الجنازة ولم يصلّ عليه لأنه كان يُرمَى بالإرجاء[٣]. وكأن الثّوري بعمله هذا أراد أن يلقّن الناس درساً لا ينسوه أبداً، فهو يدعوهم لمقاطعة المرجئة أحياءً وأمواتاً، وهو أيضاً يعِظهم ويرشدهم ويخوِّفهم من التعامل معهم. وبعمله هذا يؤكد لهم نبذه إيّاهم دون خوف أو تردّد لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وذكر ابن أبي حاتم أنّه

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٣، السابري من الثياب: الرقاق، وكل رقيق: سابري ـ لسان العرب، سبر، جـ ٤، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧، ٢٩.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٩. قابل أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٣.

لم يكتب الحديث عن جواب التيمي لأنه كان مرجئاً[1].

ب ـ موقفه من الجهمية والقدرية والمعتزلة:

كذلك كان الثّوري شديداً في معاملته للجهمية[2] والقدرية[3] الذين اتّهمهم بالخروج عن مبادىء الدين وقد شاطره رأيه هذا تلميذه وخاصته الإمام عبد الله بن المبارك الذي قال: سمعت سفيان الثّوري يقول: «الجهمية كفّار[4]، والقدرية كفّار». فقيل لابن المبارك: فما رأيك؟ فقال: رأيي رأي سفيان[5].

وإذا كان الثّوري وابن المبارك قد التقيا في تكفير الجهمية والقدرية، فإننا نجد اختلافاً بيّناً في المواقف إزاء المعتزلة بزعامة عمرو بن عبيد الذي كان في أول عهده يُجالس الحسن البصري (ت ١١٠/٧٢٨)، واشتهر بصحبته حتى أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السُنّة، وقال بالقدر ودعا إليه واعتزل أصحاب الحديث، ولذلك كان ابن المبارك ينهى الناس عن الأخذ عنه[6]، في حين كان الثّوري يصحب عمرو بن عبيد مما جعل أصحابه يتخوّفون عليه منه

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨١.

(٢) عن الجهمية قال أحمد بن حنبل: «افترقت الجهمية ثلاث فِرَق، فرقة قالوا: القرآن مخلوق، وفرقة وقفوا فسكتوا، وفرقة قالوا: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة فينا»، الورع، ص ٥٦.

(٣) القدرية: هم قوم يجحدون القدر. لسان العرب، جـ ٥، ص ٧٥.

(٤) الصفدي، جـ ١٥، ص ٢٧٩.

(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص ٧٩.

وراحوا يناقشون هذا لأمر. فقال أيوب لعبد الواحد بن زيد: قل للثّوري لا تصحب عمرو بن عبيد، قال: قلت ذلك له، فقال لي: «إني أجد عنده أشياء لا أجدها عند غيره»، فقال أيّوب: «مـن تلك الأشياء أخاف عليه»[1].

مهما يكن من أمر؛ فإن الثّوري لم يكن لينجو من ألسنة الناس وتحرّشهم به، واستفزازهم إياه بغية النيل منه، وتقليص سلطته الروحية التي يمارسها ضدّ العابثين بجوهر الدين. الأمر الذي دفع أحد المتّهمين في دينهم لأن يقول له: أنت قدري؟! فقال سفيان: «إن كنت قدريّـاً فأنا رجل سوء، وإلّا فأنت في حلٍّ»[2]. وعندما أخذ بيد ثور بن يزيد[3] فأدخله حانوتاً بمكة ليحدّثه قال له أحدهم: «أخذك بيد هذا وإدخالك الدكان بدعة»[4]. وعلى الرغم من ذلك، ظلّ سفيان صابراً كاظماً للغيظ مُرابطاً ضدّ أهل الكفر، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا يبغي أجراً على عمله إلّا مرضاة الله وضميره.

جـ - موقفه من الشيعة والسُنّة:

كان الثّوري يدعو إلى توحيد الصفوف، وجمع ذات البَيْن، لأن الاضطرابات التي تعمّ البلاد بسبب الصراع المذهبي؛ تؤدّي بالنتيجة إلى إضعاف الإسلام. فكان يقول: «إذا كنت في الشام فاذكر مناقب

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٣.
(٢) المصدر نفسه، المكان نفسه.
(٣) ذكره العجلي في تاريخ الثقات، ولكنه كان يرى القدر، ص ٩٢، وعنه أيضاً طبقات الحفّاظ للسيوطي، ص ٨٤.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٣٣.

عليّ، وإذا كنت بالكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر»(١). كذلك سعى في التقريب بين مُحبّي علي ومُحبّي عثمان فسُمِع يقول: «لا يجتمع حبّ علي وعثمان إلا في قلوب نبلاء الرجال»(٢).

ويسبب هذا المسعى الخيّر الذي كان يقوم به بين أبناء مجتمعه، أحبّه الناس كبيرهم وصغيرهم، عالِمهم وجاهِلهم، فراح العلماء يتحدثون عنه في مجالسهم، معدّدين مناقبه وذاكرين فضائله، من ذلك ما حدّث به شعيب بن حرب إذ قال: «ذكروا سفيان الثّوري عند عاصم بن محمد؛ فذكروا مناقبه حتى عدّوا خمس عشرة منقبة، فقال: فرغتم؟ إنّي لأعرف فيه فضيلة أفضل من هذه كلها، سلامة صدره لأصحاب محمد ﷺ»(٣).

إن جميع هذه المواقف تثبت أن الثّوري لم يكن محدّثاً أو حافظاً أو واعظاً فحسب، وإنما كان إماماً فقيهاً مجتهداً، الأمر الذي أهّله لأن يصبح صاحب مذهب فقهي متبوع(٤). فذكره النووي في تهذيبه فقال: «وهو أحد أصحاب المذاهب الستّة المتبوعة»(٥). ويقال إن الشيخ أبا القاسم الجنيد كان على مذهبه(٦) وقد استمر مقلّدوه يسلكون نهجه حتى القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد وكانوا يُعرَفون بالسفيانيين. ومما يؤكد ذلك، ما ذكرته بعض المصادر، ومفاده أنه في

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧.
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٣.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٧.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب، جـ ٢، ص ٢٥١.
(٥) ص ٢٨٨، قال العجلي في تاريخ الثقات: «كان الثّوري صاحب سُنّة وأتباع»، ص ١٩٢.
(٦) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٨٦.

سنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤ م توفي آخر مَن أفتى بجامع المنصور في بغداد على مذهب الثّوري، وهو عبد الغفّار الدينوري[١].

إن هذه الأمور الهامّة تقودنا للبحث في عقيدة الثّوري الذي ذكرت عنه بعض المصادر على أنه من الشيعة[٢]. وقال الذهبي: «فيه تشيّع يسير»[٣]. وقال ابن النديم والأصفهاني: «أنه كان من الزيدية»[٤]. وقال أبو بكر بن عِياش: «كان سفيان ينكر على مَن يقدّم على أبي بكر وعُمر أحداً من الصحابة، إلا أنه كان يقدّم عليّاً على عثمان»[٥]. وأكد ذلك زيد بن الحباب فقال: «كان سفيان يفضّل عليّاً على عثمان»[٦]. وقال الذهبي: «كان يثلث بعليّ»[٧]، ولكنه لم يجرح بعثمان أبداً. قال الفضل بن دكين: «جالست الثّوري ثماني سنين، ما سمعته قائلاً في عثمان حسنة ولا سيئة»[٨].

مهما يكن من أمر؛ فقد ذهب بعضهم إلى القول: إن الثّوري كان

---

(١) أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ٤، ص ٢٣٨، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٨. ابن العماد، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٥١.
(٢) أحمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ٢١٩، ط. ليدن: ١٨٩٢ م.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤١.
(٤) الفهرست، ص ٢٥٣، مقاتل الطالبيين، ص ١٤١.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٢.
(٦) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٢٧٣.
(٧) يثلّث بعلي: أي: كان يقدّم عليّاً على عثمان في التفضيل، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤١.
(٨) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٢٧٨.

شيعياً في أول الأمر، فلما ترك الكوفة ودخل البصرة ترك التشيّع، واختار مذهب أهل السُنّة، ودعم هذا الموقف زيد بن الحُباب حين قال: «خرج سفيان إلى أيوب، وابن عون، فترك التشيّع»[١].

٥ ـ عنايته بالقرآن الكريم:

لقد كان الثّوري مُحبّاً للقرآن الكريم، ومعنياً به عناية فائقة، لهذا شمّر عن ساعديه، وتطوّع للدفاع عنه، فردّ التُّهم والأباطيل التي تُحاك ضدّه، وكان له راية الصريح الذي عرفه الجميع؛ بعد أن ألقاه علانية على صاحبه شعيب بن حرب إذ قال له: يا شُعيب اكتب: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ «القرآن، كلام الله غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، مَن قال غير هذا فهو كافر»[٢]. ويؤيّد هذا الموقف ما حدّث به عبد الله بن المبارك حين قال: سمعت سفيان الثّوري يقول: «مَن زعم أن ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[٣] مخلوق، فقد كفر بالله عزّ وجل»[٤].

إلى جانب موقف الثّوري من قضية خلق القرآن، فقد كانت له عناية خاصة بتلاوته وترتيله، فهو أنيسه في وحدته، ورفيق دربه في رحلاته وهجرته، قال أبو خالد: «صحبت سفيان في طريق مكة، فكان يقرأ في المصحف كل يوم فإذا لم يقرأ فيه فتحه فنظر فيه وأطبقه»[٥].

---

(١) أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٥٣، ٢٤١.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفّاظ، جـ١، ص ٢٠٦.

(٣) سورة الإخلاص، آية: ١.

(٤) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣٠. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٧٣.

(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٦.

وكان في اليوم الذي لا ينظر فيه، يأخذه فيضعه على صدره ليطمئن قلبه[1]. وحدّث صاحبه عبد الرزاق قال: «كان الثّوري جعل على نفسه لكل ليلة جزءاً من القرآن، وجزءاً من الحديث، قال: فيقرأ جزأه من القرآن، ثم يجلس على الفراش فيقرأ جزأه من الحديث، ثم ينام»[2].

وذُكِرَ عن الثّوري؛ أنه كان يقرأ القرآن بقلب خاشع؛ مفعم بالإيمان والتقوى، فكان يتلوه وكأنه يقف بين يدي الجليل، يتضرع إليه ويناجيه ويبكي، قال عبد الرحمن بن مهدي: «كنت لا أستطيع سماع قراءة سفيان من كثرة بكائه»[3]، وكان أحياناً يهيم على وجهه كالعبد الآبق. رُوِيَ أنه قرأ ليلة ﴿ **إنّا كنّا في أهلنا مشفقين** ﴾[4] فخرج فارّاً على وجهه حتى لحقوه، فأعادوه إلى مجلسه»[5]. ورُوِيَ أنه قام يصلّي قبل الزوال فمرّ بهذه الآية ﴿ **فإذا نُقِرَ في النّاقُور، فذلك يومئذ يومٌ عسيرٌ** ﴾[6] فخرج هائماً فما لحقوه إلا في الحمراء[7].

وكان دائماً يُذكّر طلابه وأصحابه بأهمية تلاوة القرآن، وفضيلة المواظبة عليها، لأنها أفضل الذِّكر، فسُمِعَ يقول: «أفضل الذِّكر تلاوة القرآن في الصلاة، ثم تلاوة القرآن في غير الصلاة، ثم الصوم، ثم الذِّكر»[8]. وقال أيضاً: «وددتُ لو أنّي قرأتُ القرآن، ووقفت عنده لم

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٩.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١٦.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٧.
(٤) سورة الطور، آية: ٢٦.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٠.
(٦) سورة المدّثر، آية: ٨.
(٧) صفة الصفوة، جـ ٣، ص ٩٧ ـ ٩٨.
(٨) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٦٧.

أتجاوزه إلى غيره»(١). وكأنه على أخذه علم الحديث الذي كان يشغله في بعض الأحيان عن تلاوة القرآن.

والملاحظ عند الثّوري، أن تلاوة القرآن، كانت أحبّ إليه من الجهاد، في حين يرى صديقه عبد الله بن المبارك، أن العبادة تحت ظلال السيوف، خير من العبادة في مِحراب المسجد؛ حيث الراحة والأمان(٢). وعن موقف الثّوري تحدّث عبد الحميد الحمّاني قال: سُئِلَ سفيان وأنا شاهد: «الغزو أحبّ أو رجل يقرأ القرآن؟» قال: «رجل يقرأ القرآن»(٣). وفي اعتقادي؛ أن هذا الموقف، لا يتوافق مع ما تتضمنه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية من حثٍّ على الجهاد؛ لما له من فضيلة في الإسلام.

ويبدو؛ أن موقف سفيان من الجهاد، كان موضوع نقاش يدور في جلسات أصحابه، الذين كانوا يتذمرون من عدم مشاركته في الغزو. قال الخُرَيْبي: «جلست إلى إبراهيم بن أدهم، فكأنه عابَ على سُفيان ترك الغزو، وقال: هذا الأوزاعي يغزو وهو أسنّ منه. فقلت لِبَهِيْم: ما كان يعني سُفيان في ترك الغزو؟ قال: كان يقول: إنهم يُضيعون الفرائض»(٤). في حين ثبت لدينا أن الثّوري كانت له مشاركة في المُرابطة، فذكر الفريابي أنه رابط بعسقلان أربعين يوماً ثم رحل إلى مكة(٥).

---

(١) أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٥٥.
(٢) راجع كتابنا «الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك»، ص ٩٨ - ١٠٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١/١٩٩٠.
(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٦٥.
(٤) أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٦٩.
(٥) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٢٦٠.

والقرآن في نظر الثّوري؛ هو الداء السحري الذي يشفي الغليل، ويُريح القلب من آلامه وأحزانه. ذُكِر أنه وقف فضيل بن عياض على رأس الثّوري وحوله جماعة فقال له: ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[١]، فقال له سفيان: «يا أبا علي! والله لا نفرح أبداً حتى نأخذ دواء القرآن فنضعه على داء القلب»[٢].

من جهة أخرى؛ يرى الثّوري؛ أن للقرآن منفعة ما بعدها منفعة، ولكن علينا أن لا نتعجّل ذلك، لأننا نبلغ ما نريد في حينه. فكان يقول: «يا حَمَلَة القرآن؛ لا تتعجّلوا منفعة القرآن، وإذا مشيتم إلى الطمع فامشوا رويداً»[٣].

من علم الثّوري بتفسير القرآن:

الواقع؛ أن الثّوري يعتبر من أكابر مفسّري القرآن، بدليل أنه ترك جزءاً في التفسير[٤]؛ وكان يعجبه من التفسير ما كان حرفاً حرفاً، وقد ساعده علمه الغزير على النبوغ في هذا المِضمار، فكان يأخذ المصحف، فلا يكاد يمرّ بآية إلا فسّرها، وجلّى غوامضها[٥].

والملاحظ، أن الثّوري كان يلفت أنظار الناس إلى علمه الجمّ بخاصة في علم القرآن، لهذا كان يقول: «سَلوني عن القرآن فإني به

---

(١) سورة يونس، آية: ٥٨.
(٢) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٧٠ ـ ٧١.
(٣) المصدر نفسه، جـ٦، ص ٣٩٢.
(٤) تفسير سفيان الثّوري، رواية أبي جعفر محمد عن أبي حذيفة النهدي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٣/١٩٨٣.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٧٩، ١١٦.

عالم»[1]، واستجابة لطلبه، وزيادة في الاستفادة من علمه واجتهاداته وحججه، وقف طلابه وعلماء زمانه بين يديه؛ يسألونه، ويأخذون عنه. وهذا الأمر يدعونا لاستعراض بعض تفاسيره:

قال أبو بكر العجلي: قال سفيان: أتدرون ما تفسير ﴿ **لا حول ولا قوة إلّا بالله** ﴾؟، يقول: «لا يُعطى أحد إلا ما أعطيت، ولا يُقى أحد إلا ما وقيت»[2].

من تفسير الثّوري لسورة البقرة:

في قوله تعالى: ﴿ **وقودها الناس والحجارة** ﴾[3]، قال: حجارة من كبريت[4]. وقوله: ﴿ **وموعظة للمتّقين** ﴾[5]، قال: لأمّة محمد ﷺ[6]. وقوله: ﴿ **وما كان الله ليضيّع إيمانكم** ﴾[7]، قال: صلاتكم[8]. وفي قوله: ﴿ **يسألونك عن الأهلّة** ﴾[9]، قال: هي مواقيت للناس في حجّهم، وديونهم، وفطرهم، ونحرهم، وعدّة نسائهم[10]. وفي قوله: ﴿ **وأحسنوا إن الله يحبّ المحسنين** ﴾[11]، قال:

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٧.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٠.
(٣) آية: ٢٤.
(٤) تفسير سفيان الثّوري، ص ٤٢.
(٥) آية: ٦٦.
(٦) تفسير الثّوري، ص ٤٦.
(٧) آية: ١٤٣.
(٨) تفسير الثّوري، ص ٥٢.
(٩) آية: ١٨٩.
(١٠) تفسير الثّوري، ص ٥٨.
(١١) آية: ١٩٥.

أحسنوا بالله الظن [١] ، وفي قولـه: ﴿ **ليطمئن قلبي** ﴾ [٢] ، قـال: بالخلّة [٣] .

ومن سورة آل عمران: في قوله تعالى: ﴿ **بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين** ﴾ [٤] ، قال: معلّمين [٥] . وفي سورة النساء، سُئِل الثّوري عن قوله عزّ وجل: ﴿ **وخلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ [٦] ، ما ضعفه؟ قال: «المرأة تمرّ بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها، ولا هو ينتفع بها، فأيّ شيء أضعف من هذا؟» [٧] . وفي قوله من المائدة: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي** ﴾ [٨] ، قال: نزل يوم عرفة في يوم جمعة [٩] .

وفي قوله تعالى: ﴿ **وأورثنا الذين كانوا يستضعفون مشـارق الأرض ومغاربها** ﴾ [١٠]، قال: الشام [١١]. وقوله: ﴿ **ويُذهِب عنكم رجز الشيطان** ﴾ [١٢]، قال: الوسوسة [١٣]. وفي قوله: ﴿ **إلى الناس يوم**

---

(١) تفسير الثّوري، ص ٥٩.
(٢) آية: ٢٦٠.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٧.
(٤) آية: ١٢٥.
(٥) تفسير الثّوري، ص ٨٠.
(٦) آية: ٢٨.
(٧) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٨.
(٨) آية: ٣٠.
(٩) تفسير الثّوري، ص ٩٩.
(١٠) سورة الأعراف، آية: ١٣٧.
(١١) تفسير الثّوري، ص ١١٣.
(١٢) سورة الأنفال، آية: ١١.
(١٣) تفسير الثّوري، ص ١١٦.

الحج الأكبر ﴾[1]، قال: يوم النحر[2]. وقوله: **﴿ دعواهم فيها سبحانك اللّهمّ ﴾**[3]، قال: إذا اشتهوا شيئاً، قالوا: «**سبحانك اللّهمّ**» فإذا هو بين أيديهم[4]. وقوله: **﴿ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾**[5]، قال: خشي عليهم العين[6]. وقوله: **﴿ ينشىء السحاب الثقال ﴾**[7]، قال: الذي فيه المطر[8]. وقوله: **﴿ وهو شديد المحال ﴾**[9]، قال: شديد الانتقام[10]. وقوله: **﴿ له دعوة الحق ﴾**[11]، قال: لا إلّه إلاّ الله[12].

وفي قوله: **﴿ لمَن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾**[13]، قال: «تاب» من الذنوب، و«آمن» من الشرك، وعمل صالحاً ثم اهتدى صام وصلّى وعرف أن لها ثواباً[14]. وقوله: **﴿ فيذرها قَاعَاً**

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢.
(٢) تفسير الثّوري، ص ١٢٣.
(٣) سورة، يونس: آية: ١٠.
(٤) تفسير الثّوري، ص ١٢٨.
(٥) سورة يوسف، آية: ٦٨.
(٦) تفسير الثّوري، ص ١٤٤.
(٧) سورة الرعد، آية: ١٢.
(٨) تفسير الثّوري، ص ١٥٢.
(٩) سورة الرعد، آية ١٣.
(١٠) تفسير الثّري، ص ١٥٢.
(١١) سورة الرعد، آية: ١٤.
(١٢) تفسير الثّوري، ص ١٥٢.
(١٣) سورة طه، آية: ٨٢.
(١٤) تفسير الثّوري، ص ١٩٥.

صفصفاً ﴾[1] ، قال: ترى الأرض كلها مستوية[2] . وقوله: ﴿ **لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾[3] ، قال: كانوا يشترون ويبيعون ولا يدعون الصلوات المكتوبات في الجماعة[4] . وقوله: ﴿ **ليس له سلطان على الذين آمنوا** ﴾[5] ، قال: أن يحملهم على ذنب لا يغفر[6] . وسُئِلَ الثّوري عن قوله: ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور** ﴾[7] ، قال: الرجل يكون في المجلس يسترقّ النظر في القوم إلى المرأة تمرّ به، فإن رأوه ينظر إليها فلم ينظر، وإن غفلوا نظر، هذا ﴿ **خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾، أي ما يجد في نفسه من الشهوة[8] .

وقال معدّان: سألت الثّوري عن قوله: ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾[9]، قال: علمه[10]. وفي قوله: ﴿ **ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً** ﴾[11]، قال: الزهد في الدنيا[12]. وقوله: ﴿ **ومُلكاً كبيراً** ﴾[13]،

(١) سورة طه، آية: ١٠٦ .
(٢) تفسير الثّوري، ص ١٩٦ .
(٣) سورة النور، آية: ٣٧.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٥ .
(٥) سورة النمل، آية: ٩٩.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٦.
(٧) سورة غافر، آية: ١٩ .
(٨) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٨.
(٩) سورة الحديد، آية: ٤ .
(١٠) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٤ . تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٠٦ .
(١١) سورة الملك، آية: ٢ .
(١٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٧.
(١٣) سورة الإنسان، آية: ٢٠ .

قال: استئذان الملائكة عليهم[1]. وفي قوله: ﴿ **فما له من قوة ولا ناصر** ﴾[2]، قال: القوة الغيرة، والناصر الحليف[3]. وقال الحمّاني: سألت الثّوري من آل محمد؟ قال: أمة محمد[4].

وعلى الرغم من تفاسير الثّوري الكثيرة، وتخصّصه في علم القرآن، فإنه لم يترفّع عن الإصغاء إلى تفاسير الفقهاء المعاصرين، بل ظل أميناً لرسالة العلم المبنية على الأخذ والعطاء، فكان يتشوّق للأخذ عن أصحابه، والنَهْل من مَعينهم، لأنه وجد في علمهم طلاوة، وحلاوة الإيمان.

قال ابن الحواري: قلت لسفيان: بلغني في قوله تبارك وتعالى: ﴿ **إلا مَن أتى الله بقلب سليم** ﴾[5]، «الذي يلقى ربه وليس فيه أحد غيره». فبكى الثّوري وقال: «ما سمعت منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا التفسير»[6].

والملاحظ؛ أن الثّوري لم يكن راضٍ عن نفسه على الرغم من عبادته المُثلى، وورعه وزهده، ومحاربته أهل البِدع، وشغفه بالقرآن، وانشغاله بمضمونه ومعانيه، فنجده يعاتب نفسه ويتهكم عليها، وكأن حياته تفيض بالخطايا والآثام. لهذا كثيراً ما شُوهد باكياً منتحباً وكأنه

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٨.
(٢) سورة الطارق، آية: ١٠.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٧.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ١٩.
(٥) سورة الشعراء، آية: ٨٩.
(٦) أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين، جـ ٣، ص ١٨٧، القاهرة: ١٩٥٢.

يغتسل من ذنوبه.

قال عطاء الخفاف: «ما رأيت سفيان الثّوري إلا باكياً، فقلت: ما شأنك؟ قال: أخاف أن أكون في أُم الكتاب شقياً»[1].

فهذه هي الصورة التي حفظتها المصادر عن سفيان الثّوري، الرجل العابد الزاهد، والتقيّ الورع، والمتواضع الوديع، والمُسالم لإخوانه المسلمين الذين يسيرون على نهج الرسول ﷺ والصحابة والتابعين.

كذلك ظهرت، من خلال هذا الفصل، شخصية سفيان جليّة؛ وهو يجاهد أهل البِدَع من أجل المحافظة على نقاء الدين وحمايته من كل دخيل؛ فوجدناه يذبّ عن حُرمة الشرع، ويقف في وجه الملحدين الذين يتعرضون لكتاب الله عزّ وجل من قريب أو بعيد، ولقد زكّى مواقفه تلك، بشرحه لغوامض الآيات القرآنية، فقرّبها بذلك إلى عقول الناس، وأصّلَ الإيمان في قلوبهم.

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥١. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٦.

الفصل الثالث

الموقف المبدئي لسفيان الثّوري

موقف الثّوري من:

١ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ ـ مخالطة السلاطين.

٣ ـ خدمة السلاطين.

٤ ـ منصب القضاء.

١ ـ موقف الثّوري من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الثابت استناداً إلى ما جاء في المصادر؛ أن الإمام سفيان الثّوري كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وقد نصّب نفسه لهذه المهمة؛ لأنها تتوافق مع ما جاء في الآيات القرآنية، وفي الأخبار والآثار، وهي تساعد على بناء المجتمع على أُسس سليمة خيّرة بعيدة عن الغش والخداع، والظلم والفساد.

مهما يكن من أمر؛ فمن الآيات التي تُظهِر فضيلة الأمر والنهي قوله تعالى: ﴿ **ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون** ﴾[١]. وقال عزّ وجل في سورة آل عمران: ﴿ **كُنتم خير أمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾[٢]. وقال العزيز في سورة الحج: ﴿ **الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾[٣]، فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين، فهذا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.
(٢) آية: ١١٠.
(٣) آية: ٤٠.

جانب من الآيات التي تحدّثت عن الأمر والنهي.

أما في الأخبار: فقول النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، قيل لمَن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامّتهم»(١). وقال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»(٢)، فالأمر والنهي في نظر الرسول ﷺ هو أفضل أنواع الجهاد.

وقال علي بن أبي طالب (ع): «أول ما تغلبون عليه في الجهاد؛ الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفل»(٣).

انطلاقاً من هذا المبدأ حمل الثّوري لواء الأمر والنهي، وجاهد في سبيل ذلك غَيْرَةً منه على دين الله. وحثّ أصحابه على القيام بهذه المهمة؛ لتزول الحواجز بينهم وبين الخالق. فقال لأحدهم: «أؤمر بالمعروف وانهَ عن المنكر تكن حبيب الله»(٤). ولكنه أحبّ أن يكون ذلك في رفق ولين فقال:

«أؤمر بالمعروف في رفق فإن قبل منك حمدت الله عزّ وجل، وإلاّ أقبلت على نفسك فإن لك في نفسك شغلاً...»(٥).

---

(١) أبو بكر محمد الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١٣٥، الإسكندرية: المطبعة الوطنية، ١٢٨٩ هـ.

(٢) أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ ١، ص ٣٣٧، القاهرة: ١٣٥٨.

(٣) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٣٠٨.

(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٨٣.

(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٢٤ ـ ٢٠٠.

والملاحظ؛ أن الثّوري كان لا يفتر عن الأمر والنهي وقد شهد أصحابه بذلك فقال شُجَاع بن الوليد: «كنت أحجّ مع سفيان فما يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ذاهباً وراجعاً»[1]. وقال صديق آخر: «ما رأيت رجلاً قطُّ أصفق وجهاً في الله عزّ وجل من سفيان الثّوري»[2]، فكان ينهى الناس عن المداهنة والرياء، والسكوت عن المعاصي، فقال: «إذا أثنى على الرجل جيرانه أجمعون، فهو رجل سوء، لأنه ربما رآهم يعصون، فلا ينكر، ويلقاهم ببشر»[3]. وقال: «إذا رأيتم جيران فقيه تحبّونه فاعرفوا أنه مداهن»[4] فهو رجل آثم؛ لأنه يتواطأ معهم على ارتكاب المحرّمات، ومخالفة حدود الله، طمعاً منه في الفوز بحبهم والثناءِ عليه، ولكن في ذلك مخالفة منهم جميعاً لمبادىء الشرع والنهج القويم، فبشهادة يوسف بن أسباط أنه سمع الثّوري يقول:

«إذا أحبّ الرجل أخاه في الله عزّ وجل، ثم أحدث حدثاً في الإسلام فلم يبغضه عليه، فلم يحبّه في الله عزّ وجل»[5].

وكان يرى المنكر متفشياً في كل مكان، ولا سيما في الأسواق، لهذا قال لأحد أصحابه: «... أقلّ دخول السوق فإنهم ذئاب عليهم ثياب، وفيها مردة الشياطين من الجنّ والإنس، وإذا دخلتها فقد لزمك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنك لا ترى فيها إلاّ

---

(١) أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٥٥.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٨.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٨.
(٤) المناوي، جـ ١، ص ١٢٥.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٠.

منكراً. . .»[1].

وكانت تؤلمه مشاهدة المنكرات ولا يستطيع السكوت عنها، لهذا كان يقصدها أينما وُجدت لعلّه ينجح في تقويم الاعوجاج المُحدَث، وإذا فشل في مهمته كانت حياته تزداد سوءاً وربما بال الدم ألماً وحزناً.

حدّث يحيىٰ بن يمان قال: لقيت سفيان الثّوري فقال لي: «أتدري من أين جئت؟ قلت: لا، قال: جئت دار الصيادلة، نهيتهم عن بيع الدَّازِيِّ[2]، وإني لأرى الشيء يجب عليّ أن أمرّ فيه، وأنهى عنه فلا أفعل فأبول دماً»[3]. ويؤكد ذلك يوسف بن أسباط فقال: «كان سفيان من شدّة تفكيره يبول الدم»[4].

وكان كلّ همّه في الدنيا إعلاء شأن الأمة، وتطهيرها من الرجس ولتبقى عزيزة الجانب يسودها الأمر والنهي. فعندما قال له أحد أصحابه كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال:

«تسألني كيف أصبحت، وقد والله تحيّرت، اللّهمّ أبرم لهذه الأمة أمراً رشيداً تعزّ فيه وليّك، وتذلّ فيه عدوّك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر»، ثم تنفّس الصعداء وقال: «كم من مؤمن رأيناه مات غيظاً»[5].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٨٤.
(٢) الدّاذِيُّ: هو حب على شكل حب الشعير يُنقَع في الماء فيصبح مُسكِراً، لسان العرب، دبذ، جـ ٣، ص ٤٩١.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ١٤ ـ ١٥. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٣، ٢٥٩.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٣.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ١٤.

وكل ذلك يثبت أن الثّوري كان إماماً نصوحاً، يتفقد الناس من حوله بالنصح، ويخصّهم بالمواعظ، فلم يكن نصحه مقصوراً على الحكّام والوُلاة فحسب[1] وإنما كان يخـص في ذلك أئمة المسلمين والفقهاء والزاهدين وسائر الناس.

رُوِيَ أن الثّوري كان يغتنم فرصة اجتماعه بأصحابه من الفقهاء والزهّاد فيتشاور معهم في أمور المسلمين. قال يحيىٰ بن يمان: «تقاوم سفيان الثّوري وإبراهيم بن أدهم ليلة إلى الصبح، فكانا يتذاكران، فقيل: يا أبا عبد الله في أيّ شيء؟ فقال: في أمور المسلمين»[2].

وكان يلفت نظر العلماء والفقهاء إلى الأمور التي يجب القيام بها ليرتفع قدرهم بين الناس ويصبحـون قدوة لغيـرهم، قال وكيـع بن الجرّاح: «خرجنا مع الثّوري في يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا غضّ النظر»[3].

والملاحظ؛ أن الثّوري كان حازماً في مواقفه تجاه المتهاونين في أمور الدين، فكان يحثّهم على القيام بالفرائض في مواقيتها، حتى إذا لاحظ تأخيرهم لذلك أعلن مقاطعته لهم غير آبه بهم. قال أبو المنذر: رأيت سفيان الثّوري ورأى رجلاً يتوضأ بعدما أقام المؤذّن الصلاة فقال: «هذه الساعة تتوضأ؟ لا كلّمتك أبداً»[4].

والواضح من الأقوال المتواترة؛ أن الثّوري كـان شديـداً في

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.
(٢) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٥٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٢٣.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٦.

ملاحقته للقرّاء الذين يُتاجرون بأمور الـدين بعد أن اتخـذوه وسيلة للتكسّب. قال العمري: «معاشر القرّاء كُلوا الدنيا فقد مات سفيان الثّوري»[1].

وكان الثّوري لا يتخاذل عن الأمر والنهي لأنه يؤمن بأن الدين النصيحة، فرُوِي أن رجلًا أعمى كان يُجالس سفيان، فكان إذا كان شهر رمضان، خرج إلى السور فيصلّي بالناس، فيكسي ويوهب له، فقال سفيان: إذا كان يوم القيامة، أتيت أهل القرآن من قرآنهم، ويقال لمثل هذا: قد تعجلت ثوابك، فقال له الرجل: يا أبا عبد الله تقول هذا لي وأنا جليس لك؟! قال سفيان: «إني أتخوّف أن يقال لي يوم القيامة: أنه كان جليساً لك أفلا تنصحه»[2].

٢ ـ موقف الثّوري من مخالطة السلاطين:

من المستحسن قبل أن نبدأ بعرض موقف الثّوري من قضية الدخول على أصحاب الشأن؛ أن نشير ولو بإيجاز إلى أن الفقهاء قد انقسموا على أنفسهم تجاه هذه القضية إلى ثلاث فِرَق، فمنهم مَن حلّل ذلك، وهذا مذموم بحسب المشرِّعين، والفريق الآخر استساغ دخول السلطان على الفقهاء والزهّاد زائراً لأخذ النصيحة والعِظة، والفريق الثالث، وهو أنقى الجميع وأسلمهم، لأنه اعتزل السلاطين فلا يراهم ولا يرونه، وفرّ منهم فراره من الأسد.

ولقد كان الثّوري من ضمن عناصر المجموعة الأخيرة وذلك

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥٥.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٩.

استجابة لرسول الله ﷺ إذ قال: «العلماء أُمناء الرُّسُل على عبادة الله ما لم يخالطوا السلطان، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرُّسُل فاحذروهم واعتزلوهم»(١). وقال: «أبغض القرّاء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء»(٢).

وقال علي بن أبي طالب (ع): «إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك. وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء فنِعمَ الملوك ونِعمَ العلماء».

وقال جعفر الصادق (ع): «الفقهاء أُمناء الرُّسُل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم»(٣).

وكان لسفيان الثّوري موقفه الواضح من هذا الأمر، فأعلنها صرخة مدوية تردّد صداها بين مُعاصريه فقال: «في جهنم وادٍ لا يسكنه إلاّ القرّاء الزوّارون للملوك». وشاطره هذا الرأي الإمام الأوزاعي فقال: «ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً». وقال الفضيل بن عياض: «ما ازداد رجل من ذي سلطان قرباً إلا ازداد من الله بُعداً»(٤).

من هذه الأُسس والمبادىء، انطلق سفيان الثّوري حاملاً لواء الأمر والنهي ومقاطعة السلاطين، ولو رجعنا إلى كتب التراجم والطبقات لوجدنا الكثير من الأخبار والأقوال التي تدل على فراره من الأمراء، وتحذيره للناس من الدخول عليهم، والتعامل معهم. فكان يرى أنه من علامات سخط الله على العبد أن يدفعه إلى السلطان، فقال في ذلك:

---

(١) الغزالي، جـ٢، ص ١٤١.
(٢) المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٤٠.
(٣) حلية الأولياء، جـ٣، ص ١٩٤.
(٤) الغزالي، جـ٢، ص ١٤١.

«إذا لم يكن لله في العبد حاجة نبذه إليهم، يعني السلاطين»[1].

ومن نعمات الله على العبد أن يجنّبه الحاجة إلى السلطان وإلى الطبيب فقال:

«نعمتان يرزقهما ابن آدم فينبغي له أن يحمد الله عليهما ويشكره، اجتنابه باب السلطان وباب المتطبّب»[2]. وخوّف الثّوري الناس من الدخول عليهم مهما كانت الأسباب فقال: «إن دعاكَ هؤلاء الملوك تقرأ عليهم ﴿قل هو الله أحد﴾[3]، فلا تجبهم فإن قربهم مفسدة للقلب»[4]، ونعت مَن يدخل عليهم بأبشع الصفات فقال: «إذا رأيت القارىء يلوذ بباب السلطان فاعلم أنه لص، وإذا رأيتموه يلوذ بباب الأغنياء فاعلموا أنه مراء»[5].

وحذّر الناس من النظر إليهم والدعاء لهم، فقال في ذلك: «النظر إلى وجه الظالم خطيئة، ولا تنظروا إلى الأئمة المضلّين إلاّ بالإنكار من قلوبكم عليهم، لئلا تحبط أعمالكم». وقال: «ولا تنظروا إلى دورهم ولا إليهم إذا مرّوا على المواكب»[6].

وقد سار الثّوري على نهج الرسول ﷺ، فهو يرى أن الدعاء للظَلَمَة بالبقاء خطيئة فقال مردّداً قوله ﷺ: «مَن دعا لظالم بالبقاء فقد

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٧.
(٢) ابن حنبل، الورع، ص ١١٤.
(٣) سورة الإخلاص، آية: ١.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٦.
(٥) الورع، ص ١١٤، حلية الأولياء، جـ ٦، ٣٨٧. الشعراني، جـ ١، ص ٥٤.
(٦) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٠.

أحبّ أن يعصى الله بأرضه»[1]. وفي عدم التعامل معهم أو مساعدتهم في أقل الأمور قال: «إذا استرشدك أحد من هؤلاء الطريق فلا ترشده»[2].

ويرى الثّوري أن القناعة هي الطريق الوحيد للنجاة من الملوك فقال: «إن اقتصرت على خبزك وبقلك لم يستعبدك هؤلاء - يعني الملوك -»[3]. لذا، اعتنق الثّوري مبدأ الزهد الذي يقرّبه إلى الخالق، ويحرّره من نِيْر السلطان وعتق رقبته من جبروتهم، والأكثر من ذلك تسلّط عليهم في مجلسه، وجعلهم أذلّة بين الناس ليعرفوا قدر أنفسهم. قال محمد بن عبد الوهاب: «ما رأيت الأمير والغني أذلّ منه في مجلس سفيان»[4]. ويؤكد ذلك يحيىٰ بن يمان فيقول: كان الفقراء هم الأمراء في مجلس سفيان»[5].

إلى جانب ذلك؛ كان الثّوري يوصي إخوانه بعدم مخالطة الأمراء فقال لأحدهم:

«إياك ومخالطة الأمراء»[6]. وقال لآخر: «... إياك يا أخي والأمراء، إن تدنو منهم، أو تخالطهم في شيء من الأشياء، ويُقال لك تشفع أو تدرأ عن مظلوم أو تردّ مظلمة فإن ذلك من خديعة إبليس»[7].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٦. الغزالي، جـ ٢، ص ١٤٣.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٤١.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٧٨.
(٤) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٥.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٧.
(٦) المنّاوي، جـ ١، ص ١١٥.
(٧) الشعراني، جـ ١، ص ٥٢.

وقال لصديق له: «احذر إتيان هؤلاء الأمراء وارغب إلى الله في حوائجك لديهم»[1].

ومن ضمن ما قاله في وصيته لعلي بن الحسن السلمي:

«... إيّاك وأبواب السلطان، وأبواب مَن يأتي أبوابهم، وأبواب مَن يهوى هواهم، فإن فتنتهم مثل فتن الدجّال، فإن جاءك منهم أحد فانظر إليه بوجه مكفهر ولا تُبالِ منهم شيئاً، فيرون أنهم على الحق فتكون من أعوانهم؛ فإنهم لا يخالطون أحداً إلا دنّسوه...»[2].

نستشف من هذه الوصية، أنه من ضمن الأسباب الجوهرية التي حالت دون دخول الثّوري على السلاطين، هو خوفه من أن يروا في دخوله عليهم، أنهم على حق فيما هم فيه من ظلم وتعسّف، وارتكاب المحرّمات، وهدر أموال المسلمين.

وكان الثّوري يذكر في مجالسة الأمثال والعِبر مخوّفاً الناس من مغبّة الاختلاط، وحتى من رؤية السلطان الظالم، روى الإمام عبد الله بن المبارك أنه سمع الثّوري يقول: «لم أرَ للسلطان إلا مثلاً ضُرِبَ على لسان الثعلب، قال: قال الثعلب: عرضت للكلب نيّفاً وسبعين دستاناً ليس فيها دستاناً خيراً من أن لا أرى الكلب ولا يراني، قال سفيان: ليس للسلطان خير من أن لا يراك ولا تراه»[3].

ثم قال الثّوري كلمته الأخيرة؛ وأقفل باب الجدال في هذا الأمر بعد أن حاول إقناع الناس؛ بشتى البراهيم والأدلة والحجج الدامغة؛ بأن

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٤٤. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٢.

مخالطة السلاطين والأمراء الظَلَمة مفسدة للدين، ومضيعة للآخرة، والأفضل أن تترك لهم الدنيا، فقال: «إن هؤلاء الملوك تركوا لكم الآخرة، فاتركوا لهم الدنيا»(١).

٣ ـ موقف الثّوري من خدمة السلاطين:

تشير المصادر إلى أن الثّوري كان يعارض المتّصلين بالأمراء والملوك، وينصحهم بالابتعاد عنهم مهما كانت الأسباب والظروف.

ذكر أنه قال لرجل يخدم الولاة: «أبعد عنهم، فقال: فما أصنع بعيالي؟ فقال سفيان لأصحابه: ألا تسمعون هذا يقول أنه إذا عصى الله رزق عياله، وإذا أطاعه ضيعهم»(٢). ثم نصحهم قائلاً: «لا تقتدوا قطُّ بصاحب عيال، فإنه قلّ صاحب عيال أن يسلم من التخليط، وعذره دائماً في أكل الشُبُهات والحرام قوله عيالي»(٣).

وعاتب رجلاً من إخوانه كان قد همّ أن يتلبّس بشيء من أمر السلطان فقال له:

يا أبا عبد الله إن عليّ عيالاً، قال: «لأن تجعل في عنقك مخلاة فتسأل على الأبواب خير من أن تدخل في شيء من أمر هؤلاء ـ يعني السلاطين» ـ(٤).

وحدّث يوسف بن أسباط قال: إن رجلاً قال لسفيان: إنّي جُعلت

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٨.
(٢) المنّاوي، جـ ١، ص ١١٦.
(٣) الشعراني، جـ ١، ص ٥٣.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٩.

في جدّة[1] في بناء يبنونه ـ يعني للسلطان ـ قال: ألست تتمنى بقاءهم إلى أن يعطوك أجرك؟[2] وهذا يعني كم ظلماً يجري على أيديهم إلى أن يقبض أجره.

وكان الثّوري يخوّف أصحابه، وينصحهم بعدم التعاون مع الخلفاء وأخذ المناصب. رُوِيَ أن رجلاً صحب الثّوري يُقال له يوسف إلى صنعاء، فلم يشعر إذ جاءته الولاية من أبي جعفر المنصور، فقال له الثّوري: «ويحك يا يوسف شطحوك بغير سكّين، كيف إذا قيل يوم القيامة أين أبو جعفر وأتباعه قمت فيهم؟»[3].

ومن الواضح؛ أن الثّوري لم يكن ليوزّع الإرشادات والمواعظ جزافاً ولكنه كان يسير أمام الركب ويطبّق تلك المبادىء على نفسه ليكون قدوة لغيره من الأئمة وعامّة الناس، فكان يقول: «لو خُيِّرت بين ذهاب بصري وبين أن أملأ بصري منهم لاخترت ذهاب بصري»[4].

ذكر عبد الله بن المبارك، أنه قيل للثّوري مرة: لو دخلت عليهم ـ يعني السلاطين ـ قال: «إنّي أخشى أن يسألني الله عن مقامي ما قلت فيه؟»، قيل له: «تقول وتتحفظ»، قال: «تأمروني أن أُسبّح في البحر ولا تبتلّ ثيابي؟!»[5].

وحدّث الثّوري عن نفسه أنه لم يكن يبعد عنهم خوفاً منهم أو

---

(١) جدّة: بلد على ساحل بحر اليمن، بينها وبين مكّة ثلاث ليالٍ. ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢، ص ١١٤ ـ ١١٥.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٢٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٤.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٧.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٤٢. قابل الشعراني، جـ ١. ص ٥٥.

رهبة من جبروتهم، ولكنه خشي أن يميل قلبـه إليهم فيتعامى عن أخطائهم. فقال في ذلك: «ليس أخاف ضربهم، ولكن أخاف أن يميلوا عليّ بدنياهم؛ ثم لا أرى سيئتهم سيئة»، وعندما ذكر له أصحابه أمر السلطان وطلبهم إيّاه قال: «أترون أنّي أخاف هوانهم، إنما أخاف كرامتهم»[(١)].

والملاحظ؛ أن الثّوري كان يخشى أن تضعف نفسه في بلاط الخلفاء إذا ما خالطِهم، فوجد في الفرار منهم خير ضمان من أن يلين قلبه لهم ويتحوّل إليهم، ويترك رسالته التي كرّس نفسه لإعلائها ونشرها بين الناس، فكان يقول: «والله ما يمنعني من إتيانهم أني لا أرى لهم طاعة، ولكن رجل أحبّ الطعام الطيّب فأخاف أن يفسدوني»[(٢)].

وهكذا أعلن الثّوري مقاطعته لذوي الشأن وخالفهم بعناد وإصرار في الأمور التي تهتك الشرع وتهدم الدين، وحتى لا يكون مطيّة لهم اختار طريق الزهد ولم يأبه بدنياهم وذهبهم وارتضى الحياة الوادعة حتى ولو استفّ الرمل وأكل الحصى. وقد عبّر عن ذلك أمام أصحابه فقال لهم: «لو أكلوا الذهب لأكلنا الحصى»[(٣)].

ولقد اشتهر سفيان بتلك المواقف، وعُرِفَ بجفائه للأمراء وبتقرّبه للفقراء، وقد شاع ذلك عنه حتى أصبحت واحدة من صفاته الحميدة التي تتغنّى بها الركبان، ويُعرَف بواسطتها بين العلماء وسائر الناس. كان وهيب المكّي يقول لأصحابه: «ماذا فعل الذي بالعراق؟ الذي يجفو

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٠، ٤٢. قابل النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٢.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٥.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٤٦.

الأمراء ويداني الفقراء ما فعل؟»[1].

وبالفعل فقد ذكرت المصادر الأمثلة العديـدة التي تثبت فرار الثّوري من الحكّام وأعوانهم.

حدّث أبو شهاب قال: كنت ليلة مع سفيان الثّوري فرأى ناراً من بعيد فقال: «ما هذا؟ فقلت نار صاحب الشراة، فقال: اذهب بنا في طريق آخر لا نستضيء بنارهم أو قال بنورهم»[2].

وروى وهب بن إسماعيل قال: «كنّا يوماً عند سفيان فمرّ رجل من هؤلاء الجند، فجعل سفيان ينظر إليه، وينظر إلينا ثم قال: يمر بكم المبتلي والمكفوف والزمنى الذين يؤجرون على بلائهم فتسألون الله العافية، ويمرّ بكم هؤلاء فلا تسألون الله العافية؟»[3].

وشوهد في بغداد وقد نظر إلى شيخ جلّاد يتصدّق، وقد ذهب بصره فحمل قطعة فأعطاه إياها ثم قال له: «ليست هذه صدقة عليك، هذه شماتة بك»[4].

وذهب إلى أبعد من ذلك، فهو لا يتعامل معهم فحسب؛ وإنما لا يسمح لنفسه ولا لأصحابه بدعوتهم أو تنبيههم إلى مواقيت الصلاة؛ لأنه ليس الأجر في حثّهم على ذلك، وإنما الأجر والثواب في تركهم لأنهم أساس كل بلاء يحلّ بالناس.

روى داود عن أبيه قال: «كنت مع سفيان الثّوري فمررنا بشرطي

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ٤٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٨.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٣.

نائم وقد حان وقت الصلاة، فذهبت أُحرّكه فصاح سفيان: «مه، فقلت يا أبا عبد الله يصلّي، فقال: «دعه لا صلّى الله عليه، فما استراح الناس حتى نام هذا»(١).

ومن مبادىء الثّوري في التعامل مع السلطان؛ إنه لا يقبل أن يتوسط لأحد عنده حتى لا يستذلّ، أو يطلب منه الاجتماع به، أو يصدر فتاوى تنافي الشرع. فقد أورد ابن أبي حاتم قصة عن النظير بن ورعة، يذكر فيها أنه التقى وهو بالموصل بالمبارك بن سعيد فقال له: ائت أخي سفيان فأخبره أن نفقتي قد نفذت، وثيابي قد تخرّقت، فقل له يكتب إلى وال الموصل لعلّه يصلني بمال أكتسي به وأتجمّل، قال: فقَدِمت، فأتيت سفيان، فأخبرته بما قال مبارك، قال: فدخل الدار فأخرج دورقاً فيه كسر يابسة فنثرها على الأرض ثم قال: «لو رضي مبارك بمثل هذا لم يكن بالموصل عمل، ما له عندنا كتاب»(٢).

كذلك كان الثّوري يتهرّب من البيعة لهم فيتذرع بشتى الحجج، ويلجأ إلى كل السُّبُل للنجاة منهم حتى لا يتحمل إثم أعمالهم.

قال يزيد بن أبي حكيم: «كنّا بالمسجد الحرام؛ فأخذ الناس بالبيعة وعلى سفيان إزار ورداء جديدان، فجاء إلى رجل مسكين عليه ثوبان خلقان، فقال له: هل لك أن تأخذ ثوبي الجديدين وتعطني الخلِقين، فاغتنم وقال: نعم! فأعطاه الجديدين وأخذ الخَلِقين فلبسهما، ثم جاء إلى المسجد فأخذه الحرّاس فألقوه خارجاً من المسجد وقالوا له: يا ساسي أنت ما تصنع هاهنا؟!»(٣).

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤١. قابل الشعراني، جـ ١، ص ٥٥.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٢.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٢.

٤ ـ موقف الثّوري من منصب القضاء:

لقد كان الثّوري ينصح أصحابه في البُعد عن تولّي القضاء، وينهاهم عن مجالسة القضاة أو حتى محادثتهم؛ خشية أن يكون في ذلك تزكيتهم؛ فيُحسِن الناس الظن بهم، ويتوهمون حُسْن سيرتهم، لهذا قال لعثمان بن زائدة: «يا عثمان لا تجالس القاضي، إذا قلت له: عافاك الله، فهو يرى أنك رضيت عمله. وإذا قلت له: جزاك الله خيراً، فما بقي من الثناء؟!»[١]. وأثناء حديثه عن القضاة سمع يقول: «إن سألوكم عن شيء، فلا تجيبوهم»[٢].

وذهب الثّوري إلى أبعد من توزيع النصائح والحِكَم؛ فقد أعلن مقاطعته ومجابهته لمَن تولى منصب القضاء؛ من الفقهاء الأعلام، وكان لاذعاً في مناظراته إياهم لعله ينجح في ردعهم عن ذلك، لأن النبي ﷺ يقول: «القضاة ثلاثة، اثنان في النار وواحد في الجنة، رجل قضى بغير علم فهو في النار، ورجل قضى بعلم فجارَ فهو في النار، ورجل قضى بالحق فهو في الجنّة»[٣]. وقال ﷺ: «مَن جعل قاضياً بين المسلمين فقد ذبح بغير سكّين»[٤].

ورُوِيَ أن الثّوري لقي شريكاً بعدما وُلّي قضاء الكوفة فقال له: «يا أبا عبد الله بعد الإسلام والفقه والخير، تلي القضاء وصرت قاضياً؟».

---

(١) ابن حنبل، الورع، ص ٥٧.
(٢) العجلي، تاريخ الثقات، ص ١٩٠.
(٣) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٦٩.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٦، ص ١٥١.

فقال له شريك: يا أبا عبد الله، لا بدّ للناس من قاضٍ، فقال سفيان: «يا أبا عبد الله؛ لا بدّ للناس من شرطي»[1].

وكان الثّوري طالما يذكر في مجلسه هذا المنزلق الذي سلكه شريك القاضي. حدّث محمد بن سابق فقال: كنت جالساً عند سفيان حين استقضى شريك فقال: «أيما رجل أفسد، لكن منصور بن المعتمر أخذه داود بن علي (عمّ السفّاح والمنصور) فأقامه حتى ورمت قدماه، فدفع إليه العهد، فوضعه في كوّة بيته فلم يُخرجه حتى مات»[2].

ولقد شعر شريك القاضي بخطورة تولّيه القضاء، فكأنه ندم على ما قام به بعد أن أدرك أنه لوّث دينه بهذا المنصب، وقد عبّر عن ذلك عندما ذهب إلى الصيرفي ليأخذ رزقه، فضايقه في النقد فقال له الصيرفي: إنك لم تبع به بزّاً، فقال شريك: «بلى! والله بعت أكبر من البزّ، لقد بعت به ديني»[3].

مهما يكن من أمر، فإن الثّوري بقي مقاطعاً لشريك حتى آخر حياته، فعندما التقى به لآخر مرة قال له: أيّ عذر لك حيث كان الشرط يحفظونك اليوم. قال شريك: يا أبا عبد الله أُكلّمك، فقال: ما كان الله ليراني وأنا أُكلمك أو تتوب، ثم وثب فلم يكلّمه حتى مات. وكان إذا ذكره قال: «أيّ رجل كان لو لم يفسدوه»[4].

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٤٧.
(٢) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٤٧.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، جـ٣، ص ٣١٠.
(٤) عبد الرحمن سنبط الأربلّي، خلاصة الذهب المسبوك، مختصر سير الملوك، ص ٨٨، القدس، ١٨٨٥.

كذلك كان موقف الثّوري من القاضي ابن علاثة، فكان شديداً في مقاطعته، متعفّفاً عن مصادقته.

رُوِيَ أن محمد بن عبد الله بن عُلاثة كان صديقاً لسفيان الثّوري، فلما وُلّي القضاء للخليفة المهدي[1]، أنكر عليه سفيان ذلك، فجاء ابن علاثة إلى منزل سفيان واستأذن بالدخول عليه، فدخل عمّار بن محمد ابن أخت الثّوري يستأذن له، فرفض سفيان الاجتماع به، فلم يزل به عمّار حتى أذِنَ له، فدخل ابن عُلاثة، وكان سفيان يعجن كيساً للشاة، فلم يحوّل وجهه إليه، ثم قال: «يا ابن عُلاثة ألهذا كتبت العلم؟ لو اشتريت صبراً بدرهم؟ يعني سمكاً - ثم درت في سكك الكوفة لكان خيراً من هذا»[2].

إلى جانب ذلك كان الثّوري عنيفاً مع القضاة، فلا يتأخر عن نهيهم عن المنكر. ذكر صاحب حلية الأولياء[3] أن الثّوري مرّ بالقاضي وهو يتكلم ببعض ما يُضحِك به الناس، فقال له: يا شيخ «أما علمت أن لله يوماً يحشر فيه المبطلون»؟! فما زالت تُعرَض في وجه القاضي حتى لقي الله عزّ وجل.

والواضح؛ من خلال ما ذكرته المصادر؛ أن الثّوري لم يكن كالسيف المسلّط فوق رقاب القضاة ونفسه تتوق إلى هذا المنصب الرفيع في دولة بني العبّاس، وإنما الحقيقة تُقال: إنه كان له مع الخلفاء صولات وجولات؛ دُعِيَ خلالها إلى القضاء مرات عديدة، فكان في كل مرة يختلق الأعذار والحجج ليتخلص منهم، ويتحرّر من جبروتهم.

(١) خليفة بن خياط، الطبقات، ص ٣٢٠.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٥، ص ٣٨٩.
(٣) أبو نعيم، جـ ٧، ص ٥١.

رُوِيَ أنه دُعِيَ إلى القضاء للمرة الأولى، فدخل على أمير المؤمنين وجعل يتجانن عليهم ويمسح البساط ويقول: ما أحسنه. بكم أخذتم هذا، ثم قال: البول، البول، حتى أُخرِج. وهكذا احتال عليهم ليتباعد عنهم ويَسلَم من أمرهم[1].

ودُعِي مرة أخرى لتولّي القضاء في زمن المهدي بن المنصور فجعل يختلق الأعذار ليفرّ منه، حدّث عن ذلك القعقاع بن الحكم قال: كنت عند المهدي وأُتي بسفيان الثّوري، فلما دخل عليه سلّم تسليم العامّة، ولم يسلّم بالخلافة، والربيع الحاجب قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره، فأقبل المهدي بوجهٍ طلقٍ، وقال له: يا سفيان، تفرّ منّا ههنا وههنا، وتظن أنّا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك؟ فقد قدرنا عليك الآن، فما تخشى أن نحكم فيك بهواناً؟ فقال سفيان: إن تحكم فيّ يحكم فيك ملك قادر يفرّق بين الحق والباطل، فقال الربيع: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ إيذن لي أن أضرب عنقه، فقال له المهدي: اسكت ويلك! وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة، على أن لا يُعترض عليه في حكم، فكتب عهده ورفع إليه، فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وهرب، فطُلب في كل بلد فلم يوجد[2].

وذُكِر أنه لما امتنع الثّوري عن تولّي قضاء الكوفة وتولّاه شريك بن عبد الله النخعي قال فيه الشاعر:

(١) محي الدين النووي، بستان العارفين، تحقيق م.س. الوفي، ص ٤٩، القاهرة، ١٣٤٨.

(٢) المسعودي، جـ ٣، ص ٣٢٢ ـ ٢٣. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٩٠. ابن العماد، جـ ١، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١. نصر بن محمد السمرقندي، تنبيه الغافلين، ص ٢٥، القاهرة: د.ت.

تَــحَــرَّزَ سُــفْــيــانٌ وَفَــرَّ بِــدِيــنِــهِ
وَأمســى شــريــكٌ مُــرصِــداً لــلدَّراهــمِ[1]

فهذه أبرز المواقف التي اشتهر بها الإمام سفيان الثّوري؛ الذي شغل حياته بالعلم والتعليم، والتبحّر في المسائل الدينية، إلى جانب مجاهدة البِدَع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبُعد عن مخالطة السلاطين وخدمتهم والتلوّث بمناصبهم، ولا سيما منصب القضاء الذي فرّ منه حفاظاً على نقاء إسلامه وشفافية ورهافة حسّه الديني والأخلاقي.

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٧٩. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٩٠. ابن أيبك، جـ ١٥، ص ٢٨٠.

الفصل الرابع

علاقة الثّوري بالخلفاء والأمراء العباسيين

تمهيد: مبدأ الثّوري في الدخول على السلطان ومناصحته إيّاه في أمر الأمة.

١ ـ موقف الثّوري من الخليفة أبي جعفر المنصور.

٢ ـ موقفه من الخليفة المهدي.

٣ ـ موقفه من الأمراء العباسيين.

تمهيـــــد:

مبدأ الثّوري في الدخول على السلطان ومناصحته إيّاه في أمر الخلافة:

إن أُمنية سفيان الثّوري في البُعد عن الخلفاء لم يستطع تحقيقها دائماً، لأن نداء الواجب كان يضطره أحياناً كثيرة للدخول عليهم، وأحياناً أُخرى كان يستجيب لطلبهم بعد إلحاح كبير منهم، فيقف بين يديهم فيذكّرهم بأمر من أمور المسلمين، ويعظهم ويحذّرهم من غضب الجبّار، وكان خلال ذلك؛ يتحلّى بالصراحة والرفق والجرأة الأدبية؛ دون أن يخفّف، غدرهم ومكرهم وأساليبهم الجائرة، من حماسه واندفاعه لتأدية المهمة كاملة حتى في أحرج المواقف.

وعلى الرغم من ذلك؛ كان يرى أنه تجب شروط فيمن يأمر الحكّام بالمعروف وينهاهم عن المنكر، فقال: «لا يأمر بالمعروف إلا رجل عالم بما يأمر، عالم بما ينهى، رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل فيما يأمر، عدل فيما ينهى»[1]. فهو يطبّق في قوله هذا نهج القرآن

---

(١) حلية الأولياء، جـ ١، ص ٣٧٩. قابل الشعراني، جـ ١، ص ٥٣.

الكريم، وفيه قول الله عزّ وجلّ لنبيّه موسى (ع) وهارون إذ أرسلهما إلى فرعون: ﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعلّه يتذكّر أو يخشى** ﴾[1]. فالواجب لمَن يعظ أن لا يعنّف، ولمَن يوعَظ أن لا يأنف.

وكان سفيان؛ لا يقدر أن يرى الخطأ ويسكت عليه مهما كانت النتائج عهداً قطعه على نفسه أمام الله وأمام ضميره. فسُمِعَ يقول: «إني لأدعو للسلطان ـ يعني بالصلاح ـ ولكن لا أستطيع أن أذكر إلا ما فيهم»[2]. ولكن هذا الأمر يتطلب المهارة وحُسْن التصرف حتى يبلغ المُصلِح غايته لهذا قال: «مثل العالِم مثل الطبيب، لا يضع الدواء إلا على موضع الداء»[3]. وقال: «ويلٌ لمَن دخل عليهم، إذا لم يكن كبير العقل، كثير الفهم، كيف يكون فتنة عليهم وعلى الأمة»[4].

وعلى المُصلِح إذا ما وعى المهمة الملقاة على عاتقه، أن يلجأ إلى الأسلوب الأنجع، مبتعداً كل البعد عن الطعن والتهكّم، لأن في ذلك مضيعة للهدف الأسمى؛ لأن الشرّ لا يولّد إلا الشر وهذا هو مبدأ الثّوري، قال عبد الرحمن بن مهدي «ما سمعت سفيان يسبّ أحداً من السلطان قطُّ مع شدّته عليهم»[5].

بهذه الروح العالية دخل الثّوري على الخلفاء والأمراء والحكّام وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وغايته في ذلك إعلاء شأن الأمة وصلاح أمرها، والمحافظة على حقوق المسلمين.

---

(١) سورة طه، آية: ٤٤.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٧.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٨.
(٤) الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٧.

١ ـ موقف الثّوري من الخليفة أبي جعفر المنصور:

لقد كانت للثّوري مواقف شهيرة في الأمر والنهي، فكان جسوراً على الخلفاء، لا يخاف في الله لومة لائم، لهذا قال فيه صاحب تاريخ الثقات: إنه «كان من أقوى الناس بكلمةٍ شديدةٍ عند سلطان يُتّقى»[١]، ويؤكد ذلك ما روته المصادر عن مواقفه المشرّفة مع الخليفة أبي جعفر المنصور، وهي في معظمها اتّسمت بالجرأة والشجاعة الأدبية.

ذُكِرَ أن المنصور كثيراً ما كان يطلب الثّوري للمثول بين يديه، ولكن هـذا الأخير فـرّ منـه ملتمسـاً الأسبـاب والأعـذار، وعنـدمـا عـوتب في ذلك قال:

«ما يريد منّي أبو جعفر؟، فوالله لئن قمت بين يديه لأقول له: «قم من مقامك فغيرك أولى به منك»[٢].

والواضح؛ إن المواسم كانت تشكّل الفرصـة الأهم لاجتماع الفقهاء بالخلفاء العباسيين، فرُوِيَ؛ إن أبا جعفر المنصور التقى الثّوري في الطواف، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟ قال: لا، ولكنك قبضت عليّ قبضة جبّار، قال: فما يمنعك أن تأتينا يا ثوريّ؟ قال: إن الله نهى عنكم، فقال تعالى: ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار** ﴾[٣]، فمسح أبو جعفر يده به ثم التفته إلى أصحابه، فقال: «ألقينا الحبّ إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً»[٤].

---

(١) العجلي، ص ١٩٢.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٢.
(٣) سورة هود، آية: ١١٣.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٣، ص ١٦٥.

وفي موسم الحج أيضاً، أخذ أبو جعفر بتلباب الثّوري، وحوّل وجهه إلى الكعبة، فقال: «يا رب، برب هذه البنية[1]، أي رجل رأيتني»؟ قال: «بربِّ هذه البنية بئس الرجل رأيتك» وأطلق يده[2].

وأدخل الثّوري على المنصور بمنى فقال له: «اتّق الله»، فإنما أنزلت هذه المنزلة، وصرت في هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، حجّ عمر بن الخطاب، فما أنفق إلّا خمسة عشر ديناراً، وكان ينزل تحت الشجر. فقال له المنصور: «إنما تريد أن أكون مثلك؟» قال: «لا تكن مثلي، ولكن كن دون ما أنت فيه، وفوق ما أنا فيه»، فقال له: «اخرج»[3].

أ ـ دخول الثّوري وسليمان الخواص(*) على المنصور:

الملاحظ؛ أن الفقهاء والزُّهّاد كانوا يغتنمون فرصة وجود الخلفاء في موسم الحج؛ فيدخلون عليهم فيعظونهم ويخوّفونهم فيما هم فيه من الإسراف والبذخ وهدر أموال المسلمين في غير وجهها الصحيح، فكانت تأبى أنفسهم عليهم السكوت على الظلم والجور، وإذا كان بعضهم يتعفّف من الدخول على أصحاب الشأن؛ فإنني أجد أن الدخول

---

(١) يُقصَد بذلك الكعبة.

(٢) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٤٢.

(٣) محي الدين ابن عربي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، جـ١، ص ١٣٥ ـ ١٣٦، القاهرة: مكتبة السعادة، ١٩٠٦.

(*) كان سلمان الخوّاص من أصحاب الثّوري والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وإبراهيم بن أدهم، قال رجل من أهل الشام: كان سليمان الخوّاص ببيروت فدخل عليه سعيد بن عبد العزيز فقال له: ما لي أراك في الظلمة؟ قال: «ظلمة القبر أشدّ». أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٨، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

عليهم أنفع وأجدى لما لهم من تأثير فيهم، وإذا كانوا لا يأخذون بآرائهم وتوجيهاتهم، في أكثر الأحيان، فيكفيهم أنهم أدّوا الأمانة كاملة، وقاموا بما عليهم من واجبات تجاه الله وتجاه الأمة التي يناضلون من أجلها، ويكفيهم فخراً أنهم أُمناء الرُّسُل في فترة غاب فيها الأنبياء والمصلحـون.

ذكر ابن قتيبة[1] أنه لما كان أبو جعفر في الموسم الذي حجّ فيه سفيان الثّوري وسليمان الخوّاص. قال الثّوري لصاحبه: «ألا ندخل على هذا الطاغي الذي كان يُزاحمنا بالأمس في مجلس العلم عند منصور والزهري؛ فنكلمه ونأمره بحق وننهاه عن الباطل فلعل أن يقع كلامنا موقعاً ينفع الله به المسلمين ويأجرنا عليه».

فقال سليمان الخواص؛ «إني لأخشى أن يأتي علينا منه يوم سوء». فقال الثّوري: «أخاف ذلك، وإن شئت فأدخل، وإن شئت دخلت». فدخل سليمان الخواص فأمره ونهاه، ووعظه وذكره الله وما هو صائر إليه ومسؤول عنه. فقال له أبو جعفر: «أنت مقتول»! ما تقول في كذا وكذا لشيء سأله عنه من باب العلم فأجابه، فلما خرج قال الثّوري: «ماذا صنعت؟» قال: «أمرت ونهيت ووعظت وذكرت، فرضاً كان في رقابنا أديناه مع أنه لا يقبل وسألني عن مسألة فأجبته»، قال سفيان: «ما صنعت شيئاً».

ثم دخل الثّوري، فأمره ونهاه، فقال له: «ههنا أبا عبيد الله إليّ إليّ ادنُ منّي». فقال: «إني لا أطأ ما لا أملك ولا تملك فقال المنصور: يا غلام أدرج البساط، وارفع الوطاء»، فتقدّم سفيان فصار بين يديه، وقعد ليس بينه وبين الأرض شيء وهو يقول: ﴿ **منها خلقناكم وفيها**

---

(١) الإمامة والسياسة، جـ ٢، ص ٣٥٩ وما يلي.

نُعيدكم ومنها نُخرِجكم تارة أخرى ﴾، فدمعت عين أبي جعفر ثم تكلم سفيان دون أن يستأذن فوعظ وأمر ونهى وذكر وأغلظ في قوله، فقال له الحاجب: «أيّها الرجل أنت مقتول»!.

فقال الثّوري: «وإن كنت مقتولاً فالساعة». فسأله المنصور مسألة فأجابه، ثم حدّثه عن إسرافه في أموال المسلمين وإن ذلك ليس من الشريعة في شيء. وذكّره بحديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «رُبَّ متخوِّض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غداً»، فقال له أبو عبيد الكاتب[1]: «أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا»! فقال له سفيان: «اسكت فإنما أهلك فرعون هامان، وهامان فرعون»، ثم خرج. فقال أبو عبيد الكاتب: «ألا تأمر بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحد أحقّ بالقتل منه»، فقال المنصور: «اسكت فوالله ما بقي على وجه الأرض أحد اليوم يستحى منه غير هذا ومالك بن أنس»[2].

ب ـ من مواقفه الشجاعة:

حدّث صاحب تقدمة الجرح والتعديل[3] أن المنصور طلب الثّوري وألحّ في ذلك حتى قَدِمَ عليه، فلما أُدخل أقبل المنصور على

(١) هو أبو عبيد الله معاوية بن يسار من موالي الأشعريين، كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة ضمّه المنصور إليه، وكان قد عزم على أن يستوزره، لكنه آثر به ابنه المهدي، فكان غالباً على أمور المهدي لا يعصي له قولاً، فلما مات المنصور وتسلّم المهدي الخلافة فوّض إليه تدبير الدولة وسلّم إليه الدواوين. الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٨٢ وما يلي.

(٢) ابن حنبل، ص ٥٨، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، جـ ٢ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٣) ابن أبي حاتم، ص ١١٣ ـ ١١٤.

الثّوري بالملامة، فقال: تبغضنا وتبغض دعوتنا، وتبغض عترة رسول الله ﷺ؟ قال: والثّوري يقول: «سلام سلام». ثم رفع رأسه فقرأ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم **﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد، ارمِ ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذي طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصبّ عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد﴾**[1].

فنكس المنصور رأسه، وجعل ينكث بقضيب في يده الأرض. فقال سفيان: «الوضوء الوضوء»، ثم قام فخرج.

وروى صاحب العقد الفريد[2]، إن المنصور أرسل إلى سفيان يدعوه إليه، فلما دخل عليه قال: «سلني حاجتك أبا عبد الله». قال: «وتقضيها يا أمير المؤمنين؟» قال: «نعم». قال: «فإن حاجتي إليك أن لا ترسل إليّ حتى آتيك، ولا تعطيني شيئاً حتى أسألك، ثم خرج».

وقال له ذات مرة: «إني لأعلم رجلاً إن صلح صلُحَت الأمة، وإن فسد فسدت الأمة»، قال: «ومَن هو؟» قال: «أنت». ثم تركه ولم يرجع إليه[3].

جـ ـ المنصور يصمّم على التخلّص من الثّوري:

لما تأكد الثّوري أنه لا مجال لإصلاح المنصور؛ بعد أن ذهبت

---

(١) سورة الفجر، آية: ٦ ـ ١٤.
(٢) ابن عبد ربه، جـ٣، ص ٢٠٠.
(٣) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٧٧.

جميع محاولاته هباء؛ أعلن مقاطعته التي لا رجوع عنها، وتمادى في نقده لحكمه ولسياسة عمّاله. الأمر الذي حدا بالمنصور لاتخاذ قراره الحاسم والخطير، وهو يتضمن الانتقام من الثّوري ليكون عبرة لغيره من الفقهاء المعارضين لسياسته. فكتب إلى محمد بن إبراهيم ـ عامله على مكة ـ بحبس جماعة من الأعلام ومن ضمنهم الثّوري نفسه، فاستجاب لطلبه وحبسهم مدة من الزمن ثم أطلق سراحهم بغير إذن المنصور، فغضب على عامله لأنه كان يبغي التخلّص من الثّوري ومن نشاطاته التي أقلقته[١].

وأخيراً؛ أصدر المنصور أوامره بصلب هذا الإمام المجاهد. فبعث الخشّابين حين خرج إلى مكة في سنة ١٥٨/ ٧٧٤ وقال لهم: «إن رأيتم سفيان الثّوري، فاصلبوه» فجاءوا مكة، فنصبوا الخشب، ونُودي سفيان، وإذا رأسه في حجر الفُضيل بن عياض، ورجلاه في حجر سفيان بن عُيينة، فقالوا له: «يا أبا عبيد الله! اتّق الله، ولا تشمّت بنا الأعداء». فقام وتقدّم إلى أستار الكعبة فأخذها، ثم قال: «برئْتُ منه، إن دخلها أبو جعفر». فمات المنصور قبل أن يدخل مكة! فأخبر بذلك سفيان فصمت ولم يقل شيئاً[٢].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، لماذا حاول المنصور قتل سفيان الثّوري؟ هل حقاً؛ إن وجوده يشكّل خطراً على خلافته؛ وهو الرجل الزاهد الذي لا يملك من الدنيا شيئاً.

---

(١) ابن الأثير، جـ ٦، ص ٣٥، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٦٢.

(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٩. النووي، تهذيب الأسماء، ص ٢٨٨. الذهبي، أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥١. ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٤.

الملاحظ؛ إن المنصور الذي اشتهر بدهائه وحنكته السياسية؛ عرف ما للثّوري من أهمية بين معاصريه، فسعى من أجل إدخاله في حاشيته بهدف الاستفادة من علمه وخبرته في الحياة، والأهم من ذلك؛ أراد أن يلفت أنظار الناس إلى أنه يمثّل الخليفة التقيّ الذي يهتم بالرجال الصالحين، ويحرص على الاستعانة بهم، وهذا الأمر يزيد أنصاره ويعزّز مركزه كأمير للمؤمنين وخليفة للمسلمين.

ولما وجد المنصور أن هذا الأمر ضرب من المستحيل، ولا سيما أن الثّوري يتمادى في إظهار الحقيقة الخفيّة عن أعين الكثيرين، ويؤلّب الناس ضدّ الظلم والجور والقهر، ورأى أن خطره في تزايد فصمّم على الفتك به ليتخلّص من خطره فيكون عبرة لغيره، فيرتدع أصحابه عن السير على نهجه عندئذ يصفو له الجو، فيحكم البلاد دون أن يصطدم بقوة معارضة تحجم مشاريعه ومخططاته التي أُعِدّت في معظمها لصالح الأسرة الحاكمة.

٢ ـ موقف الثّوري من الخليفة المهدي:

وكما كان المنصور خلال عهده الطويل يسعى للتقرّب من الثّوري، كذلك كان خليفته المهدي، فبذل جُلّ جهده في اكتساب هذا الإمام المُصلِح، الذي آثر البُعد عنه، ولم يرضخ لضغوطاته ومُغرياته، فقد أدرك بحكم تجاربه أنه لا يمكن مصاحبة السلطان لأن في ذلك تنازلاً علنياً وفاضحاً عن نشر رسالته السامية التي وهب نفسه لإعلاء شأنها؛ ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الظلم والجور والاستبداد بالرعيّة.

ولقد أوردت المصادر(١) قصة عن صديق لسفيان الثّوري تثبت

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٠. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٢.

حقيقة المحاولات التي بذلها المهدي للتقرّب من هذا الفقيه.

قال: لما استُخلف المهدي، بعث إلى سُفيان، فلما دخل عليه؛ خلع خاتمه، فرمى به إليه وقال: «يا أبا عبد الله! هذا خاتمي، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسُنّة». فأخذ سفيان الخاتم بيده، وقال: «تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين؟» قال: نعم. قال: «أتكلم على أنّي آمن؟» قال: نعم. قال: «لا تبعث إليّ حتى آتيك، ولا تُعطني شيئاً حتى أسألك». فغضب منه المهدي، وهمّ أن يفتك به، فقال له كاتِبُهُ، أليس قد آمنته يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى. ثم عفا عنه. فلما خرج سفيان حفّ به أصحابه، فقالوا: ما منعك يا أبا عبد الله وقد أمرك أن تعمل في هذه الأمة بالكتاب والسُنّة؟ فنظر إليهم نظرة عتاب مستصغراً عقولهم، وخرج هارباً إلى البصرة.

الواضح من خلال هذه القصة، أن الثّوري قد ثبت لديه بالدليل القاطع، بعد مناظرته للمهدي، أن دعوته إلى القصر ما هي إلاّ مناورة سياسية الغاية منها جلبه إلى البلاط بهدف شراء معارضته التي سبق وأقلقت المنصور من ذي قبل. بذلك يضمن المهدي ولاء هذه الشخصية الفذّة والمتألقة على الصعيدين الديني والاجتماعي، وهذا المكسب يعود بالفائدة لصالح الخليفة؛ الذي سرعان ما يعمل على تهميش الثوري، فيصبح بذلك من ضمن حاشيته، عليه الولاء والإذعان دون أدنى اعتراض على حكمه. والأكثر من ذلك؛ يستغله كوسيلة إعلامية ناجحة تعمل بإخلاص لصالح بني العباس.

على الرغم من المواقف المتصلبة التي أبداها الثّوري تجاه الخليفة، نجد هذا الأخير يعمل على تفقّد الثّوري من حين لآخر، ويأمر بإحضاره إليه عارضاً عليه قضاء حوائجه الشخصية. ولكن الثّوري كان

يزهد بكل الإغراءات، فيطالب بحقوق الرعية ويأمره وينهاه ويخرج من قصره نظيف اليد.

ومن الملاحظ؛ أن المهدي كان يزداد إيماناً وتقرّباً من رجال الدين والعلماء كلما قصد مكة لأداء فريضة الحج. وكانت طلبته في أكثر الأحيان الإمام سفيان الثّوري، الذي كان، وبشهادة أصحابه، رمزاً للشجاعة، ورائداً في الأمر والنهي.

قال عبد الرزّاق: قَدِمنا مكة، وقَدِمها المهدي، فحضرت الثّوري وقد خرج من عنده، وهو مغضب، فقال:

أدخلت آنفاً على ابن أبي جعفر ـ يعني المهدي ـ فقال لي: يا أبا عبد الله طلبناك فأعجزتنا، فأمكننا الله منك في أحبّ المواضع إليه، فارفع إلينا حوائجك. قال: فقلت: وأيّ حاجة تكون لي إليك؟! وأولاد المهاجرين، وأولاد الأنصار يموتون خلف بابك جوعاً!!.

فقال لي أبو عبد الله ـ وزير المهدي ـ: يا أبا عبد الله! لا تكثر الفضول، واطلب حوائجك من أمير المؤمنين، فقلت:

ما لي إليه من حاجة، لقد أخبرني إسماعيل بن أبي خالد: أن عمر بن الخطاب حجّ، فقال لصاحب نفقته: كم أنفقنا حجّنا هذا؟ فقال: اثنا عشر ديناراً، قال: أكثرنا، أكثرنا، وعلى أبوابكم أمور لا تقوم لها الجبال الراسيات.

قال: فقال لي ابن أبي جعفر: يا أبا عبد الله، أفرأيت إن لم أقدر أن أُوصل إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه، فما أصنع؟.

قال: تفرّ بدينك، وتلزم بيتك، وتترك الأمر لمَن يقدر أن يوصل إلى إلى كل ذي حقٍّ حقّه.

قال: فسكت، وقال لي أبو عبد الله: أراك تكثر الفضول، إن كانت لك حاجة فاطلبها، وإلاّ فانصرف، قال: فانصرفت[1].

ويشبه هذا الموقف الشجاع ما ذكره عبد الصمد بن حسّان قال:

قال سفيان الثّوري:

«إني أُدخلت على المهدي، فقلت له: انظر عمر بن الخطاب، فقال: عمر كان له أصحاب، فقلت: فعمر بن عبد العزيز، فقد كان في فتنة، وفي ما كان فيه، فما تكلم بشيء إلا صار سُنّة، فقال: إن لم أطق؟ فقلت: اجلس في بيتك»[2].

والملاحظ؛ أن المهدي كان يتقرّب دائماً إلى الثّوري، وينشد من ذلك صحبته للاستفادة من خبراته، ولكن الثّوري كان يزداد نفوراً وبُعداً عنه بسبب حاشية السوء التي تُدير دفّة الحكم.

حدّث الثّوري عن نفسه قال: قال لي المهدي:

«أبا عبد الله! اصحبني حتى أسير فيكم سيرة العمرين ـ يعني عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز ـ قال: قلت: أما هؤلاء جلساؤك فلا، قال: فإنك تكتب إلينا في حوائجك فنقضيها. قال: والله ما كتبت إليك كتاباً قطُّ»[3].

وبلغت جرأته بين يديه أنه قال له يوماً:

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١٠ ـ ١١١.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٣.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٧٨. قابل ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

«احذر من هؤلاء الأعوان والمترددين إليك من الفقـراء، فإن هلاكك على أيديهم يأكلون طعامك، ويأخذون دراهمك، ويغشّونك ويمدحونك بما ليس فيك»[1]. فقال له عيسى بن موسى (وليّ العهد): تكلم أمير المؤمنين بمثل هذا الكلام، وإنما أنت رجل من ثور، فقال له سفيـان: إن مَن أطـاع الله من ثـور خيـر منْ مَن عصى الله من قـومك[2].

وعندما وجد الثّوري أنه لا مجال لإصلاح الخليفة وحوله بطانة السوء رجع إلى سيرته الأولى، فأخذ يختلق الأعذار ويتهرّب من الدخول عليه حتى أنه تظاهر ذات مرة بالجنون لعلّه يزهد فيه فيسلم بذلك من شرّه.

حدّث الإمام الشافعي عن ذلك فقال:

«دخل سفيان الثّوري على أمير المؤمنين فجعل يتجانّ (يتجانن) عليهم ويمسح البساط ويقول:

ما أحسنه، بكم أخذتم هذا؟ ثم قال: البول، البول»[3].

ولكن سفيان لم يَنَلْ بُغيته في البُعد عن الحكّام، فكان مُجبراً على الدخول عليهم من حين لآخر، وفي كل مرة كان يزداد جرأة وتصلباً في معاملتهم آملاً أن يكفّوا عن فسادهم، أو يتركوه وشأنه بحيث لا يرى ما فيهم من إسراف وجبروت.

رُوِيَ أنه أُدخِلَ على المهدي وبيده درْج[4] أبيض، فقال:

---

(١) الشعراني، جـ ١، ص ٥٣.

(٢) ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٨.

(٣) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٦ ـ ٧.

(٤) الدرج: الذي يكتب فيه، لسان، مادة درج، جـ ٢، ص ٢٦٩.

يا سفيان أعطني الدواة لأكتب. قال:

«أخبرني أيّ شيء تكتب فإن كان حقاً أعطيتك»[١].

وكان سفيان كثير الحطّ على المهدي وإسرافه، وقد تولى هو نفسه مهمة ردعه عن ذلك، فأخذ يشجّع الناس على التعرّض بسياسته، وراح أصحابه يتقصّون أخبار الداخلين على الخليفة، وينقلون إليه المناظرات التي تدور داخل جدران القصر، ويعرضونها عليه ليبتّ بصحّتها.

قيل له مرة: إن فلاناً يدخل على المهدي ويقول:

أنا في خلاص من تبعاته. فقال:

«كذب والله، وأما رأي إسرافه في ملبَسه ومأكله، وملبَس خدمه، وخيله ورجاله، هل قال له قطُّ يوماً: إن هذا لا يليق بك، هذا من بيت مال المسلمين»[٢].

ومع تباعد سفيان عن المهدي راح هذا الأخير يتمنى قدومه عليه، وقد عبّر عن ذلك عندما قابله عصام خير فقال له: «لو جاءنا أبو عبد الله لوضعنا أيدينا في يده وارتدينا برداء واتّزرنا بآخر وخرجنا إلى السوق فأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر»[٣].

فحينما نقل هذا الموقف لسفيان قال: «لو عمل بما يعلم لكان لا يسعنا ألاّ نذهب فنعلّمه ما لا يعلم»[٤].

---

(١) المنّاوي، الكواكب الدريّة، جـ ١، ص ١١٧.
(٢) الشعراني، الطبقات، جـ ١، ص ٥٣.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٣. تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٩.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٩. محمد بن الحاج، المدخل، جـ ٣، ص ١٢٩، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٢. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٣.

مهما يكن من أمر، فإنه بسبب هذه المواقف الجريئة، غضب المهدي عليه ولاحقه من مكان إلى آخر، ووضع جائزة قيّمة لمَن يلقي القبض عليه.

ذكر ابن سعد في طبقاته[1]، أنه لما طلب سفيان فخرج إلى مكة، فكتب المهدي إلى عامله على مكة بالقبض عليه، فبعث هذا الأخير إلى سفيان فأعلمه ذلك وقال: «إن كنت تريد إتيان القوم فاظهر حتى أبعث بك إليهم، وإن كنت لا تريد ذلك فتوارَ». قال: فتوارى سفيان، وطلبه عامل مكة وأمر منادياً فنادى بمكة: «مَن جاء بسفيان فله عشرة آلاف»، فلم يزل متوارياً بمكة لا يظهر إلاّ لأهل العلم ومَن لا يخافه. ويؤكد أخبار تلك المحنة التي مرّت على الثّوري ما حدّث به عصام خير فقال:

«حججنا مرة والمهدي معنا، وقد هرب سفيان، فخرجنا من منى على حمار وأنا أسوقه، فلما حاذى بنا المهدي في خيله؛ مازحته، فقلت: أُنادي فأقول: هذا سفيان! فقال: يا ناعس! اسكت لا يسمع إنسان»[2].

والثابت؛ أنه لأجل الطلب هرب سفيان إلى اليمن[3]، وقد حدّث هو عن المعاناة التي عاشها في أيام المهدي فقال:

«طلبت في أيام المهدي فهربت فأتيت اليمن، فكنت أنـزل في حيّ وآوي إلى مسجدهم، فسُرِقَ ذلك الحيّ فاتّهموني، فأتـوا بي إلى معن بن زائـدة[4]، ـ وكان قـد كُتِبَ إليه في طلبي ـ فقيـل له: إن هـذا قـد

(١) جـ ٦، ص ٣٧٢.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٦.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.
(٤) هو معن بن زائدة بن مطر بن شريك بن الصّلت، وبنوه عبد الله، والفضل، =

سرق متاعنا، فقال: لِمَ سرقت متاعهم؟ فقلت: ما سرقت شيئاً. فقال لهم: تنحّوا لأسأله، ثم أقبل عليّ، فقال: ما اسمُك؟ قلت: عبد الله بن عبد الرحمن، فقال: يا عبد الله بن عبد الرحمن: ناشدتك بالله؛ لما نسبت لي نسبك؟.

فقلت: أنا سفيان بن سعيد بن مسروق، فقال: الثّوري؟ قلت: الثّوري. قال: أنت بُغية أمير المؤمنين؟ قلت: أجل.

فأطرق ساعة ثم قال: ما شئت فأقم، وارحل متى شئت، فوالله لو كنت تحت قدمي ما رفعتها»[1].

ثم بلغ البحث عنه أشدّه، فأخذ سفيان يرحل إلى البصرة حيث نزل في بعض البساتين، وأجّر نفسه على أن يحفظ ثمارها، فمرّ به بعض العشارين فقال له: «من أين أنت يا شيخ؟» قال: «من أهل الكوفة»، قال: «أخبرني، أرُطَبُ البصرة أحلى أن رُطَب الكوفة؟» قال: «أما رُطَب البصرة فلم أذقه، ولكن رُطَب السابري بالكوفة حلو»، فقال:

«ما أكذبك من شيخ، الكلاب والبرّ والفاجر يـأكلون الرُطَب الساعة وأنت تزعم أنك لم تذقه!» فرجع إلى العامل ليخبره بما قال لتعجّبه، فقال: «ثكلتك أُمك! أدركه، إن كنت صادقاً، فإنه سفيان الثّوري، فخذه لنتقرّب به إلى أمير المؤمنين المهدي»، فرجع في طلبه فما قدر عليه[2].

= وزائدة؛ أخذ زائدة هذا في الزندقة أيام المهدي ثم تاب فأطلق سراحه. انظر؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٢٦.

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ١٣. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٨. الذهبي، أعلام، ج ٧، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

وعلى الرغم، من الحالة التي وصل إليها الثّوري فقد ظلّ حتى آخر حياته عنيداً في إحقاق الحق، شديداً على الوُلاة لا يخاف في الله لومة لائم.

روى ابن أبي حاتم[1] بسنده عن حمّاد بن زيد قال: «دخلت على سفيان الثّوري وهو مُختَفٍ بالبصرة فقال: قد ملّني أصحابي، وما أراني إلا صائراً إليه ـ يعني الخليفة ـ وواضع يدي في يده»، قلت: وماذا أنت قائل له؟ قال: أقول: «اعتزل هذا الأمر فلست من شأنه».

وأخيراً، وبعد هذا الصراع المرير، بين إمام الدنيا وإمام الدين، استرجع المهدي وقال: «قد أمنَ الناس إلا سفيان الثّوري»[2].

من رسائل الثّوري إلى المهدي:

الواضح؛ من خلال ما ورد في المصادر، أنه كان للثّوري مراسلات مع الخليفة المهدي وهي خير شاهد على أنه ظلّ وفيّاً لرسالته[3]، شديداً في أمره ونهيه، مخلصاً لأمته وهذا هو سرّ خلوده.

قال يحيىٰ بن سعيد: أملى عليّ سفيان إلى المهدي:

من سفيان بن سعيد إلى المهدي . . ، فقلت: لو بدأت به، قال: فأبى وقال: اكتب كما أقول. قال أبو الوليد: فاحتججت عليه بكتابه إلى عثمان بن زائدة، وأنه بدأ بعثمان فقال: «كان عثمان رجلاً صالحاً»[4].

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١١.
(٢) العجلي، تاريخ الثقات، ص ١٩٣.
(٣) انظر المزيد من رسائل الثّوري في الملحق رقم (١).
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١٠.

وهذا يعني أنه لم يجد في المهدي الخير والصلاح، والخليفة الورع الذي هو أهل للتكريم والاحترام، لذا بدأ بنفسه متحدياً جبروته وهيبته، وغامزاً في قناته أنه هو أحق بالتقدير من صاحب التاج والعرش.

وأخيراً استقرّ رأي الثّوري على الخروج إلى بغداد، فكتب إلى المهدي قائلاً: «طردتني وشرّدتني وخوّفتني، والله بيني وبينك، وأرجو أن يخيّر الله لي قبل رجوع الجواب» فأتاه جواب كتابه بما يحبّ من التقرّب والكرامة والسمع والطاعة. فكان على الخروج إليهم، فحُمّ ومرض مرضاً شديداً وحضره الموت[1].

٣ ـ موقفه من الأمراء العباسيين:

وكما كان الثّوري عنيداً إزاء الخلفاء، كذلك كان جريئاً وشديداً في معاملته للأمراء والعمّال؛ فهو يأبى كل الإباء الدخول عليهم، كما أنه يرفض بعناد استقبالهم. وإذا ما وجد نفسه أمام الأمر الواقع؛ تجاهل وجودهم وأنف من محادثتهم.

روى فضل بن مهلهل؛ أنه خرج حاجّاً مع سفيان الثّوري، فلما وصلا إلى مكّة انضمّ إليها الأوزاعي، فاجتمعوا في دار واحدة. واتفق أنه كان على الموسم عبد الصمد بن علي الهاشمي، وبينما هم في خلوتهم إذ دقّ داقٌ الباب، فقال أحدهم: مَن هذا؟ قال: الأمير.

فقام الثّوري، فدخل المخرج، وقام الأوزاعي فتلقّاه.

فقال له عبد الصمد بن علي: «من أنت أيها لشيخ؟» قال: أبو عمر والأوزاعي. قال: «حيّاك الله بالسلام، أما إن كتبك كانت تأتينا، فكنّا نقضي حوائجك، ما فعل سفيان الثّوري؟».

---

(١) ابن سعد، جـ٦، ص ١٧٦. حلية الأولياء، جـ٧، ص ٤٥.

قال: «دخل المخرج»، فدخل الأوزاعي في أثره، فقال: «إن هذا الرجل ما قصد إلّا قصدك». فخرج سفيان مقطّباً، فقال:

«سلام عليكم، كيف أنتم؟».

قال له عبد الصمد: «يا أبا عبد الله، أتيتك أكتب هذه المناسك عنك».

قال له سفيان:

«أولًا أدلُّك على ما هو أنفع لك منها؟».

قال: «ما هو؟».

قال: «تدع ما أنت فيه؟».

فقال: «وكيف أصنع بأمير المؤمنين أبي جعفر؟».

قال: «إن أردت الله، كفاك أبا جعفر».

فقال له الأوزاعي بعد انصراف الأمير: «يا أبا عبد الله، إن هؤلاء قريش ولا يرضون منّا إلا بالإعظام لهم». فقال له:

«يا أبا عمرو، إنّا لسنا نقدر أن نضربهم، وإنما نؤدّبهم بمثل هذا الذي ترى».

قال المفضّل: «فالتفت إليّ الأوزاعي فقال لي:

«قم بنا من ههنا، فإنّي لا آمن أن يبعث هذا ـ الأمير ـ مَن يضع في رقابنا حبالاً، وأرى هذا ـ سفيان ـ ما يُبالي»[1].

---

(١) المعرفة والتاريخ، جـ١، ص ٧٢٥. الخطيب البغدادي، جـ ٩، ص ١٥٨ ـ ٥٩. الذهبي، الأعلام، جـ٧، ص ٢٦١ ـ ٦٢.

وبلغ الثّوري من علوّ القدر والمقام عند الإسراء حتى أنهم كانوا يعودونه أثناء مرضه، وعلى الرغم من ذلك ما كان يبالي بحضورهم وجلوسهم بين يديه وسؤالهم عن أحواله، وكان أكثر الذين يترددون عليه الأمير عبد الصمد.

ذكر الذهبي[1]، أن عبد الصمد بن علي عمّ المنصور، دخل على سفيان يعودُه، فحوّل وجهه إلى الحائط ولم يردّ عليه السلام، فقال عبد الصمد لأحد جلساء سفيان: يا شيخ! أظن أبا عبد الله نائماً.

قال: أحسب ذلك ـ أصلحك الله ـ.

فقال سفيان: لا تكذب، لست بنائم.

فقال عبد الصمد: يا أبا عبد الله! لك حاجة؟ قال: نعم، ثلاث حوائج: لا تعود إليّ ثانية، ولا تشهد جنازتي، ولا تترحّم عليّ.

فخجل عبدُ الصمد وقام، فلما خرج قال:

«والله لقد هممتُ أن لا أخرج إلا ورأسُه معي».

أمير آخر جاء إلى سفيان عائداً فعامله بقساوة كما عامل الأمير عبد الصمد الهاشمي، وهذا دليل آخر؛ على أن الثّوري لم يتبدل أو يلين حتى وهو في النَّزْع الأخير.

حدّث وهب بن إسماعيل قال:

كنت بمكة مع سفيان الثّوري والأوزاعي، فمرض سفيان فأتاه محمد بن إبراهيم ـ عامل مكة ـ يعوده فلما قيل له: هذا محمد بن إبراهيم، قام فدخل الكنيف فما زال فيه حتى استحييت من طول ما

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٤.

قعد، ثم خرج فجاء فقال:

سلام عليكم، كيف أنتم؟ وطرح نفسه ومحمد جالس، فحوّل وجهه إلى الحائط، فما كلّمه حتى خرج من عنده، فلما كان من الغد بعث إليه يُقرئه السلام ويقول:

«كيف تجدك لولا أنّي أعلم أنه ليس بمكة أحد أبغض إليك منّي لأتيتك»(١).

من جهة أخرى، كان يستأنس الثّوري ببعض الولاة، بخاصة بعد أن يمتحنهم وتظهر له حقيقة نواياهم وهذا الأمر يجعلنا نتريث قبل الحكم على وُجهاء القوم.

حدّث وكيع بن الجرّاح قال: دخل الوالي عُمر بن حوشب على سفيان، فسلّم عليه، فأعرض عنه، فقال: يا سفيان! نحن ـ والله ـ أنفعُ للناس منك، نحن أصحاب الدِّيات، وأصحاب الحمالات، وأصحابُ حوائج الناس والإصلاح بينهم، وأنت رجل نفسك. فأقبل عليه سُفيان، فجعل يُحادثُه، ثم قامَ، فقال سُفيان: «لقد ثقل عليّ حين دخل، ولقد غمّني قيامه من عندي حين قام»(٢).

أ ـ رفضه بِرّهم وعطاياهم:

وكما كان الثّوري يفرّ من مخالطة الخلفاء والأمراء ما استطاع لذلك سبيلاً، نجده هنا، عزيز النفس، زاهداً ورعاً، يتعفّف عن أخذ عطاياهم، فهو يتركها غير آسف عليها؛ بل يفرّ منها هنا وهناك لينجو من إثمها لأنها، في مبدئه، غلول وأصفاد.

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٦.

لهذا حذّر من قبول أموالهم أو التبسّم في وجوههم، وحتى من النظر إليهم فقال:

«القبول مما في أيديهم من استحلال المحارم، والتبسّم في وجوههم علامة الرضا بفِعالهم، وإدمان النظر إليهم يُميت القلب»(١).

وكان يكره أن يأخذ منهم شيئاً لأن «.. الرجـل ليستعير من السلاطين الدابّة والسرج واللجام فيتغير قلبه لهم»(٢) فكيف إذا أخذ الذهب والفضّة عندها تبدأ حياة الذلّة والمهانة وعصيان الخلف لأنه لم يعد يرى سيئاتهم سيئة، لهذا كله رفض سفيان العطاء، وتورع عن أخذه، حتى ولو كان من المال الحلال، فسُمِعَ يقول: «مَن أخذ من ظالم كراعاً أو مالاً أو سلاح فغزا به في سبيل الله لُعِنَ بكل قدم يرفعها ويضعها حتى يرجع»(٣).

وحدّث سفيان بن عُيينة فقال: إن أمير مكّة محمد بن إبراهيم الهاشمي، بعث إلى الثّوري بمائتي دينار، فأبى أن يقبلها، فقلت له: يا أبا عبد الله كأنك لا تراها حلالاً؟ قال:

«بلى ولكن أكره أن أُذَلّ»(٤). ولما هرب إلى اليمن، آمنه معن بن زائدة وأمر له بألف دينار فأبى أن يقبلها كذلك(٥).

ومما يؤكد موقف الثّوري هذا ما ذكره حميد بن عبد الرحمن قال:

---

(١) ابن حنبل، الورع الورع، ص ٦٠.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤١.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٧، ص ١٣.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١١٤.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٦.

«كان سفيان ذكر له أنه أُنفذ له مال، فقام فخرج على وجهه»[1].

ولقد أثنى على الثّوري أكثر من واحد مُظهِرين، من خلال ذلك، الفرق الشاسع بينه وبين سائر الفقهاء.

قال أبو بكر الحنفي:

«العجب من أقوام يميلون بين مِسعر وسفيان. أرسل صاحب الشرطة إلى مِسعر أن لك في هذا المال شيئاً؛ فذهب ثلاث فراسخ حتى أخذها، وسفيان تُعرَض عليه الدنيا فيفرّ منها»[2].

وأخيراً تأتي شهادات واعترافات كبار القوم لتُظهِر حقيقة الرجل الذي حيّر الجميع بعفّته وعلوّ همّته وطهارة نفسه وترفّعه عن المادة.

قال أبو جعفر المنصور: «ألقينا الحبّ إلى العلماء فلقطوا؛ إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً»[3].

وقال أبو عبيد الله وزير المهدي:

«ما أعلقنا مخالينا هذه في عنق أحد إلا قضم منها إلا سفيان الثّوري»[4].

ب ـ موقفه من الذين قبلوا عطاء الحكّام:

والثابت؛ أن الثّوري لم يكن مقاطعاً للحكّام فحسب، وإنما كان

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ١١٤ ـ ١١٥.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٤٥.
(٣) ابن عبد ربه، جـ ٣، ص ١٦٥.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠٦.

ينفر من الذين يدخلون عليهم، ويأخذون من مالهم، حتى ولو كانوا من خاصّته.

روى الخطيب البغدادي في تاريخه[1] أن أبا جعفر الرازي كان زميلاً للمهدي إلى مكة، وكان صديقاً لسفيان الثّوري وله معه بضاعة، فكان يُكثِر الحجّ ويقدم بغداد، فإذا وصل إلى الكوفة تلقاه سفيان إلى القنطرة، وإذا خرج إلى مكة شيّعه إلى النجف[2]، وفي إحدى السنين قَدِمَ الرازي بغداد، فاجتمع إليه الأضرّاء وتوسلوا إليه أن يكلّم أمير المؤمنين فإنه قد ولّى عليهم رجلاً يقتطع أرزاقهم. فلم يُجِبْهم إلى ذلك، فبلغ الخبر سفيان فتلقاه أسفل القنطرة، وشيّعه حتى جاوز النجف، وزاره في البرّ.

وفي العام التالي، اجتمع إليه الأضرّاء فحدّثوه بمشاكلهم مع كاتبهم، فرقّ لحالهم، فأتى باب الذهب، واستأذن على المنصور بالدخول فعجّلوا بإدخاله لما له من قدر عند الخليفة، وأكرمه غاية الإكرام، وجعل يسأله عن أحواله، ثم سأله إذا كان له حاجة؟ فعرض عليه أمر الأضرّاء وما يعانون من الظلم، فأخذ بقوله وقال: «يعزل عنهم كاتبهم ويولّى عليهم مَن أحبّوا». وأمر للرازي بعشرة آلاف لسؤاله إياه هذه الحاجة.

فلما صارت الدراهم في يده علم أنه أخطأ، فجلس بسور القصر ثم دعا بخِرَق فجعلها صُرَراً وفرّقها على قوم، وقام ينفض ثوبه وليس معه منها شيئاً فبلغ ذلك سفيان الثّوري، فلما دخل الرازي الكوفة توارى

---

(١) تاريخ بغداد، جـ ١١، ص ١٤٤ ـ ١٤٦.
(٢) النجف: تقع بالقرب من الكوفة وفيها قبر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب. معجم البلدان، جـ ٥، ص ٢٧١.

الثّوري، فطلبه الرازي فلم يقدر عليه فأشار عليه أحد أصحابه أن يكتب إليه كتاباً يشرح فيه ما حدث. فكتب كتاباً ودفعه إليه.

فقصد الرجل سفيان فإذا هو في غرفة مستلقٍ على قفاه، وقد وضع رجله على الأخرى مستقبل القبلة، فسلّم عليه وأظهر الكتاب فقال: صَه؛ فقال: كتاب أبي جعفر الرازي، فقال: اقرأه. فقرأه له، فقال سفيان: اكتب جوابه على ظهره، فكتب:.

«بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكان يعتدون ﴾[1].

اردد إلينا بضاعتنا لا حاجة لنا في أرباحها».

فحمل الكتاب إلى الرازي، واجتمع رأي الناس على أنهم يوجهون بالكتابين إلى ابن أبي ليلى ولا يعلمونه ممّن الكتاب. ولا مَن صاحب الجواب، ليعرفوا ما عنده من الرأي، فنظر فيهما فقال:

«أما الأول، فكتاب رجل مداهن ـ يعني الرازي ـ وأما الجواب، فكتاب رجل يريد الله بفعله ـ يعني الثّوري ـ.

جـ ـ موقفه من هدايا الناس:

الواضح؛ من خلال ما أوردته المصادر من قصص وإشارات عن الثّوري وموقفه من الهدايا، أنه كان يرفض قبول الهدية من بعض الناس، ويقبلها من البعض الآخر ويثيب عليها[2]، من ذلك ما

---

(١) سورة المائدة، آية: ٧٨.

(٢) كان الثّوري يفعل ذلك تأسياً برسول الله ﷺ، فقد كان يقبل الهدية ويُثيب عليها.

رواه مـت البلخي إذ قال:

أهديت لسفيان الثّوري ثوباً فردّه عليّ. فقلت له:

يا أبا عبيد الله لست أنا ممّن يسمع الحديث حتى تردّه عليّ، قال: «علمت أنك لست ممّن يسمع الحديث، ولكن أخاك يسمع الحديث، فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره»[1]. وأتاه رجل بصُرّة فيها ألف دينار فرفض أن يقبلها[2].

وعن الهدايا التي قبلها حدّث قبيصة بن عقبة فقال: «أهديت إلى سفيان الثّوري شيئاً فقبله منّي ثم صحبني بقصعة أرز يحملها»[3].

وشوهد الثّوري يوماً في سوق الحنّاطين وكان يحدّثي أحد أصحابه ويقول له:

«إن ابنيّ عمتي الطفاني وأكثرا من اللطف، وقد ذهبت إلى صاحب بضاعتي فأخذت دينارين أُريد أن أشتري بهما لهما حنطة فأهديهما لهما»[4].

فهذه هي الصورة المثالية للزهد الحقيقي والممثّل في شخص سفيان الثّوري، الإمام القدوة الذي أعطى كل شيء لأبناء مجتمعه، أعطى الحلم والعلم والورع والصفات الحميدة، ولم يأخذ بالمقابل أدنى شيء، لأن الدنيا، في نظره، لا تساوي جناح بعوضة ومن الشهامة أن لا نستذلّ من أجلها، وكان إذا أخذ من أحد أصحابه أعاد الهدية

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٣.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٠١.
(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٥٩، ٧٦.
(٤) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٥٩.

أضعاف مضاعفة بذلك ترتاح نفسه ويزكّي أمواله.

من هذا المنطلق؛ فهو يأبى كل الإباء أن يدنّس ماله الحلال الذي وقفه للتجارة، بمال السلطان الذي فيه من مال الحرام؛ لأنه غصب من الجباه الكادحة التي تصارع الحياة من أجل لقمة العيش.

وهكذا عاش سفيان شريفاً كريماً نظيف اليد واللسان، وظل طوال حياته زاهداً في مناصب السلطان؛ رافضاً لكل مغرياته وعروضه، أميناً لمبادئه وآرائه، السامية حتى نهاية حياته.

الفصل الخامس

نهاية الثّوري وأهميته بشهادة معاصريه

١ - مع رحلة الوفاة.
٢ - الرؤى للثّوري بعد وفاته.
٣ - قدره وهيبته، وثناء الأئمة عليه.

١ - مع رحلة الوفاة:

لما خاف الثّوري بمكة من الطلب، بعد أن وُضِعت المراصد حول البيت العتيق، بأمر من الخليفة المهدي، خرج إلى البصرة، فقَدِمها وقد جعل قميصه خريطة ملأها كتباً[١]، فنزل قرب منزل يحيىٰ بن سعيد القطّان، فقال لبعض أصحاب الدار: أما قُربكم أحد من أصحاب الحديث؟ قالوا: بلى يحيىٰ بن سعيد، قال: جئني به، فأتاه به فقال: أنا هاهنا منذ ستّة أيام أو سبعة. فحوّله يحيىٰ إلى جواره، وفتح بينه وبينه باباً، فكان يأتيه بمحدّثي أهل البصرة، يسلّمون عليه، ويسمعون منه، فكان فيمن أتاه: جرير بن حازم، والمبارك بن فُضالة، وحمّاد بن سَلَمة، ومرحوم العطّار، وحمّاد بن زيد، وأتاه عبد الرحمن بن مهدي ولزمه، فكان يحيىٰ وعبد الرحمن يكتبان عنه تلك الأيام[٢].

ولما عرف الثّوري أنه اشتهر مكانه ومقامه، قال ليحيىٰ: حوّلني،

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات، جـ ٦، ص ٣٧٣. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٥.

فحوّله إلى منزل الهيثم بن منصور، فلم يزل فيه[1] فكلّمه حمّاد بن زيد في تنحّيه عن السلطان، وقال: هذا فعل أهل البدع، وما تخاف منهم. فأجمع سفيان وحمّاد على أن يقدما بغداد، وكتب سفيان إلى المهدي وإلى يعقوب بن داود الوزير، فأتاه جوابُ كتابه بما يُحب من التقرّب والكرامة، والسمع منه والطاعة، فكان على الخروج إليه، فحُمّ ومرض مرضاً شديداً وحضره الموت[2] وكان به البطن، فسمعه عبد الرحمن بن مهدي يقول: «ذهب التستّر، ذهب التستّر»[3]، وأخذ يُكثر من قول: «اللّهمّ سلّم، سلّم ربّ بارك لي في الموت، وفيما بعد الموت»[4]. ثم يقول: «ليتني قد مُتّ، ليتني قد استرحت، ليتني في قبري»[5].

ولما اشتد الوجع بالثّوري، قرر أصحابه أن يعرضوا حالته على المتطببين، فقام بهذه المهمة علي بن حمزة ـ ابن أُخت سفيان ـ الذي شرح وضع خاله بقوله:

«ذهبت ببوله في قارورة إلى الديراني ـ يعني الطبيب ـ وكان لا يخرج من باب الدير، فأريته إياه فقال: بول مَن هذا؟ ينبغي أن يكون هذا بول راهب، وليس بول حنفي».

فقلت: «بلى والله، من خيّارهم. قال: فأنا أجيء معك إليه، فقلت لسفيان: قد جاء بنفسه، قال: أدخله فأدخلته، فمسّ بطنه، وجسّ

---

(١) في رواية ابن حبّان، أنه نزل في دار عبد الرحمن بن مهدي ومات هناك. مشاهير علماء الأمصار، ص ١٦٩.
(٢) ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧٣. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٥.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٧١.
(٤) ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧١، تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٥.
(٥) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧١.

عرقه، ثم خرج».

فقلت: «أي شيء رأيت؟ قال: ما ظننت أن في الحنفية مثل هذا، هذا رجل قد فتّت الحزن كبده، ما أرى له دواء»[1].

مهما تكن حقيقة هذه القصة التي ذكرتها معظم المصادر؛ فهي تهدف إلى إظهار الثّوري على أنه وحيد عصره، ولا مثيل له بين المسلمين، كذلك يلاحظ؛ غمزة واضحة ترمي إلى رفع قدر أهالي الديارات على حساب الزهّاد المسلمين الذين لا يوجد فيما بينهم ـ حسب زعم المتطبّب ـ مَن يوازي النسّاك والرهبان.

بعد ذلك؛ لاحت النهاية أمام سفيان، فجعل يبكي، فقال له رجل: «يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب»، فرفع شيئاً من الأرض فقال: «والله لذُنوبي أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أُسلَب الإيمان قبل أن أموت»[2]. ثم قال: «لو كانت نفسي بيدي لأرسلتها»[3]، ولما عاوده الوجع قال: يا موتُ، يا موتُ، ثم قال: «لا أتمناه، ولا أدعو به»، وكان يخدمه في هذه الأثناء عبد الرحمن بن مهدي فقال: «كنت أخدمه وأدعُ الجماعة، فسألته، فقال: خِدمةُ مسلم ساعةً أفضل من صلاة الجماعة،

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٢. العقد الفريد، جـ٣، ص ١٧٠ ـ ١٧١. حلية الأولياء، جـ٧، ص ١٤، ٢٣. تاريخ بغداد، جـ٩، ص ١٥٨. صفة الصفوة، جـ٣، ص ٩٩. أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٧٠. وأورد صاحب المعرفة والتاريخ قصة مختلفة عن التي أوردناها، فيذكر فيها أن المتطيّب هو راهب من ناحية الحيرة، وبعد فحصه لسفيان قال: «ليس بصاحبكم مرض إنما الذي به لما داخَلَه من الخوف»، جـ١، ص ٧٢٦.

(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ٣، ص ٩٩.

(٣) حلية الأولياء، جـ٧، ص ١٢.

فقلت: ممّن سمعت هذا؟ قال: حدّثني عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: «لأن أخدم رجلاً من المسلمين على علةٍ يوماً واحداً، أحبُّ إليّ من صلاة الجماعة ستّين عاماً، لم يَفُتني فيها التكبيرة الأولى»(١).

ولما احتُضِرَ، بكى وجزع، فقال له مرحوم بن عبد العزيز: «يا أبا عبد الله ما هذا الجزع؟ إنك تقدم على الربّ الذي كنت تعبده، فسكن وهدأ»(٢)، ثم قال: «ما أشدّ الغربة، انظروا من هاهنا من أهل بلادي»(٣)، فأرسلوا إلى عبادان، فقَدِمَ عليه أفضل رجلين من أهل الكوفة، عبد الرحمن بن عبد الملك، والحسن بن عياش أخو أبي بكر بن عياش، فأوصى إلى الحسن بن عياش في تركته(٤)، وفي رواية أخرى أنه جعل كل شيء له، لأخته وولدها(٥) لأنه لم يُعقّب، كان له ابن فمات قبله(٦) ولم يورث أخاه المبارك بن سعيد شيئاً(٧). وأوصى إلى عبد الرحمن بن عبد الملك بالصلاة عليه. فقال له أصحابه: أين نذهب بك؟ قال: «اغسلوني وكفّنوني وضعوني على السرير واحملوا

---

(١) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٠.
(٢) ابن سعد، جـ ٦، ص ٢٧٣. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٥.
(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٠.
(٤) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦١.
(٥) ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧٢ وحسب رواية ابن النديم أنه أوصى إلى عمّار بن سيف في كتبه، ص ٣١٥.
(٦) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٢.
(٧) ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧٢. توفي المبارك بن سعيد سنة ١٨٠/٧٩٦ ببغداد وكان ضريراً. ابن العماد، جـ ١، ص ٢٩٤. وحسب رواية ابن حبّان، أنه كان لسفيان ثلاثة أخوة هم (المبارك وحبيب وعمر). مشاهير علماء الأمصار ص ١٦٩.

فيما بينكم السرير[1]. ثم جزع وبكى، فقال له عبد الرحمن بن مهدي: يا أبا عبد الله! ما هذا البكاء؟! قال: يا عبد الرحمن، لشدة ما نزل بي من الموت، الموت ـ والله ـ شديد». قال عبد الرحمن: فمَسِسْته، فإذا هو يقول: «رُوحُ المؤمن تخرج رشحاً، فأنا أرجو». ثم قال: «الله ارحم من الوالدة الشفيقة، إنه جوادٌ كريم، وكيف لي أن أُحِبَّ لقاءه، وأنا أكره الموت». فبكيت حتى كدتُ أن أختنق، أخفي بكائي عنه، وجعل يقول: أوه...، أوه من الموت[2].

قال عبد الرحمن: ما سمعته يقول: أوه، ولا يئن، إلا عند ذهاب عقله، ثم قال: مرحباً برسول ربّي، ثم أُغمي عليه، ثم أُسكت حتى أُحْدَث، ثم أُغمي عليه فظننتُ أنه قد قضى، ثم أفاق، فقال: يا عبد الرحمن! اذهب إلى حمّاد بن سلمة، فادْعُه لي، فإني أُحبُّ أن يحضُرني وقال لقنّي قول: لا إلّه إلّا الله، فجعلت أُلقِّنُه[3].

قال عبد الرحمن: وجاء حمّاد مسرعاً حافياً، وما عليه إلا إزار، فدخل وقد أُغمي عليه، فقبّل بين عينيه، وقال: بارك الله فيك يا أبا عبد الله. ففتح عينيه، ثم قال: أي أخي، مرحباً، ثم قال: يا حمّاد! خذ حِذرك، واحذر هذا المصرع فقال له حمّاد: أبشر فقد نجوت مما كنت تخاف. وتقدّم على رب كريم، فقال: يا أبا سلمة أترى الله أن يغفر لمثلي؟ قال: إي والله الذي لا إلّه إلّا هو. قال مَن حضر: فكأنما سُرِّي عنه[4].

---

(1) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٥٣.
(2) أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٥٠.
(3) المصدر نفسه، جـ٧،ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.
(4) صفة الصفوة، جـ٣، ص ٩٩.

وكان الثّوري خلال تلك اللحظات الحرجة متمسكاً بوجود صديق عمره عبد الرحمن بن مهدي الذي قال؛ كان يقول لي سفيان في كل يوم: كيف تراني اليوم؟ فأقول: صالحاً. فلما كان اليوم الذي مات فيه، ذهبت لأخرج إلى صلاة العصر، فقال: تدعني على هذه الحال وتخرج. قال: فصلّيت عند رأسه[1]. وأضاف ابن مهدي قائلاً: ليلة مات سفيان، توضأ تلك الليلة للصلاة ستّين مرة، فلما كان وجه السحر قال لي: يا ابن مهدي ضع خدّي بالأرض فإني ميت يا ابن مهدي[2]، وقبل أن يفارق الدنيا كانت أُمنيته الأخيرة أن يستأنس بترتيل القرآن الكريم، فقال: يا ابن مهدي: «اقرأ عليّ يّس فإنه يُقال تخفّف عن المريض. قال ابن مهدي: فقرأت عليه فما فرغت حتى طفىء»[3]، فخرجت لأُعلِم حمّاد بن زيد وأصحابه، فإذا هم قد استقبلوني فقالوا: آجرك الله. فقلت: من أين علمتم ذلك؟ فقالوا: إنـه ما منّا أحد إلا أُتي البارحة في منامه فقيل له: «ألا إن سفيان الثّوري قد مات»[4]. وكان ذلك في شعبان سنة ١٦١/٧٧٨[5] وهو ابن أربع وستّين سنة[6].

بعد ذلك: تولّى غسل جثمانه كلٌّ من عبد الرحمن بن مهدي

---

(١) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧٢٣ ـ ٧٢٤.
(٢) صفة الصفوة، جـ ٣، ص ٩٩.
(٣) المعرفة والتاريخ، جـ ١، ص ٧٢٣ ـ ٢٤.
(٤) صفة الصفوة، جـ ٣، ص ٩٩.
(٥) تاريخ ابن معين، جـ ١، ص ٣٤٨، كذلك أرّخه ابن الأثير في الكامل، جـ ٦، ص ٥٦. والذهبي في العِبَر، جـ ١، ص ٢٣٥، ووهم خليفة بن خياط في تاريخه، فقال: مات سنة اثنتين وستّين. حقّقه أكرم العمري، جـ ٢، ص ٤٦٨، ط ١، بغداد: مطبعة الآداب في النجف، ١٣٨٦/١٩٦٧.
(٦) ابن النديم، ص ٣١٥، ابن حجر، تقريب التهذيب، ص ٢٤٤.

ويحيى بن سعيد[1] ثم كفّن بثيابه ـ وفق وصيّته ـ وحمل أصحابه السرير فوضعوه بباب مسجد الجامع، فجاء والي البصرة[2] فكشف عن وجهه[3] وقبّله بين عينيه ثم قال: دعوني أُكفّنه، فقال له أصحابه: إنه أوصى أن يكفّن في ثيابه التي كانت عليه، فأصرّ على موقفه فغاصه في الكافور، وكفّنه فوق ثيابه بكفن بستّين ديناراً، وقيل قوم بثمانين ديناراً[4]، ثم كتب إلى الخليفة المهدي:

«إني وجدت سفيان على سرير مفروغاً من غسله وكفّنه، فغصته في الكافور أنتظر ما تأمر فيه» قيل فوقع على الماء ألف سمّاري[5].

وهنا بدأ أصحابه يشيّعونه بما يختلج في صدورهم من شعور صادق، وتقدير واحترام للإمام الكبير الذي افتقدته الأمة بأجمعها.

حدّث ضمرة قال: نظر حمّاد بن زيد إلى سفيان مسجّى بثوب على السرير، فقال: «يا سفيان ليس أغبطك اليوم بكثرة الحديث؛ إنما أغبطك بعمل صالح قدّمت»[6]. وبكاه عثمان بن زائدة وقال: «بسفيان أقتدي، وعليه أبكي»[7].

---

(١) المناوي، الكواكب الدريّة، جـ ١، ص ١١٧.
(٢) قال حمّاد بن زيد: كان يلقاني جعفر بن سليمان بن علي والي البصرة، فيقول لي: تراني لا أعرف أين سفيان، هو عند فلان في بيت كذا ـ لا يخطىء ـ ويقول: لا، عَلِمَ الله أنّي لا أهيّج سفيان، العجلي، تاريخ الثقات، ص ١٩٣.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥٣.
(٤) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥١.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥٣، والسمّاري: ضرب من السفن.
(٦) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٧١.
(٧) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٣٦١.

وأُخرِجت جنازته على أهل البصرة فجأة، فشهده الخلق، وصلّى عليه عبد الرحمن بن عبد الملك بن أبجر، وكان رجلاً صالحاً، رضيه سفيان لنفسه[1]، فاعترض بنو تميم وقالوا: يماني يصلّي على مضري؟ وكان عبد الرحمن كندياً، فقيل لهم أوصى بذلك، فخلّوا سبيله[2]، فصلّى عليه ونزل في حُفرته، ونزل معه خالد بن الحارث وغيرهما[3]، ودُفن عشاء[4] بشهادة ابن مهدي فقال: «. . . أردنا أن ندفن سفيان ليلاً من أجل السلطان، فأخرجناه فلم ننكر الليل من النهار»[5]، وكان دفنه في مقبرة بني كليب حسب رواية ابن حبّان الذي ذكر أنه زار ضريحه مراراً[6].

بعد ذلك، انصرف عبد الرحمن بن عبد الملك والحسن بن عباس إلى الكوفة فأخبرا أهلها بوفاة الثّوري[7].

رثاؤه وحزن الأئمة عليه:

وبوفاة الثّوري، فَقَدَ العالم الإسلامي، سيّداً من ساداته، وعَلَماً من أعلامه، وقائداً روحياً؛ ساد الناس باجتهاداته، وتديّنه، وورعه، وزهده، وعبادته، لهذا افتقده أصحابه العلماء، وحزنوا عليه وبكوه ورثوه

---

(١) ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧٤. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٦.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٠.
(٣) ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧٤.
(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٧٩. ابن النديم، ص ٣١٤. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٩١.
(٥) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٧٥.
(٦) مشاهير علماء الأمصار، ص ١٧٠.
(٧) ابن سعد، جـ ٦، ص ٣٧٤.

بما يليق به، ومما زاد في أسى بعضهم أنهم لم يشهدوا الصلاة عليه، ولم يشاركوا في جنازته، ففاتهم بذلك الأجر والثّواب.

حدّث أبو داود فقال: «مات سفيان بالبصرة فدفن ليلاً، ولم نشهد الصلاة عليه، وغدونا على قبره، ومعنا جرير بن حازم، وسلام بن مسكين، فتقدّم جرير وصلّى على قبره ثم بكى، وقال:

إذا بكيت على ميت لمكرمة
فابكِ الغداة على الثّوري سفيانا

فظننت أنه هيّأ أبياتاً يقولها، فسكت، فقال عبد الله بن الصباح:

أبكي عليه وقد ولّى وسؤدده
وفضله ناضر كالغصن ريّانا»[1]

وكذلك رثاه أبو زياد الفقيمي فقال[2]:

لقد مات سفيان حميداً مبرزاً
على كل قارٍ هجنته المطامعُ
جُعلتم فداء للذي صان دينه
وفرّ به حتى حوَته المضاجع
بعيد لأبواب الملوك مجانباً
وإن طلبوه، لا تَنَله الأصابع
فعيني على سفيان تبكي حزينة
شجاها طريدٌ نازح الدار شاسع

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٧٢. قابل تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧١.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٢٣. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٣.

على مثله تبكي العيون لفقده
على واصل الإرحام والخلق واسع
فجعنا به حَبراً فقيهاً مؤدّباً
بفقه جميع الناس قصد الشرائع (كذا)

وعندما سمع إسماعيل الزاهد بخبر الوفاة قال: «رحم الله أبا عبد الله، يا زين الفقهاء، يا سيد العلماء، يا قرير العيون، تبكي العيون لفقدك؛ على واصل الأرحام في زمانهم»[1].

وأما صديقه البارّ، الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك فيقول متأسفاً ونادماً على أستاذه الثّوري: «لِمَ لم أطرح نفسي بين يدي سفيان؟ ما كنت أصنع بفلان وفلان؟؟»[2].

٢ ـ الرؤى للثّوري بعد وفاته:

من الواضح؛ أنه كان للثّوري موقف من أصحاب المنامات، لهذا كان إذا قيل له: إنه رؤي في المنام يقول: «أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنامات»[3]. وهذا دليل قاطع على أنه قادر أن يزكّي نفسه، وليس بحاجة لأحد أن يزكّيه.

والحقيقة؛ فقد تأثّر الناس بشخصية الإمام سفيان الثّوري، وبالدور الكبير الذي قام به على مسرح الحياة الاجتماعية والدينية، وإعجبوا بجرأته الأدبية في مناهضة الظلم وفي الأمر والنهي، لهذا اهتم

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٠.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٦.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٥٢، الصفدي، جـ ١٥، ص ٢٨٠.

الناس به، وشغل تفكيرهم إبّان حياته وبعد وفاته، فكانت له رؤى صالحة تدل على نقاء سريرته وعلوّ مقامه بين معاصريه.

فعن أبي أُسامة قال: «كنت بالبصرة حين مات الثّوري ـ فلقيت يزيد بن إبراهيم صبيحة الليلة التي مات فيها الثّوري، فقال لي: قيل لي في منامي: مات أمير المؤمنين، فقلت للذي يقول في المنام: مات سفيان الثّوري؟ قال: قد مات الليلة، قال: فكان قد مات تلك الليلة ولم نعلم»(١).

وعن الوليد بن مسلم قال: «رأيت النبيّ ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله بمَن تأمر؟ قال: عليك بسفيان الثّوري»(٢).

وقال يوسف بن أسباط: «رأيت الثّوري في المنام، فقلت: أيّ الأعمال وجدت أفضل؟ قال: القرآن، فقلت: الحديث؟ فولّى وجهه»(٣).

وحدّث إبراهيم بن أعين البجلي وكان من خيّار الناس قال: «رأيت سفيان الثّوري في المنام ولحيته صفراء حمراء فقلت: يا أبا عبد الله ما صنعت فديتك؟ قال: أنا مع السفرة، قلت: وما السفرة؟ قال: الكِرام البَرَرَة»(٤).

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٢٢. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٢. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٩.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٢٠.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٩.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ١٢٠. حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨٤. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٧٩.

وعن أبي معاوية قال[1]: «رأيت سفيان الثّوري في المنام، وهو في بستان يقرأ: ﴿ **الحمد لله الذي صدّقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء** ﴾[2].

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: «رأيت سفيان الثّوري في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلّا أن وضعت في اللحد حتى وقفت بين يدي الله عزّ وجل فحاسبني حساباً يسيراً ثم أمر بي إلى الجنّة»[3].

ورأى رجل نفسه في الجنّة فسأل أهلها عن الثّوري بقوله: «ما لي لا أرى سفيان الثّوري معكم، فقد كان يذكر؟ فقالوا: هيهات، ذاك فوقنا، ما نراه إلّا كما نرى الكوكب الدرّي»[4].

وروى قبيصة أنه رأى سفيان في المنام فقال له: ما فعل بك ربّك؟ فقال:

نظرت إلى ربّي كفاحاً فقال لي
هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قوّاماً إذا أقبل الدجى
بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أيّ قصر أردته

---

(١) أحمد بن حنبل، الورع، ص ٧٣ ـ ٧٤. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٣. ابن كثير، جـ ١٠، ص ١٣٤.
(٢) سورة الزمر، آية: ٧٤.
(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ ٣، ص ٩٩.
(٤) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٧٤.

وزرنـي فـإنّي مـنـك غيـر بـعـيـد[1]

فهذه هي الصورة المتـألّقة التي انـطبعت في نفوس وأذهـان مُعاصِري سفيان الثّوري، والتي راحت تلاحقهم وتؤثّر فيهم في اليقظة وفي الأحلام. وهذا هو الشعور الخفي الذي يكنّه كل إنسان تجاه الشخص الذي يحبّ ويقدّر؛ حتى إذا ما افتقده أو غاب عن ناظريه؛ أظهر طيفه إلى حيّز الوجود كما يحبّ ويرغب أن يراه، وبما أن قدرة البشر تعجز عن التعويض الملموس والمحسوس، كانت الأحلام ـ أي الرؤى ـ هي المتنفّس الوحيد والأنجع لتحقيق الغاية المتوخاة. من هذا المنطلق كان قبولنا لهذا الجانب، في هذه الدراسة المتواضعة، وإن كان البعض يرفض هذا الأمر بإصرار وعناد، مع العلم أن أُمهات المصادر أولت هذه الناحية أهمية لا بأس بها، لذا، آمل أن يلقَ هذا العمل شيئاً من القبول مع الإشارة إلى أنني تركت دراسة موضوع «كرامات الثّوري» والتي غصّت بها المصادر الموثوقة، وذلك حتى لا تواجه بالنقد عينه، وإن كنت قد أحلتُ القارىء الكريم إلى أماكنها الصحيحة[2].

٣ ـ قدره وهيبته، وثناء الأئمة عليه:

بعد هذه الرحلة مع الإمام الحافظ سفيان الثّوري نخلص إلى

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٧٤. ابن أبي الوفاء. الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، جـ١، ص ٢٥٠، حيدر آباد: الدكن، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٢.

(٢) راجع: حلية الأولياء، جـ٧، ص ٧٣، ٧٥. إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص ٣٥٣، بيروت: دار صادر، د.ت. النووي، تهذيب الأسماء، ص ٢٨٨.

تقييمه من خلال ثناء الأئمة عليه.

الواقع؛ فقد كان الثّوري سيّداً من سادات أهل زمانه، فهو لم يرَ مثل نفسه[1]، وأقوال الأئمة في فضله وزهده وعبادته؛ تحتمل فصلاً كاملاً، ولكننا نكتفي هنا بذكر أبرزها لتكون نموذجاً يعطي فكرة واضحة عن أهمية الرجل بين معاصريه.

فالإمام الأوزاعي؛ يجد فيه الرجل القادر على أن يقوم بكتاب الله وسُنّة نبيّه، وتجتمع عليه الأمة بالرضى والصحة، وهي تزكيه لأنه ليس له قرين، فقال: «لم يبقَ مَن تجتمع عليه الأمة بالرضى والصحّة إلّا سفيان الثّوري»[2]. وقال أيضاً: «لو قيل لي اختر رجلاً يقوم بكتاب الله تعالى وسُنّة نبيّه ﷺ لاخترت لها الثّوري»[3]. وأيّده في ذلك بعض الأئمة، فقال أبو إسحاق الفزاري: «لو خُيِّرت لهذه الأمة لما اخترت لها إلا سفيان»[4].

وأما عبد الله بن المبارك، فيجده إماماً نقياً خالصاً لله، وهو لا يختلف بشيء عمّا يقولون عنه، لذا يستحق عن جدارة أن يقوم بمهمة الإمامة، والذبّ عن حُرمة الدين، فقال: «ما نعت إليّ أحد، فرأيته إلا وجدته دون نعته، إلا سفيان الثّوري»[5]. وقال أيضاً: «ما رأيت مثل سفيان، كأنه خلق لهذا الشأن»[6].

---

(١) تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٠٤. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤٠.
(٢) النووي، تهذيب الأسماء، ص ٢٨٧.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٨. تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٢.
(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٥.
(٥) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٨.
(٦) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٦.

وهو في نظر سفيان بن عُيينة أفضل أهل زمانه فكان يقول: «ما رأيت أحداً أفضل من سفيان، ولا رأى سفيان مثل نفسه»[1]. وقال: «جالست خمسين شيخاً من أهل المدينة، فما رأيت فيهم مثل سفيان»[2]. وأخيراً أعترف بفضله عليه فقال: «أنا من غلمان الثّوري»[3]، ولما التقى ابن عُيينة أحمد بن حنبل قال له: «لن ترى بعينك مثل سفيان الثّوري حتى تموت»[4].

ويرى أبو حنيفة أن الناس في أيّ زمان كانوا فهم بأمسّ الحاجة إلى الثّوري وعلمه الغزير، ولذا فإن فقده سيترك فراغاً كبيراً فيما بينهم، فقال: «لو مات سفيان في زمن إبراهيم ـ يعني النخعي ـ لدخل على الناس فقده». وقال: «لو كان سفيان الثّوري في التابعين لكان فيهم له شأن»[5]. ويرى ابن أبي ذئب أنه أشبه الناس بالتابعين فقال: «ما رأيت رجلاً أشبه بالتابعين من سفيان الثّوري»[6].

وكان الثّوري يشرّف الناس بمصاحبته إياهم، فيزكيهم ويرفع من قدرهم، قال ابن عيّاش: «إني لأرى الرجل يصحب سفيان فيعظم في عيني»[7]. ووجد المعافى بن عمران، أن الثّوري هو نعمة من الله وهبها

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٥٧.
(٢) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٢.
(٣) الجرح والتعديل، جـ ٤، ص ٢٢٤.
(٤) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٥٨. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٨.
(٥) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٦٩.
(٦) العجلي، تاريخ الثقات، ص ١٩١. تهذيب التهذيب، جـ ٤، ص ١١٤.
(٧) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٤ ـ ٨٥. تذكرة الحفّاظ، جـ ١، ص ٢٠٤.

للمسلمين فقال: «لقد مَنَّ الله على أهل الإسلام بسفيان الثوري»[1]. وهو كذلك أفضل أهل العراق وليس له شبيه بين أبناء بلده[2]، لأن فيه ريح الجنة وبه يتقرّب الناس إلى الله، قال محمد بن مسلم الطائفي: «. . . إذا رأيت سفيان فسَلْ الله الجنّة»[3].

إلى جانب ذلك، كان الثّوري رجلاً وقوراً تبدو عليه مظاهر الهيبة والإجلال، حتى أن أحد الفقهاء كان لا يجرؤ على النظر إلى وجهه، قال عبد الرحمن بن مهدي: «ما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياءً وهيبةً منه». وقال: «ربما كنّا عند سفيان فكأنه واقف للحساب لا نجترىء نسأله عن شيء»[4].

غير أن هيبة الثّوري؛ لم تكن مقتصرة على العلماء الذين يعرفونه عن قرب ويقدّرون فيه إمامته وعلوّ همّته، وإنما انتشر هذا الأمر بين عامّة الناس قريبهم وبعيدهم، وذلك لشدة تأثيره فيهم. ويؤكد ذلك ما رواه قبيصة إذ قال: «كنّا نأتي سفيان بعد العصر، لا يتكلم بشيء حتى يُمسي، ولقد أتيته ذات يوم فرأيت باب المسجد مردوداً، وظننت أنه ليس في المسجد أحد فلما دخلت، فإذا المسجد غاصٌّ بأهله، وهم سكوت وسفيان ساكت لا يتكلم»[5].

ولقد أمدّنا الخطيب البغدادي[6] بصورة حيّة تبيّن قدر الثّوري بين

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٦٠.
(٢) الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٨٤.
(٣) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦١.
(٤) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٠، ٧٣.
(٥) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٩٨.
(٦) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٨.

معاصريه، فذكر بسنده عن أبي داود أنه قال: «قَدِمت المسجد الحرام فرأيت حلقة نحواً من خمسمائة رجل في وسطها نائم، قلت: مَن هذا؟ قالوا: هذا أمير المؤمنين، هذا سفيان الثّوري، فرأيت رأسه في حجر زائدة[1] ورأيت رجله في حجر سفيان بن عُيينة، ورأيت رجله الأخرى في حجر زهير»[2].

والمُلفِت للنظر أن البعض وجد في الثّوري حجّة من الله على خلقه يوم تقوم الساعة، ولقد وصل الأمر بشُعيب بن حرب، وكان أحد السادة الأئمة الأكابر، أن جعله قدوة للناس بعد النبيّ ﷺ فقال: «إني لأحسب يُجاء بسفيان الثّوري يوم القيامة حجّة من الله على الخلق يقال لهم: «لم تدركوا نبيكم عليه أفضل الصلاة والسلام، فلقد ر أيتم سفيان الثّوري إلّا اقتديتم به»[3]. وإني لأجد في هذا الرأي مبالغة واضحة، وإن كنّا لا ننكر قدر الرجل وفضله وتألّقه بين معاصريه، استناداً إلى ما ذكرناه، ولكن هذا لا يعني أن العالم الإسلامي كان يفتقر إلى جمهرة من كبار الأئمة الذين كان لهم الدور الريادي على أكثر من صعيد.

وبعد؛ فهذا جلّ ما توصلنا إليه من خلال دراستنا لشخصية الإمام

---

(١) هو زائدة بن قُدامة الثقفي، أبو الصلت الكوفي، أحد الثقات الأثبات الأئمة، كان قد عرض حديثه على الثّوري، وروى عنه الثّوري، مات في أرض الروم سنة ١٦١/٧٧٨، ثقات العجلي، ص ١٦٣. السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ١٩٢.

(٢) هو زهير بن معاوية، أبو خيثمة الكوفي: الحافظ المتقن، كان صاحب سُنّة وأتباع، مات سنة ١٧٢/٧٨٨. ثقات العجلي، ص ١٦٦. تهذيب التهذيب، جـ ٣، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٣) تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ١٥٨. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٩٠. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٣٩.

سفيان الثّوري ونشاطاته العلمية، والاجتماعية، والسياسية، وهي في مجملها، تشكّل مشعل هداية تنير الطريق أمام الدارسين من أجيالنا الصاعدة، لتقتدي به، وبسيرته وبناموسه، لعلّه يبقى هو وسائر أعلام الأمة؛ خالدين في قلوب الشرفاء من أبناء الإسلام والعروبة.

المـــلاحق والفهارس

١ ـ الملاحق:

- ملحق رقم (١) من رسائل الثّوري ونصائحه وعظاته.
- ملحق رقم (٢) وصيـة الثّـوري لعلي بن الحسن السليمي.

٢ ـ الفهارس:

- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الكتاب.

ملحق رقم (١): من رسائل الثّوري ونصائحه وعظاته:

أ ـ بعض رسائله:

الملاحظ؛ أن الثّوري لم يقتصر في مراسلاته على الخلفاء وأصحاب الشأن، وإنما كانت له رسائل تنضح بالمواعظ والنصائح والحِكَم الرشيدة؛ مما يُظهِر بُعد ثقافة الرجل، وتمرّسه في مكابدة الحياة.

ولقد كان له في كتابة الرسائل نهج واضح، فيبدأ بالبسملة والسلام ثم الدعاء وينتهي بالنصائح والمواعظ، وكان دائماً يبدأ بنفسه ولا يحيد عن ذلك إلا نادراً، وهذا يثبت أن الرجل كان على علم ودراية في ممارسة هذا الفن.

فعن يوسف بن أسباط قال:

كان سفيان إذا كتب إلى رجل استهلّ كتابه بقوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من سفيان بن سعيد إلى فلان بن فلان، سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إلّه إلاّ هو، وهو للحمد أهل تبارك وتعالى، له المُلْك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

أما بعد؛ فإنّي أُوصيك ونفسي بتقوى الله العظيم، فإنه مَن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، جعلنا الله وإياك من المتّقين[1].

وكتب رجل إلى سفيان، أن عِظني وأوجز، فكتب إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، عافانا الله وإياك من السوء كله، يا أخي، إن الدنيا غمّها لا يفنى، وفرحها لا يدوم، وفكرها لا ينقضي، فاعمل لنفسك حتى تنجو، ولا تتوانَ فتُعطب، والسلام»[2].

وكتب إلى ابن أبي ذئب:

«من سفيان الثّوري إلى محمد بن عبد الرحمن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلّه إلاّ هو، وأُوصيك بتقوى الله، فإنك إن اتّقيت الله كفاك الناس، وإن اتّقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً، فعلك بتقوى الله عزّ وجل»[3].

وعن ابن أخي الثّوري قال:

«كتب سفيان إلى عبّاد بن عبّاد: أما بعد، . . .

« . . . عليك بالعزلة وقلّة مخالطة الناس، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، والنجاة في تركهم فيما نرى، وإياك والأمراء أن تدنو منهم وتخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك أن تخدع فيُقال لك: تشفع وتدرأ عن مظلوم، أن تردّ

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٦.
(٢) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٥، ١٩. المنّاوي، جـ ١، ص ١١٥.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٦٨.

مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فجار القرّاء سلماً».

وكان يقال: «اتّقوا فتنة العابد الجاهل، والعالِم الفاجر، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، وما لقّب من المسألة والفتيا فاغتنم ذلك ولا تنافسهم فيه... وإياك وحبّ الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحبّ إليه من الذهب والفضّة، وهو باب غامض لا يبصره إلاّ البصير من العلماء السماسرة. فتفقّد نفسك واعمل بنيّة، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت والسلام»(١).

وكان من خلال كتاباته يؤثّر في الناس، فاستغل هذه الناحية وعمل على ردع بعضهم، ولا سيما الفقهاء والعلماء منهم، عن القيام ببعض الأعمال التي يرتضيها لهم.

فعن يوسف بن أسباط قال:

أراد سليمان الخواص أن يركب البحر، فقالوا له: لا بدّ لنا من أمير، فقال أنا أميركم، فبلغ ذلك سفيان الثّوري فكتب إليه:

«الزهد في الرياسة أشدّ من الزهد في الدنيا» فلما قرأ الكتاب قال: «لست لكم بأمير»(٢).

وكتب الثّوري إلى أبي إسحاق الفزاري: «أُحذّرك هذا الأمر - يعني الحديث»(٣).

إلى جانب ذلك كانت للثوري رسائل مطوّلة تتضمن شتى

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.
(٢) تقدمة الجرح والتعديل، ص ٨٥.
(٣) تاريخ ابن معين، جـ ٢، ص ٢٨٤.

الجوانب التي تجابه الإنسان خلال عراكه مع الحياة، ففيها الجانب الديني والأخلاقي والاجتماعي والسياسي وهي تعتبر دستوراً متكاملاً للحياة السويّة[1].

ب ـ من نصائحه ووصاياه:

كان الثّوري إماماً نصوحاً، يتفقد الناس من حوله بالنصح، ويخصّهم بالمواعظ، ولم يكن ذلك مقتصراً على الحكّام والأمراء، وإنما شمل الأئمة والعلماء وسائر الناس.

حدّث الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك قال:

قال لي سفيان: «إياك والشُّهرة، فما أتيت أحداً إلا وقد نهى عن الشُّهرة»[2].

وسمع أحمد بن يونس رجلاً يقول لسفيان: يا أبا عبد الله أوصني. قال: «إياك والأهواء، إياك والخصومة، إياك والسلطان»[3].

وقال رجل لسفيان: أوصني، فقال له:

«اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر دوامك فيها والسلام»[4].

وجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله إنّي أُريد الحجّ، قال:

---

(١) انظر رسالته إلى عباد بن عبّاد في تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، ص ٨٦ ـ ٨٩.
(٢) أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٦٠.
(٣) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٨.
(٤) ابن حنبل، ص ٥٩، ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٧.

«لا تصحب مَن يكرُم عليك، فإن ساويته في النعمة، أضرّ بك، وإن تفضّل عليك، استذلّك»[1].

إلى جانب ذلك، كان للثّوري نصائح طويلة أخصّ بها صديقه علي بن الحسن السليمي وهي مادة فريدة في هذا المجال.

ملحق رقم (٢) وصيّة الثّوري لعلي بن الحسن السليمي:

من ضمن ما قاله له:

«يا أخي لا تغبط أهل الشّهوات بشهواتهم، ولا ما يتقلبون فيه من النعمة، فإن أمامهم يوماً تزلّ فيه الأقدام، وترعد فيه الأجسام، ويشتد فيه الحساب، وتتطاير فيه القلوب حتى تبلغ الحناجر، فيا لها من ندامة على ما أصابوا من هذه الشهوات...

يا أخي اكسب حلالاً، واجلس مع مَن كسبه من حلال، وكُل طعام مَن كسبه من حلال، وليكن أهل مشورتك من كسبه من حلال، فإن الورع ملاك الدين، واستكمال أمر الآخرة.

يا أخي، اجتنب الحرام ولا تجلس مع مَن يكسب الحرام، ولا تأكل مع مَن كسبه من حرم، ولا تدلّ أحداً على الحرام، ولا تشيرون إلى أحد فيأخذه، ولا تورثه إلى أحد، فإن فعلت من ذلك شيئاً فأنت عون له، والعون شريك.

يا أخي؛ إياك والظلم، وأن تكون عوناً للظالم، وأن تصحبه أو

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٦، ص ٣٨١. ابن خلّكان، جـ ٢، ص ٣٨٨ - ٣٨٩. أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٢٤١.

تؤاكله، أو تبتسم في وجهه، أو تنال منه شيء فتكون عوناً له والعون شريك.

يا أخي، لا تخالف أهل التقوى، ولا تجالس أهل المعاصي، واجتنب المحارم كلها واتّق أهلها، وإياك والأهواء فإن أولها وآخرها باطل، ولكل ذنب توبة، وترك الذنب أيسر من طلب التوبة(١).

يا أخي؛ لا تحسدنّ ولا تغتابنّ فتذهب حسناتك، وقد كان بعض الفقهاء يتوضأ من الغيبة كما يتوضأ من الحدث، وأحسِن سريرتك يُحسِن الله علانيتك، وأصلح فيما بينك وبين الله يصلح الله فيما بينك وبين الناس، واعمل لآخرتك يكفيك الله أمر دنياك(٢).

يا أخي؛ إياك ومجالسة أهل الجفاء، ولا تصحب إلّا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلّا تقي، ولا تصحب الفاجر، ولا تُجالسه، ولا تُجالس مَن يُجالسه، ولا تؤاكله ولا تُؤاكل مَن يُؤاكله، ولا تحبّ مَن يحبّه، ولا تُفْشِ إليه سرّك، ولا تبسّم في وجهه، ولا تُوسِع له في مجلسك، فإن فعلت شيئاً من ذلك فقد قطعت عُرى الإسلام.

يا أخي؛ وإيّاك وأبواب السلطان، وأبواب مَن يأتي أبوابهم، وأبواب مَن يهوى هواهم، فإن فتنتهم مثل فتن الدجّال، فإن جاءك منهم أحد فانظر إليه بوجه مكفهر، ولا تُبالِ منهم شيئاً فيرون أنهم على الحق فتكون من أعوانهم فإنهم لا يخالطون أحداً إلا دنّسوه.

يا أخي؛ لا تنازع أهل الدنيا في دنياهم تكن محبّباً إلى الناس. وإذا كنت مع الناس فعليك بكثرة التبسّم والبشاشة، وإذا خلوت فعليك

(١) حلية الأولياء، جـ ٧، ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٢) نفسه، جـ ٧، ص ٣٥.

بكثرة البكاء والهمّ والحزن. وإيّاك وخشوع النفاق وأن تظهر على وجهك خشوعاً ليس في قلبك(١).

يا أخي؛ . . . صِل رَحِمَك، وقرابتك وجيرانك وإخوانك، ثم إذا رحمت رحمت مسكيناً أو يتيماً أو ضعيفاً، وإذا هممت بصدقة أو ببرٍّ أو بعمل صالح فعجّل مضيه من ساعته.

يا أخي؛ وإياك والشحّ، فإن الشحّ يفسد عليك دينك، ولا تعدنَ أحداً شيئاً فتخلفه فتستبدل بالمودّة بغضاء، وإيّاك والشحناء فإنه لا تُقبل توبة عبد يكون بينه وبين أخيه شحناء، وإيّاك والبغضاء، فإنما هي الحالقة، وعليك بالسلام لكل مسلم يُخرِج الغلّ والغشي من قلبك، وعليك بالمصافحة تكن محبوباً إلى الناس، ولا تزل على وضوء تحبّك الحَفَظَة وإن متّ متّ شهيداً.

يا أخي؛ أُدنُ اليتيم منك وامسح برأسه يزدنَ في عمرك، وتكن رفيق نبيك، ارحم الصغير، ووقّر الكبير تلحق بالصالحين، وأطعم طعامك للأتقياء الصالحين. . . وإذا لبست جديداً فألقِ خلقانك على عارٍ يمسح اسمك من البخلاء، ويزد في حسناتك وينقص من سيئاتك، ولا تحبّ إلا في الله، ولا تبغض إلا في الله، فإن لم تفعل كان سيماك سيما المنافقين(٢).

وقال له أيضاً:

يا أخي؛ عليك بالصدق في المواطن كلها، وإيّـاك والكذب والخيانة ومجالسة أصحابها، فإنها وزرٌ كله، وإيّاك يا أخي والرياء في

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) المصدر نفسه، جـ٧، ص ٦١ ـ ٦٢.

القول والعمل فإنه شِرْكٌ بعينه...

عليك يا أخي بأدب حسن، وخلق حسن، ولا تخالفنّ فإن الخير فيها، إلا مَن هو مُكِبٌّ على الدنيا... وانصح لكل مؤمن إذا سألك في أمر دينه، ولا تكتمنّ أحداً من النصيحة شيئاً إذا شاورك فيما كان لله فيه رضى، وإيّاك أن تخون مؤمناً، فمَن خان مؤمناً فقد خان الله ورسوله، وإذا أحببت أخاك في الله فابذل له نفسك ومالك.

يا أخي؛ وإيّاك والخصومات والجدال والمِراء فإنك تصير ظلوماً خوّاناً أثِماً، وعليك بالصبر في المواطن كلها فإن الصبر يجرّ إلى البِرّ، والبِرّ يجرّ إلى الجنة، وإيّاك والحِدّة والغضب فإنهما يجرّان إلى الفجور، والفجور يجرّ إلى النار.

يا أخي؛ ولا تُمارينَ عالماً فيمقتك وإن الاختلاف إلى العلماء رحمة، والانقطاع عنهم سخط الرحمن، وإن العلماء خزّان الأنبياء وأصحاب مواريثهم، وعليك بالزهد يُبصِرك الله عورات الدنيا، وعليك بالورع يخفّف الله حسابك، ودع كثيراً ما يُريبك إلى ما لا يُريبك تكن سليماً، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك، وأْمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر تكن حبيب الله، وابغض الفاسقين... وأقلّ الفرح والضحك بما تصيب من الدنيا... واسأل الله العافية... ولا تكوننّ أكولاً لا تعمل بقدر ما تأكل...

يا أخي؛ وإيّاك والطمع فيما في أيدي الناس فإن الطمع هلاك الدين، وإيّاك والرغبة فإن الرغبة تُقسي القلب، وإيّاك والحرص على الدنيا... وكن طاهر القلب، نقي الجسد من الذنوب والخطايا، نقيّ اليدين من المظالم، سليم القلب من الغشّ والمكر والخيانة خالي البطن من الحرام، فإنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت.

يا أخي؛ كُفّ بصرك عن الناس، ولا تمشين بغير حاجة، ولا تكلّمنّ بغير حكم، ولا تبطش بيدك ما ليس لك... وأقِلّ العثرة، واقبل المعذرة، واغفر الذنب، كُنْ ممّن يُرجى خيره ويُؤمن شرّه، لا تبغضنّ أحداً ممّن يطيع الله، كُنْ رحيماً للعامّة والخاصّة،... وتجاوز عمّن ظلمك تكن رفيق الأنبياء والشهداء.

يا عليّ؛ أقلّ دخول السوق فإنهم ذئاب عليهم نياب، وفيها مردة الشياطين والجنّ والإنس، وإذا دخلتها فقد لزمك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنك لا ترى فيها إلا منكراً... فلا تجلس فيها، واقضِ حاجتك وأنت قائم يسلم لك دينك...»[1].

والحقيقة؛ إن كلام الثّوري وأحواله وألفاظه ومواعظه تكثر وتتّسع، وقد أخذت منها هذه الوصايا المتفرقة؛ لتكون أُنموذجاً لمنهج الثّوري في مكابدة الحياة.

---

(١) حلية الأولياء، جـ٧، ص ٨٢ ـ ٨٥.

فهرس المصادر والمراجع

أ ـ المصـــادر:

القرآن الكـــريم.

ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن إدريس (ت ٩٣٨/٣٢٧).

١ ـ تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعـديل، ط حيـدر آباد: الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٢/١٣٧١.

٢ ـ كتاب الجرح والتعـديل، صـورة بالأوفست عن ط دائـرة المعارف العثمانية، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

ابن أبي الوفاء، عبد القادر القرشي (١٣٧٣/٧٧٥).

ـ الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، ط ١، حيدرآباد: الدكن، مط. دار المعارف النظامية، ١٣٢٢ (في آخره ذيل الجواهر المضية).

ابن الأثير، عزّ الدين علي بن محمد (١٢٣٣/٦٣٠).

ـ الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر، ١٣٩٩/١٩٧٩.

ابن أعثم الكوفي، أحمد بن عثمان (٩٢٦/٣١٤).

ـ كتاب الفتوح، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦/١٤٦.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف الأتابكي (١٤٦٩/٨٧٤).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ - ١٩٧٢.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧/١٢٠٠).
- صفة الصفوة، ضبطها وكتب هوامشها إبراهيم رمضان وسعيد اللحّام، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩/١٩٨٩.

ابن الحاج، محمد بن محمد (٧٣٧/١٣٣٦).
- المدخل، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٢.

ابن حبّان البستي، أبو حاتم محمد (٣٥٤/٩٦٥).
- كتاب مشاهير علماء الأمصار، بعناية فلايشهمر، القاهرة: مط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩/١٩٥٩.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢/١٤٤٩).
١ - تهذيب التهذيب، حيدر آباد: الدكن. مط. دائرة المعارف النظامية. حيدرآباد: الدكن، ١٣٢٥ - ١٣٢٧ هـ.
٢ - تقريب التهذيب بعناية محمد عوّامة، حلب: دار الرشيد، ١٤٠٦/١٩٨٦.

ابن حزم، أبو محمد علي (٤٥٦/١٠٦٤).
- جمهرة أنساب العرب، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣/١٤٠٢.

ابن حنبل، أحمد بن محمد (٢٤١/٨٥٥).
- كتاب الورع، دون نشر، دون تاريخ.

ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١/١٢٨٢).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس،

بيروت: دار الثقافة، د.ت.

ابن رستة، أحمد بن عمر (٢٩٠/٩٠٣).
- الأعلاق النفيسة، ليدن: ١٨٩٢.

ابن سعد، محمد بن منيع (٢٣١/٨٤٥).
- كتاب الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر، د.ت.

ابن سلّام، أبو عبيد القاسم (٢٢٤/٨٣٩).
- كتاب الأموال، بعناية عبد الأمير مهنّا، بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٨.

ابن شاهين، عمر بن أحمد (٣٨٥/٩٩٥).
- تاريخ أسماء الثقات ممّن نقل عنهم العلم، تحقيق عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/١٩٨٦.

ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (٧٠٩/١٣٠٩).
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت: دار صادر، د.ت.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (٣٢٧/٩٣٩).
- العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين والزين والأبياري، القاهرة: ١٩٥٦.

ابن عربي، محي الدين (٦٣٨/١٢٤٠).
- محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٤/١٩٠٦.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ (١٠٨٩/١٦٧٩).

- شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، بيروت: دار الفكر ١٩٧٩.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدنيوري (٢٧٦/ ٨٨٩).
١ ـ الإمامة والسياسة، القاهرة: ١٣٢٧/ ١٩٠٩.
٢ ـ عيون الأخبار، القاهرة: مط. دار الكتب المصرية، د.ت.
٣ ـ كتاب المعارف، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٧.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٧٤/١٣٧٣).
- البداية والنهاية في التاريخ، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠١/١٩٨١.

ابن معين، يحيىٰ بن معين (٢٣٣/ ٨٤٧).
- تاريخ يحيىٰ بن معين، تحقيق عبد الله حسن، بيروت: دار القلم، د.ت.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١/١٣١٢).
- لسان العرب، بيروت: دار صادر، دار بيروت، د.ت.

ابن النديم، محمد بن إسحق (٣٨٥/ ٩٩٥).
- كتاب الفهرست، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

ابن يزيد، أبو عبد الله (٢٧٣/ ٨٨٦).
- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد الحافظ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦/١٩٨٦.

أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (٤٣٠/ ١٠٣٩).

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠/١٩٨٠.

الأربلي، عبد الرحمن سنبط (٧١٧/ ١٣١٧).

- خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك، القدس، ١٨٨٥.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦/٩٦٧).

- مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٧/١٤٠٨.

البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٥٦/٨٦٩).

- كتاب التاريخ الكبير، بيروت: دار الكتب العلمية. د.ت.

البلاذري، أحمد بن يحيىٰ بن جابر (٢٧٩/٨٩٢).

- فتوح البلدان، تحقيق رضوان رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨/١٣٩٨.

البيهقي، إبراهيم بن محمد (٣٢٠/٩٣٢).

- المحاسن والمساوىء، بيروت: دار صادر، د.ت..

الثّوري، سفيان بن سعيد (١٦١/٧٧٨).

- تفسير سفيان الثّوري المعروف بكتاب التفسير، تحقيق امتياز علي عريشي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/١٩٨٣.

الجزري، أبو الخير محمد (٨٣٣/ ١٤٣٠).

- غاية النهاية في طبقات القرّاء، بعناية ج. برجستراسر، بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٨٢.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣/١٠٧١.

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت: دار الكتب العربي، د.ت.

الخزرجي، صفي الدين، أحمد بن عبد الله (٩٢٣/١٥١٧).
- خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٢٢.

خليفة بن خياط، أبو عمرو الملقّب شباب (٢٤٠/٨٥٥).
١ - كتاب التاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف: مطبعة الآداب، ١٣٨٦/١٩٦٧.
٢ - كتاب الطبقات، حقّقه وقدّم له أكرم العمري، بغداد: مط. العاني، ١٣٨٧/١٩٦٧.

الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢/٨٩٥).
- الأخبار الطِوال، ط. مصر: د.ت.

الذهبي، شمي الدين محمد بن أحمد (٧٤٨/١٣٤٨).
١ - تذكرة الحفّاظ، صورة بالأوفست عن طبعة حيدرآباد: الدكن ١٣٧٥/١٩٥٥، بيروت: دار الكتب العلمية.
٢ - دول الإسلام، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٥/١٩٨٥.
٣ - سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤٠٦/١٩٨٦.
٤ - العِبَر في خبر مَن عَبَر، تحقيق المنجد والسيد، الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠ - ١٩٦٣.

السمرقندي، نصر بن محمد (٣٩٤/١٠٠٣).
- تنبيه الغافلين، وبهامشه بستان العارفين، القاهرة: د.ت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١/١٥٠٥).
١ ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد م. عبد الحميد، القاهرة: ١٣٧١/١٩٥٢.
٢ ـ طبقات الحفّاظ، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/١٩٨٣.

الشعراني، عبد الوهاب (٩٧٣/١٥٦٥).
ـ الطبقات الكبرى المسمى بواقع الأنوار في طبقات الأخبار، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩ هـ.

الشيرازي، أبو إسحق (٤٧٦/١٠٨٣).
ـ طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠.

الصفدي، خليل بن أيبك (٧٦٤/١٣٦٣).
ـ الوافي بالوفيات، جـ ١٥، باعتناء بيرندرانكة، فيسبادن: مرانزشتايز ١٣٩٥/١٩٧٩.

الطبري، محمد بن جرير (٣١٠/٩٢٣).
ـ تاريخ الأمم والملوك، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٣/١٩٨٣.

الطرطوشي، أبو بكر محمد (٥٢٠/١١٢٦).
ـ سراج الملوك، الإسكندرية: المطبعة الوطنية، ١٢٨٩ هـ.

العجلي، أحمد بن عبد الله بن صالح (٢٦١/٨٧٤).
ـ تاريخ الثقات، باعتناء عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥/١٩٨٤.

الغزالي، أبو حامد محمد (١١١٢/٥٠٥).
- إحياء علوم الدين، القاهرة: ١٣٠٢ وطبعة ١٣٥٨.

الفسوي، يعقوب بن سفيان (٨٩٠/٢٧٧).
- كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٤/١٣٩٤.

القشيري، عبد الكريم بن هوزان (١٠٧١/٤٦٥).
- الرسالة القشيرية في علم التصوّف، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت..

المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (٨٩٨/٢٨٥).
- كتاب الكامل في اللغة والأدب، بيروت: مكتبة المعارف. د.ت.

مجهول، . . .
- العيون والحدائق في أخبار الحقائق، من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم، تحقيق de Goeje، ط. بريل، ١٨٦٩.

المسعودي، علي بن الحسين (٩٥٧/٣٤٦).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣.

المقرّي، أحمد بن محمد التلمساني (١٦٣١/١٠٤١).
- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.

المنّاوي، عبد الرؤوف (١٦٢٢/١٠٣١).
- الكواكب الدريّة في تراجم السادة الصوفية، باعتناء محمود

حسن ربيع، القاهرة: مطبعة الأنوار، ١٩٧٨/١٣٥٧.

النووي، أبو زكريا محي الدين بن شرف (١٢٧٧/٦٧٦).

١ - بستان العارفين، تحقيق محمد الوفي، القاهرة: المطبعة المنيرية ١٣٤٨.

٢ - تهـذيب الأسماء واللغـات، تحقيق فـردينـانـد وستنفلد، غوتينغن، ١٨٤٢ - ١٨٤٧.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (١٢٢٩/٧٢٦).

- معجم البلدان، بيروت: دار بيروت - صادر ١٩٥٥ - ٥٧.

اليعقوبي، أبو يعقوب أحمد بن واضح (٨٩٧/٢٨٤).

- تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر ١٩٦٠/١٣٧٩.

ب - المـــراجع:

الزركلي، خير الدين.

- الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠.

الصالح، صبحي.

- علوم الحديث ومصطلحـه، بيروت: دار العلم للمـلايين، ١٩٧٥.

الكتّاني، محمد بن جعفر (ت ١٩٢٦/١٣٤٥).

- الرسالة المستظرفة لبيان كتب السُنّة المشرّفة بعنايـة محمد الكتّاني، دمشق: دار الفكر، ١٩٦٤/١٣٨٣.

ماجد، عبد المنعم.

١ - التاريخ السياسي للدولة العربية، بيروت: مكتبة الجامعة العربية، ط ٣، ١٩٦٦.

٢ - العصر العباسي الأول، التاريخ العباسي، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، ١٩٧٩.

فهرس الكتاب